University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

صناعة القرار في المصارف الليبية

دراسة نظرية ومقارنة على بعض المصارف الليبية العاملة بمدينة المرج

د. بركات أحمد عبدالقادر.

(استاذ مساعد بقسم ادارة اعمال - كلية الادارة والمحاسبة المرج / جامعة بنغازي - ليبيا)

الملخص

إن هذا البحث هو بحث استكشافي يحاول الباحث من خلاله التعرف على الواقع العملي لعملية صنع القرار الإداري في المصارف الليبية من خلال جمع المعلومات وتحليلها للوقوف على كفاءة الأساليب المتبعة. هذا وقد اشتمل البحث على جانبين هما الجانب النظري والذي يعني باستقراء الأدب الإداري والرجوع إلى المراجع ذات العلاقة؛ أما الجانب الآخر فهو الجانب الميداني الذي أتبع فيه أسلوب المسح الشامل لجمع البيانات الأولية باستخدام صحيفة الاستبيان كأداة رئيسية وضعت لأفراد العينة من مدراء ومسؤولين في الإدارات الوسطى والدنيا للمصارف التجارية العاملة بمدينة المرج. ونظراً لطبيعة هذا البحث فقد استخدمت النسبة المئوية كأسلوب إحصائي وصفي في تحليل البيانات.لقد توصل الباحث من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج حددت في مجملها القصور البين الذي تعاني منه المصارف التجارية الليبية، ويحد من مهام معظم المدراء ويظهر عجزهم على إيجاد توازن بين مسؤولياتهم ونشاطهم الوظيفي وهو ما انعكس سلباً على صناعة القرار وفق المقررات والأصول العلمية للإدارة. هذا ومن مادة هذه النتائج أوصى البحث ببعض النقاط التي تسهم في تذليل هذه الصعاب وترشد مجتمع البحث إلى الكيفية والأساليب العلمية التي تمكنهم من التعامل مع تلك المشاكل والصعاب وإيجاد الحلول المناسبة لها، كما تسهم في تطوير قدراتهم ومهاراتهم الإدارية في مجال صناعة القرار.

Abstract

This research is the Exploratory research from which the researcher is trying to identify the practice of administrative decision-making process in the Libyan banks through the collection and analysis of information to determine the efficiency of the methods used. This has included research on two aspects side theory, which means extrapolating administrative literature and refer to the relevant references; the other side is the field side, which followed a comprehensive survey for the collection of raw data using a newspaper questionnaire as a key tool developed for members of the sample of managers and administrators in the middle and lower departments style Commercial banks operating in the meadow. Due to the nature of this research percentage statistical method and it has been used in a descriptive analysis of the data.

We have reached a researcher through this research to the set of results identified in its entirety palaces Albin suffered by the Libyan commercial banks, and limits most managers tasks and shows their inability to find a balance between their responsibilities and functional activity which is reflected negatively on the decision-making process in accordance with the decisions of scientific and asset management.

This is material these results recommended Find some points that contribute to overcome these difficulties and to guide the research community to how scientific methods that enable them to deal with those problems and difficulties and to find appropriate solutions, and contribute to the development abilities and management skills in decision-making.

مقدمة :

إن صناعة القرار بدأت منذ أن نظم الإنسان نفسه وشكل الأسر والمجتمعات البشرية ليتلاءم مع ظروفه المعيشية. وقد أشارت الحضارات القديمة إلى ذلك من خلال النقوش والكتابات والمخطوطات القديمة عن وجود تنظيمات رسمية وأساليب إدارية استخدمت في مواجهة المشكلات.

غير أن مرحلة فهم السلوك والتنبؤ به هي وليدة الدراسات العلمية في العصر الحديث، وفهما ركيزتان من ركائز صنع القرارات التنظيمية. ولعل ما نشهده اليوم من اهتمام منقطع النظير لموضوع القرار الإداري في الأوساط العامة والخاصة يعود إلى ما تشهده المنظمات الحديثة من تطور تكنولوجي وزيادة مفرطة في حجم المنظمات وتنوع أشكالها ومخرجاتها وانفتاحها على العالم وبالتالي ارتفاع سقف طموحاتها وأهدافها بسبب هيمنتها المطلقة على مختلف جوانب الحياة البشرية. الأمر الذي يلزمنا بضرورة التأكد من أن صناعة القرار في منظماتنا العامة الليبية ينجز وفقاً للأسس والمبادئ الإدارية الحديثة. أي معرفة أين منظماتنا من صناعة القرارات الإدارية وفق الأساليب الحديثة.

لذلك يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أدبيات الإدارة في مجال صناعة القرار مع الوقوف على الواقع الفعلي للمنظمات المصرفية العاملة بمدينة المرج في هذا المجال. حيث سيتم الاعتماد على المصادر العلمية لتغطية الجانب النظري لأسس ومفاهيم وأساليب صناعة القرار في العلوم الإدارية من خلال الكتب والمراجع والدوريات والمجلات والتقارير العلمية .

أما الجانب الثاني الذي يمثل الدراسة التطبيقية سيتم من خلال استقراء الواقع الفعلي لصناعة القرار في بعض المصارف العاملة بمدينة المرج الليبية باستخدام صحيفة الاستبيان والمقابلة الشخصية كأداتين مناسبتين لجمع البيانات والمعلومات من عينة البحث المستهدفة وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى نتائج الدراسة وتقديم التوصيات والمقترحات.

مشكلة البحث :

إن من أهم ما يثار في عملية صنع القرار لإداري أو حتى ما يتعلق بمراحل اتخاذ القرار هي تلك المرتبطة بمدى صحة ما قدمه خبراء الإدارة في السابق فيما يخص ترتيب مراحل اتخاذ القرار الإداري فهذه العملية تأخذ منحى آخر في بلادنا تحكمه عوامل كثيرة ومعقدة ولها أشكالا متعددة ومتباينة نظراً لاعتبارات البيئة المحلية وما يعكسه الواقع الاجتماعي في هذاالجانب، وتأثير العوامل السيكولوجية والفسيولوجية في صانع القرار، بالإضافة إلى قدراته ومهاراته المحدودة في إيجاد التوازن بين الأسس العلمية والواقع العملي.

هذا بالإضافة إلى ما التمسه الباحث من خلال زياراته لبعض المؤسسات العامة الخدمية العاملة بمدينة المرج في قطاعي الصرافة والصحة والتي تشير إلى إهدار عنصر الوقت من خلال تأخر صناع القرار في إصدار القرارات السليمة في وقتها. كما أن ما يستند عليه في ذلك لا يتعدى بعض البيانات الشخصية أو التحريرية المتواضعة والتي تحتاج إلى التأكد من مدى صحتها وتوقيتها. بالإضافة إلى دور العلاقات غير الرسمية في اتخاذ قرارات يشوبها كثير من التساؤلات. وهي ما يعتبرها الباحث من المؤشرات السلبية التي تؤكد احتمالية استخدام أساليب غير علمية من قبل صناع

القرار في هذه المؤسسات العامة عند صياغة القرارات. والذين يعتبرهم الباحث في منأى عن الأصول العلمية للإدارة التي تحتم دراسة المشكلة وفق أطرها العلمية بالإضافة إلى عدم درايتهم بعواقب القرار غير السليم، أو القرار الصحيح في الوقت غير السليم الذي يفوت الكثير من الفرص التي تدعم المؤسسة وتزيد من موقفها.

وبناء على ما تقدم برزت مشكلة هذا البحث. والتي يمكن صياغتها في السؤال التالي : ((هل يمارس صناع القرار في المؤسسات المصرفية الليبية العاملة بمدينة المرج مهامهم وفقاً للأسلوب العلمي؟)).

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الأسس العلمية لعملية اتخاذ وصياغة القرار، والاطلاع على الواقع العملي لها في المؤسسات الخدمية العامة الليبية العاملة بمدينة المرج مستهدفاً ما يلي :

1 – إبراز أهمية القرارات الإدارية وفقاً للأسس العلمية.

2 – إمكانية التعرف على مراحل صنع القرار الإداري في القطاع المصرفي.

3 – التعرف على الأساليب المعتمدة لدى إدارة المصارف محل البحث في صنع القرار.

4 – إمكانية التعرف على المشاكل المتعلقة باتخاذ القرار الإداري وتحليلها بشكل علمي للوقوف على الأسباب التي تعيق عملية اتخاذ القرار في الوقت المناسب بغرض تحديد جوانب الضعف وإمكانية معالجتها والوصول إلى بعض المقترحات العملية التي من شأنها أن تسهم في تحسين عملية اتخاذ القرارات في المؤسسات محل البحث.

أهمية البحث :

يأمل الباحث أن يكون هذا البحث إضافة للدراسات التي تناولت عملية صنع القرار الإداري في القطاع المصرفي الليبي من خلال ما قد يسهم به في إظهار الواقع والتعرف على الإمكانيات المتاحة والأساليب المتبعة في ممارسة الاختصاصات كما يرى الباحث أن لهذا البحث أهمية مباشرة تكمن في ما وصل إليه من نتائج وتوصيات ستسهم في تقويم عمليات صنع القرار في القطاع المصرفي الليبي من خلال تتبعها الفعلي للمراحل التي تمر بها صناعة القرار الإداري في المصارف محل البحث، وبالتالي فهي أيضاً مادة بحثية يمكن الاستفادة من نتائجها مستقبلاً. كما أنها إثراء للمكتبة الليبية التي تفتقر للمعرفة العلمية والعملية في هذا الجانب، ومحفزاً للدارسين و البحاث لتناول هذا الموضوع باعتباره مجالاً حديثاً.

منهج البحث :

يعتبر هذا البحث بحثاً وصفياً لمشكلة واقعية أكثر شمولاً، مما يساعد الباحث في منحه فرصة واسعة ومرونة مطلوبة في تصوير المشكلة واكتشاف أبعادها قياساً مما تشير إليه الأسس العلمية في إصدار القرار. لذلك سوف تشتمل منهجية البحث على الجوانب التالية :-

- المنهج الاستقرائي :وفيه يتم الاعتماد على المصادر العلمية كالكتب، والدوريات، والمنشورات، والوثائق العلمية لوضع الإطار النظري لهذه الدراسة.
- النهج الاستنباطي : وفيه يتم الاعتماد على المصادر العملية المتمثلة في الجانب الميداني كمصدر معلوماتي مرضٍ.

هذا وقد اعتمد هذا البحث على أداتين لجمع البيانات هما "الاستبانة" و "المقابلة الشخصية" مستهدفاً من خلالهما جميع الإداريين في فروع مصارف الجمهورية، والوحدة، والادخار بمدينة المرج. بينما اقتصرت عينة البحث على المديرين ورؤساء الاقسام والمكاتب بالمصارف محل البحث والذين بلغ عددهم (30) مديراً.هذا ولقد تم الاستعانة بالإحصاء الوصفي لتحليل البيانات المتحصل عليها، أما فيما يتعلق بمادة هذا البحث فقد صنفت وفقاً للمحاور التالية :

أولاً :- المحور النظري ويشتمل على الأصول والأساليب العلمية لصناعة القرار.

ثانياً :- المحور التطبيقي ويشتمل على الواقع العملي لصناعة القرار في المصارف محل البحث.

ثالثاً :- النتائج والتوصيات.

الدراسات السابقة :

إن من أهم المرجعيات العلمية لدى الباحثين هي الدراسات البحثية كمصدر تجريبي للتعرف وفهم الجوانب البحثية وحركتها وتأثيراتها. فهي مدد معلوماتي يساعد الباحث على دراسة المشكلة بشكل أوسع وأعم.

غير أن ما توفره المراكز البحثية بمدينة المرج هو قدر متواضع جداً في مجال النظم الإدارية الخدمية في ليبيا وذلك حسب علم الباحث الذي أختار منها ما يرى أنها ستسهم في إثراء هذه الدراسة وهي على النحو التالي :

1. دراسة هاشم (1987م):

تناولت هذه الدراسة طرق العمل من الجانب التطبيقي حيث أجريت على قطاع الأعمال الكويتي مستهدفة أمكانية الوقوف على الأوضاع والظروف التي تشكل المناخ التنظيمي السائد وتحليل نتائجها والتعرف على مدى الارتباط بين طبيعة المناخ السائد في العمل ووجود الأجهزة والوحدات المتخصصة في المؤسسات وقد توصلت الدراسة إلى أن هناك علاقة طردية بين المناخ السائد والأجهزة المتخصصة كما وضحت هذه العلاقة طرق العمل[1].

2. دراسة عبدالمقصود (1993م):

[1] زكي محمود هاشم (1987م)، وحدات التنظيم وطرق العمل بين النظرية والتطبيق، مجلة الإدارة العامة، العدد (55)، ص ص: 61-106.

لقد اشارت هذه الدراسة بأن ليبيا من بين الدول العربية التي تفتقر للخبرات والكفاءات المهنية ذات المستويات العالية من حملة الدرجات العلمية المتخصصة وهو ما ألة إلية كأحد أهم أسباب عجر القوى العاملة في المؤسسات الليبية عن أداء مهامها بالكيفية السليمة. وقد أوصى الباحث في دراسته بعدم السماح بممارسة المهن دون مراعاة مبدأ التخصص من خلال الوصف والتوصيف الوظيفي المعتمد[2].

3. بوخريص(1993م):

لقد تناولت هذه الدراسة واقع ممارسة المديرين لمهامهم الوظيفية التخصصية لمعرفة أثر ذلك على أداء إداراتهم وعلى مدى تحقيق أهداف مؤسساتهم هذا وقد توصلت الدراسة إلى أن هناك قصور واضح وضعف شديد ناتج عن عدم الاهتمام الواضح من قبل الإدارة العليا بإداراتهم بالإضافة إلى الصعوبات والعوائق التي تواجه أدائهم مما انعكس سلباً على كفاءتهم وفعالية في ممارستهم لمهامهم التخصصية حيث أثر بشكل كبير على الأداء وتحقيق الأهداف[3].

4. دراسة الأوجلي(2002م):

لقد تناولت هذه الدراسة نقص المعلومات وأثرها على العلاقة بين السلوك القيادي والمناخ التنظيمي بالمصارف التجارية الليبية. وقد أوضحت الدراسة للقادة الإداريين من تأثير بالغ على المناخ الإداري.

هذا وقد توصلت الدراسة إلى أن أداء المسؤولون بالمصارف هو الضمان للحصول على المعدلات المستهدفة وهي تتوقف على صلاحية المناخ الإداري الذي يعملون فيه[4].

المحور النظري

الأصول والأساليب العلمية

لصناعة القرار الإداري

إن تصرف الفرد وجهوده قد تكون عملاً مقصوداً في الغالب فهي نتائج تفكير وتدبر كما أنها قد تكون عملاً غير مقصود نتيجة اللاشعور، أو كردة فعل. فإذا كان التصرف قد حدث نتيجة تفكير فذلك يعني أن الفرد قد اتخذ قراراً، أي العمل مقصود فالاختيار هو أساس اتخاذ القرار من بين البدائل المطروحة كما أن الاستدلال عليها يتم بالأشياء المتعلقة بها كالحوادث والصفات المشتركة والعلاقات بينها[5].

---

[2] سيد محمود عبدالمقصود (1993م)، الخبرات البشرية العربية، سلسلة بحوث التنمية والحضارات، مركز دراسات العالم الإسلامي، ص ص:221-225

[3] أوريده سليمان بوخريص(1993م)، دراسة واقع ممارسة مديري إدارات الإنتاج لوظائفهم التخصصية وأثر ذلك على الأداء، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الاقتصاد وإدارة الأعمال.

[4] محمد فرج الاوجلي(2002م)، السلوك القيادي والمناخ التنظيمي بالمصارف التجارية، رسالة ماجستير غير منشورة، أكاديمية الدراسات العليا-بنغازي.

[5] سيد محمود الهواري (1973) الأصول والأسس العلمية ، القاهرة ، ، الإدارة _ مكتبة عين شمس ، ط5 ، ص ص : 35-39 .

إن صناعة القرار الإداري هي نشاط فكري خلاق يرتبط بشكل مباشر بالأهداف ويؤثر في مستقبل المنظمة بشكل كبير. فهذه العملية هي جوهر العمل الإداري، كما أن كليهما يعتبر تفكير ابتكاري وعمليات ذهنية متميزة تتطلب قدرات تخمينية وتصويرية وإبداعية تتم داخل مساحة من الواقعية لما هو متاح نظراً لاعتمادهما على الحقائق. فصناعة القرار تبنى على دراسات وتحاليل علمية وتتطلب جهود فكرية توحد العلاقات بين مسببات المشكلة لتحديد مدى تأثير الحلول المقترحة كبدائل تم فرزها وحددت مزاياها وعيوبها لصياغة أفضلها في شكل قرار إداري. وهنا وجب التنويه إلى أن المرحلة الأخيرة من صناعة القرار التي تتعلق بالمقارنة بين البدائل وتحديد أفضلها هي التي يطلق عليها "اتخاذ القرار" وبالتالي فإن صناعة القرار هي عمليات أشمل وأكبر.

مفهوم صناعة القرار :

يعرف القرار بأنه العملية التي يقوم بها الفرد في البت النهائي فيما يجب أن يكون أو لا يكون لاختيار أفضل الحلول أو البديل المناسب من بين مجموعة من البدائل وذلك لمواجهة مشكلة أو موقف معين على أن يحقق أقصى فاعلية ويتناسب مع الظروف القائمة.

إن عملية صناعة القرار تتم لمعالجة مشكلة قائمة أو مواجهة موقف معين قائم أو محتمل الوقوع أو لتحقيق هدف أو أكثر مستقبلاً. وهذه العملية تتوقف على قدرات صانع القرار المكتسبة بالإضافة إلى مدى يقظته، فقد تكون جوانب المشكلة غامضة أو أن أسبابها معقدة أو غير موجودة أي غير ظاهرة مما يتطلب درجات عالية من الحذر وجهود كبيرة لاستطلاع الظروف المحيطة حتى يمكن التنبؤ بها وتوقع حدوثها. لذلك يقوم صانع القرار بتجميع البيانات والمعلومات الازمة وتحليلها آخذا في الاعتبار الظواهر المحيطة حتى يتمكن من اختيار أفضل البدائل وصياغته كقرار رشيد يحقق ما اتخذ من أجله. لذلك من البديهي أن تصنع قرارات تعمل على إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات والصعوبات التي تعترض جهود أو نشاط ما، وفي المقابل على صانع القرار أن يأخذ في الحسبان الفرص وإمكانية الاستفادة منها التي تعزز قدراته وإمكانياته في إنجاح نشاطاته[6].

إن الحاجة لاتخاذ قرار ما يقابلها هي نتيجة ينبغي تحقيقها وبالتالي فإن هذه العملية تحتاج إلى وسائل ومسارات وجهد ذهني للوصول إلى هذه النتيجة. وعليه يعرف القرار بأنه المسار الذي يختاره صانع القرار كأنسب وسيلة متاحة لتحقيق هدف محدد.

العوامل المؤثرة في صناعة القرار :

تأتي مسؤولية صناعة القرار الإداري في معظم الحالات في جهود أكثر من فرد نتيجة لما تتطلبها من دراسة وأبحاث تقوم بها لجنة أو أكثر معدة لهذا الغرض.

هذا وقد أثبتت الدراسات الإدارية بأن القرارات تتأثر بعدة عوامل قد تعيق صدورها بالكيفية السليمة أو قد تؤدي إلى تأخرها، حيث تعتبر المؤثرات الأتية من أهم المؤثرات على صناعة القرار[7] :

1. عوامل البيئة الخارجية : تعتبر المنظمة إحدى خلايا المجتمع التي تتأثر به بشكل مباشر أو غير مباشر. وبالتالي فإن صنع القرار الإداري في المنظمة يتأثر بالظروف

[6] حسن علي (1997) ، نظرية القرارات الإدارية – مدخل كمي في الإدارة ، الكتبة الدولية للنشر ، القاهرة ، ص 99 .
[7] كاسر نصر المنصور (2000م) ، نظرية القرارات الإدارية ، عمان ، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع ، ص29 .

الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والتقنية. كما يتأثر بقيم المجتمع وعاداته ومعتقداته. هذا بالإضافة إلى تأثره بما يصدر عن المنظمات من قرارات سواء كانت هذه المنظمات منافسة أو ترتبط بالمنظمة من خلال معاملات أو يضمها إطار مؤسسي واحد كمؤسسات الدولة المختلفة.

2. عوامل البيئة الداخلية : تعتبر البيئة الداخلية من أهم المؤثرات في القرار الإداري. فحجم المنظمة، ومدى نموها، وعدد العاملين بها وغيرها هي من خصائص المنظمة كدرجة المركزية بها، ودرجة العلاقات التنظيمية بين الأفراد والإدارات، ودرجة وضوح الأهداف، ومدى توفر الموارد. كل ذلك له انعكاساته سلباً أو إيجاباً على القرار ويظهر واضحاً في النواحي التي ترتبط بالنواحي الداخلية المحيطة بصناعة القرار، كما يظهر تأثيرها على أفراد التنظيم، وعلى الموارد المتاحة. لذلك تعمل الإدارة على توفير المناخ المناسب لنجاح القرار، كالإعلان عن الهدف من القرار، فمن خلاله تشجع القدرات الابداعية على تحقيق سرعته وفعاليته.

ويعتبر الهيكل التنظيمي، وطرق الاتصال، والتنظيم الرسمي وغير الرسمي من أهم عوامل البيئة الداخلية المؤثرة في صناعة القرار. كما أن ما يتخذه المدراء الآخرين من قرارات داخل المنظمة لها تأثيرها على متخذ القرار حيث يجد نفسه مضطراً للالتزام بالقرارات الصادرة عن غيره على الرغم من كونها قرارات تحمل مفاهيم وأهداف قد تختلف عن مفاهيمه وما يجب أن يعبر عنه القرار.

3. العوامل أو المؤثرات الشخصية لمتخذ القرار : تتصل صناعة القرار بصفات الفرد السيكولوجية والفسيولوجية. فالجوانب النفسية والمكونات الشخصية للفرد وأنماط سلوكه تتأثر ببيئته وبظروفها المختلفة، كالأوضاع العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية مما يؤدي بصانع القرار إلى أن يسلك مسلك المجازفة أو الحذر أو التسرع أو التهور. كما أن الفروقات الشخصية لصانع القرار لها تأثيرها في طبيعة القرار، فمستوى ذكاء المقرر، وخبرته، ومهارته، وميوله وانفعالاته جميعها ذات تأثير في القرار. وتختلف درجة هذا التأثير باختلاف نوعية المقررين إذ نجد أن بعضهم ينتابه الارتباك عند تحديد المشكلة أو تحديد البدائل، أو متردداً في اتخاذ القرار، أو متسرعاً، أو حذراً ويعمل ببطء لتجنب الوقوع في الخطأ. أي أن متخذ القرار يتأثر بعوامل واعتبارات منها ما هو غير موضوعي لا يتعلق بالمشكلة، بل تعكس أفكاره وقيمه ومعتقداته وأهدافه الشخصية متأثرة بتكوينه الشخصي ودوافعه واتجاهاته وقيمه الاجتماعية عند إصدار القرار.

4. عوامل ظروف القرار : إن القرار الإداري غالباً يتخذ وفق موقف معين وإن اختلاف المواقف لدى الإدارة وصانع القرار من حيث العوامل والظروف المحيطة بالمشكلة بالإضافة إلى دقة المعلومات المتوفرة لها تأثيرها الواضح على صناعة القرار مما قد يؤدي إلى اتخاذ قرارات في ظروف عدم التأكد أو في ظروف التأكد، أو في درجة من المخاطرة.

وهنا نود أن نشير إلى أنه بالإضافة إلى العوامل السابقة هناك تأثير لعنصر الزمن على صناعة القرار، فكلما طالت الفترة الزمنية المتاحة لمتخذ القرار كلما تمكن من إيجاد بدائل أكثر وكانت مخرجات القرار أقرب إلى الصواب. بالإضافة إلى تأثيره على أهمية القرار من حيث عدد الأفراد

المتأثرين بالقرار، وكلفة القرار، والوقت اللازم لاتخاذ القرار لذلك فكلما زادت أهمية القرار، ازدادت أهمية المعلومات وكيفية الحصول عليها.

مراحل اتخاذ القرار :

لقد وصف بعض المهتمين عملية اتخاذ القرار على أنها "الاختيار" من بين البدائل المتاحة، إلا أن هذه النظرة هي نظرة بسيطة لعملية اتخاذ القرار فهي ليست نشاطاً محدداً يتضمن اختيار بديل من بين البدائل المتاحة فقط. بل أن هذه العملية تتألف من خطوات رئيسية هي كالتالي[8] :-

1 – مرحلة تحديد المشكلة : وتشمل الاعتراف بالمشكلة من حيث تحديدها وبلورتها.

2 – مرحلة جمع المعلومات : وهي المعلومات المتعلقة بالمشكلة وظروفها المحيطة والمواقف الحقيقية وما يتصل بها من مؤثرات. بالإضافة إلى تصنيفها وتحليلها.

3 – مرحلة تحديد المعايير التي يتخذ على أساسها القرار وتعيين أوزانها بناءً عليها.

4 – مرحلة تحديد البدائل وتطويرها.

5 – مرحلة تحليل البدائل وتقييمها.

6 – مرحلة اختيار البديل الأمثل : وهي مرحلة القرار.

7 – مرحلة تنفيذ وتطبيق البديل الأمثل.

8 – مرحلة التقييم والمتابعة : وتهدف إلى تقييم كفاءة القرار المتخذ.

أنواع القرارات :

إن للقرارات أشكالاً عدة وجوانب عديدة صنفت عليها كمجموعات وإن من أهم هذه التصنيفات المتداولة ما يلي :-

أولاً : حسب عدد متخذي القرار : فقد تم تصنيفها إلى :

1. قرارات فردية : وهي القرارات التي تتخذ من جانب واحد (شخص واحد) وتهدف إلى تحقيق هدف واحد، أو عدة أهداف تخدم مصلحة واحدة.
2. قرارات جماعية : وهي القرارات التي تتخذ من شخصين أو أكثر، وتهدف إلى تحقيق أكثر من هدف فرعي تكون في مجملها هدفاً رئيسياً.

ثانياً : حسب المضمون : تصنف القرارات حسب المضمون إلى :

1. القرار السياسي : هو القرار المتعلق بتصميم وتشكيل الأهداف ويتسم بالشمولية ويركز على الشرعية القانونية والتراضي.

[8] سلطان بن محمد بن علي سلطان ، (1999م) ، أساسيات الإدارة _ المبادئ والتطبيقات الحديثة ، الرياض ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، ص87 .

2. القرار الإداري : هو القرار الذي يعكس سلطة الإدارة الملزمة بمقتضى القوانين واللوائح، وان الباعث عليه هو تحقيق المصلحة العامة.

ويختلف القرار الإداري باختلاف المركز الإداري الذي يشغله صانع القرار (المدير)، وبمدى الصلاحيات الممنوحة له، كما أن لبيئة المنظمة تأثيراً مباشر في شكل القرار. ونتيجة لهذه الاختلافات فقد تم تصنيف القرارات الإدارية إلى عدة أنواع كالتالي[9] :-

أولاً : من الناحية القانونية :- تقسم القرارات الإدارية وفقاً للمعيار القانوني إلى ما يلي :

1 – مدى القرار وعموميته ويتضمن :

أ – القرار التنظيمي : وهو القرار المنظم لقواعد عامة تنطبق على عدد غير محدد من الأفراد كاللوائح التنظيمية والسياسات والنظم الإدارية.

ب – القرار الفردي : وهو القرار الموجه من المدير إلى فرد معين كقرار التعيين.

2 – تكوين القرار ويتضمن :

أ – قرارات بسيطة : وهي التي لها كيان مستقل وأثر قانوني، كتوقيع الجزاء الإداري والمكافأة.

ب – قرارات مركبة (مندمجة) : وهي التي تدخل في تكوين مسألة قانونية، كنزع الملكية أو الدخول في مزاد.

3 – الرقابة القضائية : وذلك من حيث أثر الرقابة القضائية عليها وهي تتضمن :

أ – قرارات تخضع لرقابة القضاء.

ب – قرارات سيادية لا تخضع لرقابة القضاء.

4 – أثر القرار على الأفراد ويتضمن :

أ – قرارات ملزمة كالأوامر الإدارية.

ب – قرارات غير ملزمة ويقتصر أثرها فقط على الإدارة مثل التعليمات الإدارية التي توضح الإجراءات.

5 – القابلية للإلغاء أو التعويض وتتضمن :

أ – قرارات قابلة للإلغاء او التعويض، كقرارات الفصل وتوقيع الجزاء.

ب – قرارات غير قابلة للإلغاء، كقرارات مجلس الإدارة المتعلقة بالنواحي التنظيمية.

6 – أثر القرار على وظائف المنظمة : وتقسم القرارات الإدارية وفق هذا المعيار إلى ما يلي[10] :

أ – قرارات تتعلق بالوظائف الإدارية وكيفية تنفيذها.

---

[9] محمد عبدالفتاح الصيرفي ، (2003م) ، دار الثقافة للنشر والتوزيع والدار العالمية الدولية ، عمان ، ص ص : 61-62 .

[10] كاسر نصر المنصور ، مرجع سابق ، ص ص : 27-28 .

ب – قرارات تتعلق بوظائف المنظمة وحجمها وأساليبها وتتضمن :

- قرارات الإنتاج ونوعيته وحجمه.
- قرارات التسويق.
- قرارات التمويل.
- قرارات تتعلق بشؤون الأفراد.

ثانياً : من ناحية النتائج :- تقسم القرارات الإدارية حسب معيار درجة تحقيق النتائج إلى[11] :

أ – قرارات رشيدة : وهي القرارات التي تكون مخرجاتها جيدة بحيث تؤدي إلى حلول للمشاكل القائمة.

ب – قرارات غير رشيدة : وهي على العكس من سابقتها فهي لا تؤدي إلى نتائج أو قد تحقق جزءً بسيطا من النتائج التي صيغت من أجلها.

ثالثاً : من ناحية طبيعة المشكلة :- تصنف القرارات وفقاً لمعيار طبيعة المشكلة. فهناك نوعان من المشكلات يجب أن تعالجها القرارات الإدارية وهي :

أ – مشكلات روتينية (طبيعية) يواجهها متخذ القرار يومياً وبصفة مستمرة ومتكررة لذلك فهي تحتاج إلى قرارات منتظمة وروتينية نظراً لتوفر المعلومات بشأنها وتدفقها بسهولة ويسر.

ب – مشكلات غير روتينية (غير طبيعية) فهي المشكلات التي لا تحدث بشكل متكرر لذلك فهي تحتاج لقرارات تتعامل مع الموقف غير المعروف كما أن المعلومات التي يحتاجها صانع القرار من الصعب الحصول عليها في هذا النوع من المشكلات.

المشكلات الرئيسية في صناعة القرار :

هناك العديد من العوامل الإيجابية تسهم في التوصل إلى القرار السليم وذلك من خلال تحليل جوانب عملية صنع القرارات. كما أن هناك عقبات تواجه صناع القرار تمثل مشاكل رئيسية ومباشرة، تتعدد أشكالها وتتباين سلبياتها في عدم التوصل إلى القرار السليم والتي من أبرزها ما يلي[12] :-

1 – مجموعة المشاكل المتعلقة بتكوين المشكلة : إن ما يتعلق بتكوين المشكلة، وعدم إيضاحها أو ربطها بغيرها من المشاكل، يؤكد عدم إدراك صانع القرار لجوانب المشكلة وحدودها بدقة، فنجد قراراته منصبة على حلول لبعض المشاكل الفرعية دون التعرض للمشكلة الحقيقة. حيث يعزى ذلك إلى عدم وجود بيانات ومعلومات إحصائية دقيقة وسليمة وواضحة تمكن من استخدام ووضع التقديرات اللازمة حول الأوضاع القائمة والتنبؤ بها مستقبلاً. فالمعلومات هي مادة صنع القرار الجوهرية لذلك من المهم أن تكون ممثلة للظاهرة المدروسة، وإلا فإن ذلك سيعرقل التحليل السليم لجوانب المشكلة ومن ثم الوصول إلى تفسير منطقي لأسبابها.

---

11 سلطان بن محمد بن علي ، مرجع سابق ، ص95 .

12 محمد حسن يس ، إبراهيم درويش (1987م) ، المشكلة الإدارية وصناعة القرار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ص ص : 231-233.

كما أن عدم منح صانع القرار الوقت الكافي لذلك فإنه لا يستطيع تصحيح المسار الخاطئ للقرار أو استبدال وسائله غير الملائمة.

2 – مجموعة المشكلات المتعلقة بصانع القرار : إن كل ما يتعلق بصانع القرار مرتبط بقدرته وإمكانياته على استيعاب المشكلة وتحليلها، أو تكون مرتبطة بالجوانب السلوكية في شخصيته والتي منها ما هو فسيولوجي أو سيكولوجي، كالاعتماد على اعتباراته وتقديراته الشخصية أو مرونته المفرطة، أو عدم حياديته، أو استجابته لتأثيرات معينة غير موضوعية أو قد لا تتفق مع صالح المنظمة، أو عدم القدرة على التكيف مع قيم المنظمة، أو بسبب ضعف في التنسيق بين مختلف العوامل، أو بسبب عجز أو تقصير وسائل الاتصال والتي قد ينجم عنها خضوع صانع القرار إلى سلطة عليا تفرض عليه قيود وإجراءات داخلية وخارجية تحد من نشاطه وتنعكس سلباً على قدراته، أو أفكاره وتطلعاته مهما بلغت كفاءته في اتخاذ القرار السليم مما يؤثر على المنظمة ونجاحها في توقع المستقبل والتنبؤ به والاستعداد له، خصوصاً وأن هناك مشاكل مرتبطة بالمستقبل ومتغيراته التي لا يمكن توقعها ولم تدخل في حسبان أو تصورات صانع القرار.

3 – مجموعة المشاكل المتعلقة بالأهداف : إن المشاكل المتعلقة بالأهداف هي مشاكل ترتبط بعدم قدرة صانع القرار على تحديد الأهداف التي يمكن أن تتحقق باتخاذ القرار. فقد تتعلق الأهداف بتحديد رقم إنتاج أو مبيعات في منظمة صناعية. وهنا يتطلب من صانع القرار إدراك الأهداف الرئيسية حتى لا تتعارض مع الأهداف الفرعية، مع التأكيد على تحقيق الهدف الأهم ثم الانتقال إلى الهدف المهم وهكذا.

4 – مجموعة المشاكل المتعلقة بالبيئة : نظراً لصعوبة تحديد مختلف العوامل البيئية من قبل صانع القرار فإن القرار قد يظهر عجزاً في بعض الجوانب. فالبيئة لها نقاط قوة وضعف كما أن لها فرص ومخاطر تسعى المنظمة للتعرف عليها والتكيف مع عواملها بغية استغلال هذه المزايا وتجنب تلك العيوب. والمقصود ببيئة المنظمة هنا هي التقاليد والعادات والقوانين والمعتقدات والتغيرات والعلاقات الإنسانية والظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتقنية وغيرها، لذلك على صانع القرار أن يتنبه للصعوبات والعراقيل والمشاكل التي تواجهه عند تحديد المعايير التي يقيس عليها البدائل سواءً كانت مادية أو معنوية فمن خلال هذه المعايير يتم تحويل النتائج غير المادية أو الأحكام الشخصية إلى نتائج ملموسة.

تحسين عملية اتخاذ القرار :

إن إسهامات العديد من الكتاب والمفكرين فيما يتعلق بتحسين الأساليب المتبعة في اتخاذ القرار قد خلصت إلى بعض النقاط الهامة التي تستوجب الإشارة إليها وهي:

1 – ترتيب وتصنيف الحقائق : إن عملية اتخاذ القرار السليم تعتمد ولا شك على الحقائق بعيداً عن الآراء الشخصية، كما تعتمد على معرفة البدائل وما هي سلبياتها وإيجابياتها.

2 – توظيف الأحاسيس الداخلية : إن من الوسائل الفعالة عند الإنسان تحكيم أحاسيسه في ما يتخذه من قرارات حيوية في حياته. فمثلاً نجده يفعل ذلك عندما يختار وظيفته أو صديق جديد فإنه يتجه إلى أحاسيسه الداخلية وحدسه وتخمينه في اتخاذ القرارات الهامة.

3 – سلامة التوقيت والحالة المزاجية : أكدت الدراسات بأن الفرد يكون متضايقاً عندما يكون مزاجه سيء كما أن معنوياته تهبط ويكون ذو تصرفات عدوانية. بينما يكون متساهلاً وسلوكه متزن ويميل للتسامح عندما يكون مزاجه جيد. لذلك من المفروض تأجيل أخذ القرار عندما يكون المزاج غير معتدل لوقت آخر.

4 – مناقشة الآخرين : التأكيد على ضرورة التشاور مع المختصين ومناقشة القرارات ذات الأهمية. فذلك يساعد في طرح جميع الأفكار المفيدة عند اتخاذ القرار. مع عدم التركيز الزائد على شكليات القرار من قبل صناع القرار.

5 – اختبار مرتكزات القرار : ويقصد به فحص الافتراضات التي بني عليها القرار.

6 – التحليل الموضوعي للمشكلة : هناك الكثير ممن يتخذون قرارات معتمدين فيها على إدراكهم لما هو حولهم. فهم ينظرون إلى العالم من خلال قيمهم وشخصية كل منهم وقدراته. فهي ذات تأثير سيء على كيفية تفسير الحقائق كما يريد. أو كما يرغب في رؤيتها.

المحور التطبيقي

واقع صناعة القرار في المصارف محل البحث

أسلوب جمع وتحليل البيانات :-

وبعد أن انتهى البحث من تحديد المشكلة وصياغة الهدف، وبعد الاستعانة بالكتب والمراجع والدراسات التطبيقية لتوضيح الجوانب النظرية منه وصياغة الإطار العلمي الذي يعالج موضوع البحث بشكل واضح وصريح. فقد وصل البحث إلى أول خطواته العملية نحو تحقيق نتائج البحث ومعتمداً على استمارة الاستبيان كأداة مناسبة لجمع المعلومات من ثم يتم تحليلها من خلال التأكيد النسبي على وجود علاقات بين المتغيرات الفردية والاجتماعية والتنظيمية وتأثيرها على صناع القرار. وبذلك يتم تسليط الضوء على الواقع الإداري لصناعة القرار في المصارف محل البحث من خلال استقراء شريحة مستهدفة من المدراء والمسؤولين بها في المستويات الإدارية الوسطى والدنيا بعد استلام ردودهم على أسئلة صحفية الاستبيان. حيث بلغ عدد أفراد العينة (67) مديراً ومسؤولاً من الإدارات الوسطى والمباشرة تمثل مجتمع البحث باعتبار أن الأوضاع الإدارية في المصارف الليبية متماثلة في الغالب نظراً لخضوعها لنفس القوانين واللوائح، وفي بيئة واحدة. إلا أن إمكانية إجراء المسح الشامل غير ممكن بالنسبة لظروف الدراسة نظراً لكبر حجم مجتمع الدراسة وانتشاره في رقعة جغرافية مترامية الأطراف.

واستناداً إلى جدول Knegcie& Morgan وباستخدام أسلوب المعاينة الطبقية النسبية فقد تم اختيار (60) مديراً ومسؤولاً يقومون بصنع القرارات التنظيمية، والفردية أو القرارات البسيطة لمواجهة المعوقات التنظيمية في هذه المصارف بشكل شبه يومي.

هذا وقد أوضحت البيانات المجمعة من ردود المستقصى منهم على أسئلة صحفية الاستبيان الموزعة الكيفية المتبعة في اتخاذ القرار المصرفي والممارسات الإدارية، كما أن تحليل البيانات

المتعلقة بخصائص الأفراد ومعرفة صفاتهم الديمغرافية التي يمتازون بها كالعمر والمؤهل، والتخصص، والخبرة والدورات التدريبية. قد أكدت في مجملها أن التوزيع العمري لأكثر من 70% من أفراد العينة هي لقدرات قد تجاوزت العقد الثالث من العمر وهم أغلبهم من الذكور. كما أن أكثر من 40% من إفراد العينة من حملة المؤهلات الجامعية أو ما يعادلها وأن 60% منهم هم في مستوى الإدارة الإشرافية من رؤساء مكاتب ومشرفين.

وقد أوضحت البيانات أن 80% من أفراد العينة لديهم خبرة وظيفية في العمل المصرفي وقد تحصلوا على دورات تدريبية.

ومن جانب آخر فقد أوضح تحليل البيانات المتحصل عليها من ردود المستقصى منهم والمتعلقة بالنواحي العامة لصناعة القرارات المصرفية والتي بلغت أكثر من 1000 فقرة جمعت من 60 صحيفة استبيان تم توزيعها شملت كل منها ثمانية عشر سؤالاً وضعت للتعرف على الأساليب التنظيمية المتبعة في تسيير العمل وكيفية اتخاذ القرارات في المصارف محل البحث.

ويوضح الجدول الآتي تحليلاً وافياً لتلك العبارات، والتي استخدمت فيه النسبة المئوية للاستدلال على مدى مواكبة التطبيق العملي لعملية اتخاذ القرار للأسس العلمية.

جدول (1)

يوضح النواحي العامة لدى عينة البحث

م	الفقرة	أوافق تماماً		أوافق		محايد		لا أوافق		لاأوافق على الإطلاق	
		التكرار	النسبة %	التكرار	النسبة %	التكرار	النسبة %	التكرار	النسبة %	التكرار	النسبة %
1	نتبنى الأفكار الجديدة للحلول	16	27 %	26	43 %	4	7%	0	-	14	23 %
2	نعتمد على أسلوب صفوف الانتظار لتحديد عدد الصرافين المطلوبين	8	13 %	22	37 %	8	13 %	10	17 %	12	20 %
3	تؤخذ القرارات الرئيسية من قبل الإدارة العامة	28	47 %	24	40 %	6	10 %	2	3%	0	-
4	يعتمد اتخاذ القرارات السريعة على المعلومات الواردة من الإدارة	16	27 %	34	57 %	8	13 %	2	3%	0	ن

5	خبرة المدير هي وراء القرار الصحيح	18	30 %	30	50 %	6	10 %	6	10 %	0	-
6	للمسؤول حرية ممارسة عمله	6	10 %	18	30 %	6	10 %	22	37 %	8	13 %
7	توفر التسهيلات المالية هي الحافز على انجاز الأعمال	18	30 %	20	33 %	4	7%	14	23 %	4	%7
8	وجود البنية التحتية لتكنولوجيا المعلومات	18	30 %	18	30 %	6	10 %	6	10 %	12	20 %
9	لا مركزية في اتخاذ القرار	12	20 %	12	20 %	6	10 %	24	40 %	6	10 %
10	لا تأخير من الإدارة العامة في المعلومات	16	27 %	16	27 %	12	20 %	8	13 %	8	13 %
11	تعيين المسؤول يتم وفقاً للمؤهل	16	27 %	12	20 %	8	13 %	16	27 %	8	13 %
12	هناك بطء في انجاز العمل من الموظفين	0	-	26	43 %	12	20 %	18	30 %	4	%7
13	إشراك المستويات الدنيا عند اتخاذ القرار	6	10 %	18	30 %	6	10 %	18	30 %	12	20 %
14	التعامل مع الزبون من خلال المستندات لا بالعلاقات الشخصية	24	40 %	20	33 %	4	7%	6	10 %	6	10 %
15	الحلول تتطلب وقتاً كافياً للدراسة	18	30 %	28	47 %	6	10 %	8	13 %	0	-
16	الاعتماد على أساليب البرمجة الخطية للمفاضلة بين البدائل	4	%7	22	37 %	14	23 %	12	20 %	8	13 %
17	عدم الاعتماد على أسلوب تحليل التعادل لأنه من اختصاص الإدارة العليا، فهي المكلفة بالأرباح والخسائر	22	37 %	18	30 %	12	20 %	6	10 %	2	%3
18	الاعتماد على الموازنات الرأسمالية للمفاضلة بين البدائل	12	20 %	12	20 %	14	23 %	12	20 %	10	17 %

هذا وقد لاحظ الباحث عند مقارنته المراحل العلمية بالمراحل العملية لصنع القرار الإداري في المصارف محل البحث أن الترتيب العملي لا يتوافق مع ما تنص عليه الأصول العلمية للإدارة، والتي يظهرها الجدول الآتي بشكل مقارن.

جدول (2)

يوضح مقارنة المراحل العلمية بالعملية

ترتيب المراحل وفق الأصول العلمية لصناعة القرار	ترتيب المراحل عند صناع القرار في المصارف محل البحث
فهم ومراقبة بيئة القرار	تحديد المشكلة
تحديد المشكلة	تشخيص المشكلة
تحديد أهداف المشكلة	تحديد أهداف المشكلة
تشخيص المشكلة	تأسيس المعايير
تطوير بدائل الحلول	فهم ومراقبة بيئة القرار
تأسيس المعايير	تطوير البدائل
تقييم بدائل الحلول	تقييم بدائل الحلول
اختيار أفضل البدائل	اختيار أفضل البدائل
تنفيذ أفضل البدائل	تنفيذ أفضل البدائل
متابعة وتقييم البدائل	متابعة وتقييم البدائل

هذا وقد لاحظ الباحث عندما قدموا أفراد العينة قائمة ترتيب العوامل التي تحكم عملية صنع القرار الإداري. بأن المعنيين باتخاذ القرارات في تلك المصارف يرون أن أهمية القرار تأتي في المقام الأول، وأن نوعية القرار تأتي ثانياً من حيث الترتيب، وأن طبيعة المشكلة هي في المقام الثالث، ثم جاء بعدها الوقت المتاح لاتخاذ القرار، ثم طبيعة الموقف، ونوعية القوى العاملة، وتوفير النواحي المادية ثم جاء نمط المنظمة التي يعمل بها المدير، تتبعها الضغوط الخارجية. وهذا الترتيب لا يتوافق مع ما هو متعارف عليه في علم الإدارة، وبالتالي سيكون له انعكاسات سلبية على القرارات المتخذة.

وبالنظر إلى الجدول السابق يتضح أن ترتيب مراحل صنع القرار لدى صناع القرارات الإدارية في المصارف محل البحث، لا تتوافق مع الترتيب السليم المنصوص عليه في الأسس العلمية لصناعة القرار، مما يؤكد نقص خبرة هؤلاء المسؤولين عند معالجتهم للمشكلات المصرفية.

النتائج والتوصيات

إن ما قام به الباحث من محاولة لدراسة صنع القرار الإداري في بعض من المصارف الليبية العاملة بمدينة المرج، هي محاولة للوصول إلى النتائج الفعلية التي يعكسها الواقع العملي لأداء المدراء والمسؤولين في ما يتعلق باتخاذ القرارات الإدارية، والتي تعتبر مادة التوصيات التي يؤمل من خلالها المساهمة في معالجة المشكلات التي تعاني منها عملية صنع القرار وتقويم انحرافاتها.

أولاً : النتائج المتعلقة بخصائص المسؤولين :

لقد أظهرت نتائج هذا البحث فيما يتعلق بخصائص المديرين، أن مدراء الإدارات الوسطى والمباشرة في المصارف محل البحث هم في الغالب فوق العقد الثالث من العمر، ومن حملة المؤهلات الجامعية والمعاهد العليا، وأن خبراتهم فوق الخمس سنوات في مجال العمل المصرفي. كما أن منهم من تحصل على دورات تدريبية في الداخل والخارج.

إن هذه المؤشرات تعتبر إيجابية تتيح فرص العمل القيادي وتوثق العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين المسؤولين ومرؤوسيهم نظراً لتقارب المراحل العمرية والمستويات التعليمية. غير أن النقص في التدريب. وأن أكثر من 60% من هؤلاء المسؤولين هم في المستويات الدنيا، هي جوانب لا يجب إغفالها من قبل الإدارة العليا، نظراً لدور التدريب في تأهيل مسؤولي الصف الثاني والثالث لرفع كفاءة الأداء المصرفي خصوصاً في اتخاذ القرارات، وتحليل الاعباء الوظيفية والتقويم إدارةً وتنظيماً.

ثانياً : النتائج المتعلقة بالنواحي العامة لصناعة القرار :

إن ما تناوله هذا البحث من دراسة وافية للنواحي العامة لصناعة القرار قد أسهم وبشكل كبير في إفراز النتائج من خلال جمع المعلومات وتحليلها وتفسيرها. فقد أوضحت البنود التي استعرضها الجدول رقم (1) بعض النتائج الهامة كتبني الأفكار الجديدة لحل المشكلات والتي بلغت ما نسبته 70% واستخدام الأساليب العلمية في تحديد موظفي الصرافة (50%)، والاستثمارات الرأسمالية (88%)، والاعتماد على المنظور التكنولوجي في إرسال واستلام المعلومات المصرفية (84%)، وأن من أهم عناصر القرار هي خبرة المدير (80%)، كما أن الصلاحيات الممنوحة تناسب تقريباً متطلبات العمل (40%)، وأن للتسهيلات المالية دور تحفيزي في إنجاز الأعمال (63%)، وأن صناعة القرار تتم من خلال التنظيم اللامركزي أحياناً (40%)، وأن تعيين المسؤولين تخضع للمؤهلات العلمية (47%)، وأن العمل يتم بشكل رسمي (73%)، وأن المشاركة في صنع القرار ليست بالصورة المطلوبة (40%)، وأن الأداء يتسم بالتباطئ (43%)، وأن حل المشاكل يتطلب الكثير من الوقت للدراسة والمراقبة (77%)، كما أن المفاضلة بين البدائل تعتمد أساليب البرمجة الخطية أحياناً (44%)، وأن الإدارة العليا هي المكلفة بالأرباح والخسائر وهي التي تتبع أسلوب التعاون (67%)، ومن خلال تحليل ردود المستقصي منهم المتعلقة بعملية صناعة القرار في المصارف الليبية فإن نتائج هذا البحث يمكن حصرها في التالي :-

1 – إن هناك من المسؤولين من لا يتبنى الأفكار الجديدة لحل المشكلات.

2 – إن الأساليب العلمية لا تحظى بالاهتمام الكلي عند تحديد موظفي الصيرفة.

3 – إن النظام المركزي المعمول به لا يسمح للمدراء بحرية التصرف أو اتخاذ القرارات المتعلقة بالاستثمارات مما يضيع على الفروع كثيراً من الفرص المتاحة.

4 – كثير من المدراء لا يعتمدون الأساليب العلمية في اتخاذ القرار ويعولون كثيراً على خبراتهم في هذا المجال.

5 – الحد من حرية العمل والتصرف من قبل إدارات المصارف مما يعيق الموظفين في المستويات التنفيذية عن الأداء الإبداعي.

6 – رغم توفر البنية التحتية من تكنولوجيا المعلومات وتوفير أفضل أنواع الحواسيب. إلا أن مشكلة الاتصالات تفتقر للربط الفعال مما يضعف من كفاءة هذه النظم ويعيق عملية تبادل المعلومات التي تمثل جوهر عملية صنع القرار.

7 – إن أكثر من نصف المستقصى منهم يرون أن المدراء لا يعينون وفقاً لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية والعملية. مما قد يهدد تطور ونمو المصارف الليبية في المستقبل.

8 – إن هناك من المدراء من يؤكد عدم مشورته قبل اتخاذ القرار خصوصاً أولئك الذين يشغلون وظائف المستويات الدنيا.

9 – إن أغلب أفراد العينة يقرون بأن عملية حل المشكلات تحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد للدراسة والمراقبة. الأمر الذي قد ضيع على الإدارة الكثير من الفرص الاستثمارية.

10 – إن أغلب المسؤولين لا يعتمدون الأساليب العلمية عند اختبار البدائل.

11 – إن إدارات المصارف لا تقوم بدراسة وتحليل البدائل بالطرق العلمية.

12 – أن المفاضلة بين البدائل لا تعتمد المزايا والعيوب كمعيار موضوعي.

13 – إن صناعة القرار ليست بالمستوى المطلوب في المصارف الليبية.

14 – أن مستوى الخدمات المقدمة للزبائن لا ترقى إلى مستويات الرضا التام عندهم.

15 – الإدارات تتجنب معالجة المشاكل المصرفية ووضع الخطط السليمة للرفع من مستويات الخدمة نظراً لمركزية القرارات الاستراتيجية.

16 – تشير النتائج السابقة في مجملها أن المسؤولين بالمصارف محل البحث منهم غير القادرين على اتخاذ القرارات السليمة وفقاً للأساليب العلمية الصحيحة.

ثالثاً : التوصيات :

استناداً إلى ما توصل إليه البحث من نتائج عكست في مجملها الظروف الحالية لمجتمع الدراسة وواقع الممارسات الإدارية في مختلف المستويات الإدارية بالمصارف الليبية. وحيث أن هذه النتائج سالفة الذكر هي مادة حية من وجهة نظر الباحث يمكن صياغتها في شكل توصيات قد تسهم في علاج وتقويم ما أظهره هذا البحث من معوقات وتعمل على تحسين مستويات صناعة القرار للمصارف الليبية.

هذا وقد اعتمد الباحث مخاطبة إدارات هذه المصارف لزيادة فاعليتها في تحسين السمات الشخصية للأفراد وتطوير مهاراتهم وممارساتهم الوظيفية كذلك العمل على تحسين الإطار العام للمصارف وتطوير بنياتها التنظيمية. وقد اعتمد البحث وفقاً لموضوع البحث التوصيات التالية :

1. ضرورة تدريب وتأهيل المسؤولين عن عمليات صنع القرار وفقاً للأساليب العلمية التي تقرها العلوم الإدارية وفي مراكز نوعية متخصصة.
2. تأهيل مختلف المستويات الإدارية وفقاً لمقتضيات التطور السريع في المجال المعلوماتي والأساليب التقنية الحديثة.
3. خلق التوازن بين العمل الرسمي وغير الرسمي وأتباع النمط الديمقراطي في العمل الإداري وإقرار مبدأ الشورى، والتأكيد على المشاركة في صنع القرارات.
4. إتباع الأساليب الحديثة عند المفاضلة بين البدائل المطروحة.
5. ضرورة تطوير البنية التحتية لتكنولوجيا المعلومات وربط جميع شبكاتها بكافة الفروع المصرفية العاملة بالمدن الليبية للحصول على رضى الزبائن.
6. الاعتماد على الأساليب العلمية عند تعيين أو تحديد عدد الصيارفة المطلوبين بالمصارف.
7. ضرورة دراسة آراء ورغبات الزبائن وصياغتها ضمن خطط هذه المصارف للحصول على رضاهم.
8. رفع مستوى الكفاءات الإدارية، والتقيد بالوصف والتوصيف الوظيفي وزيادة فرص ترشيحهم لتقلد المناصب الإدارية التي تتوافق مع قدراتهم ومؤهلاتهم.
9. زيادة الوعي التنظيمي وأهمية القرارات السليمة من خلال محاضرات وندوات مكثفة لموظفي المصارف بما يكفل تعريفهم بأهمية عملهم، ويحدد علاقة وظائفهم بالوظائف الأخرى.
10. رسم خطوط اتصال فعالة، تمكن من نقل البيانات والمعلومات بين الأنشطة المختلفة بسرعة واقتدار.
11. تفويض السلطة بقدر المسؤولية المناطة بالرؤوس، وفي حدود أداء عمله مع أخضاعه للمساءلة الدورية.
12. الحد من تفرد بعض المسؤولين في تسيير إداراتهم، واحترام التسلسل الوظيفي عند تنفيذ العمل.

المراجع

أولاً : المراجع العربية :

1. أبو بكر مصطفى بعيرة، عبدالجليل آدم المنصوري، (1986م)، الموسوعة الإدارية، مصطلحات إدارية مختارة، مطابع الثورة العربية، طرابلس.
2. أحمد ماهر، (1993م)، السلوك التنظيمي مدخل بناء المهارات، مركز التنمية للإدارة، الإسكندرية.
3. برنار غورينة، (1967م)، الإدارة، ترجمة مارون خوري، منشورات عويدات، بيروت.
4. بيتر .ف. دراكر، (1955م)، الإدارة للمستقبل، ترجمة صليب بطرس، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.
5. إبراهيم درويش، (1973م)، التحليل الإداري، دار النهضة المصرية، القاهرة.
6. حسن علي، (1997م)، نظرية القرارات الإدارية - مدخل كمي في الإدارة، المكتبة الدولية للنشر، القاهرة.
7. سلطان بن محمد بن علي السلطان، (1999م)، أساسيات الإدارة - المبادئ والتطبيقات، دار المريخ للنشر والتوزيع، عمان.
8. سيد محمود الهواري، (1973م)، الإدارة – الأصول والأسس العلمية، مكتبة عين شمس، القاهرة.
9. عبدالغفار حنفي، (1987م)، أساسيات إدارة منظمات الأعمال، الدار الجامعة للنشر، الإسكندرية.
10. علي السلمي، (1979م)، السلوك الإنساني في الإدارة، مكتب غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
11. علي محمد عبدالوهاب، (1975م)، إدارة الأفراد – منهج تحليلي، الجزء الأول، جامعة عين شمس، القاهرة.
12. 12 – فايز الزغني، وآخرون، (1997م)، أساسيات الإدارة الحديثة، دار المستقل للنشر والتوزيع، عمان.
13. كاسر نصر المنصور، (2000م)، نظرية القرارات الإدارية، دار مكتبة الحامد للنشر والتوزيع، الرياض.
14. محمد عبدالفتاح الصيرفي، (2003م)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، والدار العالمية الدولية، عمان.

ثانياً : المصادر الأجنبية :

1 - American Link. Technological charge & productivity growth. London :harwood academic publishing 1987.

2 – Brewer, Fredrick. "Secondary school principals Ieader ship behavior and atmosphere of schools as perceived by teachers, principals and superintendents, Dissertation Abstracts Intentional, Vol.41 ,No.2,1980.

3 – Gibbons, T. study of the relationship between selected organizational environment characteristics and the leadership behavior of elementary principals" Dissertation Abstracts Intentional, Vol.43,No.1,1982,A.

4 – Leanard Gene Francis" organizational climate of elementary schools and leadership styles of their principals A Descriptive analysis "Dissertation Abstracts Intentional, Vol. 43,No.2,1982.

5–Mukni, Suresn Kumar. "Relationship between Readership between leadership styles, climate and performance in organizations, "Dissertation Abstracts Intentional. Vol. 43, No. , 1982.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلّيّة التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس مارس 2016

الجمل بعد النكرات في القرآن الكريم وإعرابها بين الصفة والحال

د . إبتسام عبد الكريم رمضان عامر .
(أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية شعبة اللغويات _كلية الآداب _ جامعة عمر المختار_ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلّيّة التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس مارس 2016

Summary

Sentences after indefinite noun in the Holy Quran and their syntax between the adjective and the adverb .

Spread among grammarians grammatical rule which states that: (Sentences after indefinite noun are adjectives, and after definite noun are adverbs) and to give precision to the rule must take another form: We say: Sentences after pure indefinite noun are adjectives and after pure definite noun are adverbs, and after non purely including a possible adjective and adverb, and we mean : «pure», Do not enter upon the suspicion of definite noun, as we said: (I saw a man walking) word (man): is non indefinite noun, and the indefinite article is purely as we said: (I saw a handsome man walking); the (man) is purely indefinite noun; because of our saying handsome which is adjective in order to enter the adjective (and especially), as if this presumption brought the word man to the definite, therefore, to say that: Sentences after indefinite noun adjectives not to be taken as a whole .

And Ibn Hisham first told to restrict by saying: reporting sentences after pure indefinite noun are adjectives, and after non pure are adverbs (*). Based on this, the sentence if comes after definite or indefinite you could syntax as adverb or adjective, and God knows best. This research reveal- too- that verbal rule that states that the sentences after indefinite noun are only adjectives need to be reviewed and to be proved; because of the possibility that it could be adverbs, which has been expressed in many texts from Holy Quran based on the meaning and context of the Qur'an to be; therefore the research sees the need to amend the text of this verbal rule to: (Sentences after indefinite noun are adjectives when there is no impediment to transfer the word indefinite to definite or change the content and meaning to be) this has been explained from the folds of the search .

The researcher: Ebtisam Aboudelkareem Ramadan

(*) Ibn Hisham:Mukhni Allabib:part2-page91_93

ملخَّص البحث

شاعت بين النحاة القاعدة النحوية التي تنص على أنَّ: (الجمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال) ، ولإعطاء الدقة للقاعدة يجب أن تأخذ شكلاً آخر : فنقول : الجمل بعد النكرات المحضة صفات وبعد المعارف المحضة أحوال ، وبعد غير المحض منها محتملٌ للوصفية والحالية ، والمقصود: بالـ«محضة» ، أي : لا يدخل عليها شبهة التعريف ، نحو : (رأيت رجلاً يمشي) ، فكلمة (رجلاً) : نكرة محضة ؛ إذْ لا يوجد أية قرينة تصرفها للتعريف أو أية شبهة تقود إلى ذلك ، أمَّا النكرة غير المحضة فنحو : (رأيت رجلاً وسيماً يمشي) ؛ إذْ أنَّ (رجلاً) نكرة غير محضة ؛ وذلك لدخول الصفة (وسيماً) ، وكأنَّ هذه القرينة قربت الرجل إلى المعرفة ، وبشبهة التعريف هذه أُخْرِجت كلمة (الرجل) من التنكير إلى التعريف ؛ لذلك فإن القول بأنَّ: الجمل بعد النكرات صفات ليس على إطلاقه .

وابن هشام أول من صرَّح بالتقييد قائلاً : إنَّ الجملة الخبرية بعد النكرات المحضة صفات ، وبعد المعارف المحضة أحوال ، وبعد غير المحض منهما محتمِل لهما * ، وعلى هذا فإنَّ الجملة إذا وقعت بعد معرفةٍ غير محضةٍ أو بعد نكرةٍ غير محضةٍ فلك أن تعربها حالًا ولك أن تعربها صفةً ؛ لأنك إن أعربتها حالًا فباعتبارٍ ، وإن أعربتها صفةً فباعتبارٍ أخر، والله أعلم .

وهذا البحث يكشف_أيضاً_أن القاعدة اللفظية التي تنص على أنَّ الجمل بعد النكرات المحضة صفات فحسب قاعدة تحتاج إلى إعادة نظر وتثبُت هي الأخرى ؛ وذلك لاحتمال أن يكون إعرابها حالاً لا غير في نصوص كثيرة من آي الذكر الحكيم استناداً إلى المعنى والسياق القرآني المراد ؛ لذا يرى البحث ضرورة تعديل نص هذه القاعدة اللفظية إلى : (الجمل بعد النكرات صفات عند عدم وجود مانع يحوِّل لفظ النكرة إلى المعرفة أو يغيِّر المضمون والمعنى المراد) وقد ثبت ذلك ووضُح في ثنايا البحث .

(*) ابن هشام : مغني اللبيب: (2/91_93) .

المقدمــة

تنصُّ القاعــدة النحوية على أنَّ: (الجمل بعد النكرات المحضة صفات ، وبعد المعارف المحضة أحوال ، وبعد غير المحض منها محتمل لهما) غير أنَّ هذه القاعدة تُشاب أحياناً بنوع من التساهل فيقال: (الجمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال) ، وهذه عبارة ليست دقيقة ، و الصحيح ضرورة التقييد ، كما تشاب أيضاً بالارباك الشديد في تحديد الموقع الإعرابي للجمل بعد النكرات المحضة ؛ ذلك أن القاعدة تنصُّ على كونها صفات ، وقد تبيَّن من خلال الوقوف على نصوص من آي الذكر الحكيم خلاف ذلك ؛ إذ المراد من تلك الآيات معنى الحالية لا الوصفية ، وهذا ما سيوضحه موضوع البحث من أجل تحقيق غاية منشودة تتمثَّل في ضرورة إعادة النظر في نص تلك القاعدة النحوية ، وسند البحث في ذلك إقامة الدليل وتقديم الحجَّة من خلال منهج وصفي وتحليلي لنماذج من آي الذكر الحكيم ، وقبل الخوض في موضوع البحث ينبغي أولاً:

التمهيــد بإعطاء نبذة موجزة عن الجملة وشروط النحاة في الجملة الواقعة حالا ، وبعد ذلك يتكفَّل البحث بعرض موضوع الدراسة في نقاط على النحو الآتي :

- **نظرة حول قول النحاة : (الجمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال) .**
- **ارتباط جملة الحال بالحكم .**
- **المراد بجملة الحال حصول حدوثها .**

ويوجز البحث في نهايته أهم ماتوصَّل إليه من نتائج يضمنها في خاتمتة ، ثم يلحقها بقائمة مصادره ومراجعه .

التمهيـــــــد

قال الجرجاني : ((الْجُمْلَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُرَكَّبٍ مِنْ كَلِمَتَيْنِ أُسْنِدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى سَوَاءً أَفَادَتْ ، نَحْوَ : (زَيْدٌ قَائِمٌ) ، أَوْ لَمْ تُفِدْ ، نَحْوَ : (إِنْ تُكْرِمْنِي) ، فَإِنَّهَا جُمْلَةٌ لَا تُفِيدُ إِلا بَعْدَ مَجِيء جَوَابِهِ))[1]، وتقع الجمل موقعاً إعرابياً ، كأن تقع خبراً ، أو مفعولاً ، أو حالاً ، أو مضافاً إليها ، أو جواباً لشرط جازم بعد الفاء أو إذا ، أو تابعة لمفرد أو لجملة لها محل من الإعراب[2] ، فإذا وقعت الجملة حالاً ، فهي إما اسمية أو فعلية ، نحو : (لازمتُ البيتَ والمطرُ هاطلٌ)، ويشترط النحاة في الجملة الواقعة حالاً ما يأتي[3] :

1- أن تكون خبرية ، غير تعجبية ، فلا تصح الإنشائية بنوعيها الطلبي وغير الطلبي ، جاء في شــرح

(1) الجرجاني : كتاب التعريفات : (141) .
(2) ينظر: ابن هشام : مغني اللبيب : (2/63_ 90) .
(3) ابن مالك : شرح التسهيل : (2/359_ 375) ، ابن هشام : أوضح المسالك : (2/67_71) ، شرح الأشموني : الأشموني : (2/29_ 43) ، الصبَّان : حاشية الصبَّان : (2 /277_279) ، الخضري : حاشية الخضري : (2/ 501 _504) .

الأشموني على ألفية ابن مالك : ((وَغَلَطَ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ : (اطْلُبْ وَ لَا تَضْجَر مِنْ مَطْلَبِ)[4]: إِنَّ (لَا) نَاهِيَةٌ وَ الْوَاوُ لِلْحَالِ ، وَ الصَّوَابُ أَنَّهَا عَاطِفَةٌ))[5] ، مثل قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئـاً**﴾ (النساء : 36) .

2- أن تكون مجردة من علامة تدل على الاستقبال ، مثل :(السين ، أو سوف ، أو لن ، أو أدوات الشرط) .

3- أن تكون مشتملة على رابط يربطها بصاحبها ليكون المعنى متصلاً بين الجملتين والرابط قد يكون ما يأتي:

- **الواو** ، وتسمى : (واو الحال) ، نحو : (احترسْ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْحَرَارةُ شَدِيدَةٌ) ، جاء في شرح التسهيل: ((قَدْ تَصْحَبُ الْوَاوُ المضَارِعَ الْمُثْبَتَ عَارِياً مِنْ قَد ، أَوِ الْمَنْفِي بِـــ(لا)...))[6] نحو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾ (البقرة: 119) .
- **الضمير**، وذلك إذا كانت الجملة اسمية مؤكدة لزم فيها الضمير ، وخلت من الواو[7] ، نحو قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾(البقرة : 2) ، أو قولك : (تركتُ البحرَ أمواجُه عنيفةٌ) ، فإذا كانت الجملة فعلية فعلها مضارع منفي بـــ(لا) فهو كالمثبت في لزوم الضمير والتجـرد من الواو[8] ، فإن ورد بـــ(الواو) قدر المبتدأ على الأصح ، نحو قراءة أبي ذكوان[9] (**فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ**) (يونس: 89) بتخفيف النون[10] ، وقول الشاعر[11]:

أَكْسَبَتْـــهُ الْـوَرِقُ الْبِيضُ أَبـاً وَلَقَـدْ كَـانَ وَ لا يُدْعَى لِأَبِ .

- **الواو والضمير معاً** ، نحو: (لا آكلُ الطعامَ وَأَنَا شَبْعَان) ، وتجتمع الواو والضمير في الجملة الاسمية ، نحو : (وهم ألوفٌ)[12] ، والمصدرة بليس، نحو : (ولستم بآخذيه) ، وتجوز الواو حدها ، أو الضمير وحده ، أو هما معاً إذا كانت الجملة المبدوءة بالمضارع منفية بغير (لا) ، نحو: (لم ولما وما) ، والقياس يقتضي إلحاق) (إن) النافيـــة بـ(ما) ، وأما (لن) فلا مدخـل لها هنا[13] ، ومنع الخضري (الواو) من المضارع المنفي بما ، وجعله كالمثبت والمنفي بـ(لا)[14]،

---

(4) شطر بيت من شعر المحدثين لبعض المولدين ، ولا يُحتجُّ به إلا تمثيلاً ، من البحر السريع ـ تمامه : (وآفة الطالب أنْ يضجرا) ، ينهى فيه صحابه عن التضجر من تكرار طلب الحاجة ، والتمثيل بالبيت على أنَّ بعض النحاة ذكروا أنَّ الواو فيه للحال ولا ناهية ، والصواب أنها عاطفة ، والبيت من شواهـــــد: ابن هشام : مغني اللبيب : (43/2) ، الأزهري : شرح التصريح: (398/1) .
(5) الأشموني : شرح الأشموني : (29/2 _30) .
(6) ابن مالك : شرح التسهيل : (367/2) .
(7) المرادي : توضيح المقاصد والمسالك : (720) .
(8) نفسه : (721) ، حاشية الصبَّان : (278/2) .
(9) ابن ذكوان : أبو عمر عبد الرحمن بن أحمد ، عالمٌ بالقراءات ، كان شيخ الإقراء في الشام ، قيل : لم يكن بالمشرق والمغرب في زمانه أعلم منه بالقراءات توفي : (202 هـ) . ينظر ترجمته في : الزركلي : الأعلام (293/3) .
(10) ابن الجزري : النشر في القـــراءات العشر : (215/2) ، البنَّاء الدمياطي : إتحـاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر : (317) .
(11) البيت من البحر الرمل لمسكين الدارمي يقول فيه : لقد كان فقيراً مجهول النسب لا يُعرفُ له أب ينسبه الناس إليه ، فلمَّا صار غنياً ظهر له نسبٌ ، وأبٌ يدعى إليه . من شواهد : الأزهري : شرح التصريح : (392/1) ، شرح الأشموني : (35/2) .
(12) ابن مالك : شرح التسهيل : (366/2) ، الصبَّان : حاشية الصبَّان : (278/2) .
(13) الأشموني : شرح الأشموني: (36/2) ، الصبَّان : حاشية الصبَّان : (282/2) .
(14) الخضري : حاشية الخضري : (501/2) .

نحو قول الشاعر[15] :

عَهِدتُكَ مَا تَصْبُو وَفِيكَ شَبِيبَةٌ فَمَا لَكَ بَعْدَ الشَّيْبِ صَبّاً مُتَيَّماً .

أمَّا الجواز ففي المنفي بـ(لم أو لما) ، وذكر النحـاة أن السبب في ذلك : أن مضيه يقربه من الماضي الجائز الاقتران بها[16] .

نظرة حول قول النحاة (الجمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال) .

من الشائع في كتب النحو أنَّ الجمل بعد النكرات صفات ، والبحث يتناول هذه القضية النحوية في القرآن الكريم بالدراسة ليوضح من خلاله أنَّ الجملة بعد النكرة قد تُفيد معنى الحال فيتعيَّن إعرابها حالاً استناداً إلى المعنى لا صفة استناداً إلى كون صاحبها نكرة .

يذهب النحاة إلى أنَّ الجمل بعد المعارف أحوال،وبعد النكرات صفات ، فيقول المبرد: ((وَمِثْلُ هَذَا مِنَ الْجُمَلِ قَوْلُكَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ ، وَلَوْ وَضَعْتَ مَوْضِعَ (رَجُلٍ) مَعْرِفَةً لَكَانتِ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، فَعَلَى هَذَا تَجْرِي الْجُمَلِ))[17] .

ومثَّلَ ابنُ السَّراج لِجُملة النَّعت بـ(مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَرَبَ زَيْداً ، أَوْ بِرَجُلٍ يَضْرِبُ زَيْداً) ، فوقعت الجملة (يضربُ زيداً) نعتاً مجيئها بعد نكرة[18] .

وكذلك قال ابن مالك في نحو: (أَبْصَرْتُ رَجُلاً مَالُهُ كَثِيْرٌ) في موضع نصب نعـت لرجلٍ ، فلو كان قبل الجملة معرفة لكانت الجملة حالاً كقولك:(أَبْصَرْتُ زَيْداً مَالُهُ كَثِيرٌ)[19] ، ونوَّه ابن هشام إلى نوع ثالث من الجمل وذلك بعد ذكره للجملة الواقعة صفة بعد نكرة ، والواقعة حالاً بعد معرفة فقال: ((ومِثَالُ النَّوْعِ الثَّالِثِ وَهُوَ الْمُحْتَمِلُ لَهُمَا بَعْدَ النَّكِرةِ ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾(الأنبياء:50) فَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ الْجُمْلَةَ صِفَةً وَهوَ الظَّاهِر ، ولَكَ أَنْ تُقَدِّرَهَا حَالاً مِنْهَا ؛ لأَنَّهَا قَدْ تَخَصَّصَتْ بِالْوَصْفِ؛ وذَلِكَ بِقُرْبِهَا مِن الْمَعْرِفَةِ))[20] .

وشبه الجملة _الجار والمجرور ، والظرف_ حكمهما بعد المعارف والنكرات حكم الجمل بعدهما صفتان في نحو: (رأيْتُ طيراً فوقَ غُصنٍ ، أو عَلى غُصْنٍ) ؛ لأنَّهما بعد نكرة محضـــة ، وحالان في نحو: (رَأَيْتُ الْهِـــلالَ بَيْنَ السَّحابِ ، أو فِي الأفقِ) ؛ لأنَّهما بعـد معرفة محضـة ، ويحتمـلان لهما في: (يُعْجِبُني الزَّهْـــرُ فِي أكْمَامِه ، والثَّمرُ عَلَى أَغْصَانِه) ؛ لأنَّ المُعرَّف الجنسي كالنكرة ، وفي نحو: (هَذا ثَمرٌ يانعٌ عَلَى أَغْصَانِهِ) ؛ لأنَّ النكرة الموصوفة كالمعرفة[21] . فالجملة إذاً تُعرب بعد المعرفة حالاً وبعد النكرة صفة[22] .

---

(15) البيت من البحر الطويل مجهول النسب ، يقول فيه صاحبه : لقد عرفتك بعيداً عن ملاحقة النساء ، وأنت في أيَّام شبابك ، فمالي أراك بعد هـذا الشيب مغرماً ؟! والبيت من شواهـــد : الأزهري : شرح التصريح : (392/1) ، الأشموني : شرح الأشموني : (2/ 35) .
(16) الصبَّان : حاشية الصبَّان : (280/2) الخضري : حاشية الخضري : (501/1) .
(17) المبرد : المقتضب : (125/4) .
(2) ابن السرَّاج : الأصول في النحو : (25/2) .
(3) ابن مالك : شرح عمدة الحافظ : (541/2) .
(20) ابن هشام : مغني اللبيب : (92/2) .
(21) نفسه : (112/2) .
(22) ابن يعيش : شرح المفصَّل : (24/2، 241) ، ابن هشام : مغني اللبيب : (91/2) ، السيوطي : المطالـــــــع السعيدة : (214/2، 215) .

وعلَّل المُبرِّد مجيء الجملة صفة للنَّكرة بقوله:((إِنَّمَا تَكُونُ الْجُمَلُ صِفَاتٍ لِلنَّكِرَةِ،وَحَالَاتٍ لِلْمَعْرِفَةِ ؛ لِأَنَّ يَفْعَل إِنَّمَا هُو مُضَارِعُ فَاعِل فَهُو نَكِرَةٌ مِثْله . أَلا تَرى أَنَّكَ تَقُولُ: (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ يَضْرِبُ زَيْداً) كَمَا تَقُولُ: (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَارِبٌ زَيْداً)...))[23] ، وعلَّل الرضي صحَّة مجيء الجملة صفة للنكرة ؛ بأنَّ الجملة تُعدُّ نكرة أو في حكمها[24] .

وذهب النحاة إلى أنَّ الأصل في صاحب الحال أنْ يكون معرفة[25] ، أي : لايصحُّ أنْ يكون نكرة إلا بمسوِّغ[26]؛ لذلك قالوا: ((قلَّمَا تَقُولُ: جَاءَنِي رَجُلٌ رَاكِضاً))[27] .

تبيَّن ممَّا تقدَّم ذكره أنَّه قد شاع عند النحاة قولهم: الجُمل بعد المعارف أحوال،وبعد النكرات صفات، وقد أخذ المفسرون بهذه القاعدة اللفظية في إعرابهم وتفسيرهم للقرآن الكريم .

وقول النُّحاة : الجمل بعد المعارف أحوال قاعدة لفظية موافقة للمعنى وللمراد شأنها في ذلك شأن كثير من القواعد اللفظية كرفع الفاعل ونصب المفعول إلا أنَّ كلام النحاة هذا يوهم أنَّ الجُمل تقع حالاً بعد المعرفة و لا تقع صفة ، والحقيقة أنها صفة كذلك ، ولكن باستعمال (الذي) وفروعها مما هو مبدوء بـــ(أل)، وفي ذلك يقول ابن يعيش: ((وَإِنَّمَا لَمْ تُوصَفْ الْمَعْرِفَةُ بِالْجُمْلَةِ ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ نَكِرَةٌ فَلا تَقَعُ صِفَةً لِلْمَعْرِفَةِ ، فَإِنْ أَرِدْتَ وَصْفَ الْمَعْرِفَةِ بِجُمْلَةٍ أَتَيْتَ بـ(الَّذِي) وَجَعَلْتَ الْجُمْلَةَ فِي صِلَتِهِ ، فَقُلْتَ : (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الَّذِي أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ) ، فَتَوَصَّلْتَ بِـــ(الَّذِي) إِلَى وَصْفِ الْمَعْرِفَةِ بِالْجُمْلَةِ ،كَمَا تَوَصَّلْتَ بِـــ(أَي) إِلَى نِدَاءِ مَافِيهِ (الْأَلِفِ وَاللَّامِ) ،نَحْو: يَا أَيُّهَا الرَّجُل))[28] ، وهذا مايُجمع عليه النحاة .

فكلُّ جملة تقع بعد معرفة تُعرب حالاً ؛ وذلك أنَّ وقوع الجملة بعد المعرفة يُعدُّ دليلاً على أنَّ المراد معنى الحال لا معنى الصفة .

وقد تبيَّن أيضاً أنَّ قولهم :إنَّ الجمل بعد النكرات صفات كان مستنداً إلى أنَّ الجملة لا تُعرب حالاً إذا وقعت بعد نكرة ؛ لأنَّ الغالب أو الأصل في صاحب الحال أنْ يكون معرفة ، وما استندوا إليه _هنا_ لا يعدُّ قاعدة لفظية موافقة للمعنى بخلاف قولهم: إنَّ الجمل بعد المعارف أحوال ، فليس كون صاحب الحال نكرة يُعدُّ دليلاً على أنَّ المراد بالجملة معنى الصفة ، فقد يكون المراد بها معنى الحال ، وكون صاحب الحال معرفة أو نكرة يحدِّده الواقع المراد التعبير عنه ، فإذا صافحك رجلٌ لاتعرفه ، وكان يبتسم في أثناء مصافحته لك وجب أنْ تُعبِّر عن هذا المعنى بقولك: (صافحني رجلٌ مبتسماً) ، وإذا اتَّبعت القاعدة اللفظية التي أجمع عليها النحاة ، فقلت: (صافحني الرجلٌ مبتسماً ، أوصافحني رجلٌ مبتسمٌ) لكان معنى الجملة في المثالين مخالفاً للواقع ، و لا يعبِّر عن الحقيقة .

ولم يشرْ النُّحاة والمفسِّرون إلى الفرق في المعنى بين جملة الحال ، وجملة الصفة في المواضع التي ذكروا أنَّها تحمتل هذين الوجهين ، والحقيقة أنَّ الفرق بينهما كبيرٌ وأساسيٌّ مما يتحتَّم علينا إيضاح هذا الفرق لنصل إلى إعراب الجملة حالاً ، أو صفة استناداً إلى المعنى لا إلى اللفظ .

---

(23) المبرد : المقتضب : (123/4) .
(24) الرضي : شرح الرضي على الكافية : (298/2) .
(25) ابن يعيش : شرح المفصّل : (17/2) ، ابن مالك : شرح عمدة الحافظ : (420/2) .
(26) ابن مالك : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : (109) ، وشرح عمدة الحافظ : (420/2) ، الرضي : شرح الرضي على الكافية : (22/2 ، 298) ، ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : (56/2 _58) ، شرح شذور الذهب : (253) ، السيوطي : المطالع السعيدة : (8/2) .
(27) الرضي : شرح الرضي على الكافية : (23/2) .
(28) ابن يعيش : شرح المفصّل : (243/2) .

ارتباط جملة الحال بالحكم

الفـرق الأساسي بين الصفة والحال أنَّ الصفـة يُؤتَى بها لتوضيـح موصوفها أو تمييزه ، ويكون المقصود بالحكم الذي يتضمَّنه السياق هو الموصوف ، والصفة تابعة له في الحكم والإعراب ، أمَّا الحال فتكون هي المقصودة بالحكم ، فإذا قُلنا مثلاً: (زيدٌ كعمرو الذي يغْضبُ) قصدنا (عمراً) دون غيره من الأشخاص ، كأنْ المعنى: (زيدٌ كعمرو الذي يغضبُ لا كسعيد الذي يغضبُ) فلا يكون ثمَّة تقييـد بين حصـول التشبيه وحصول الغضب ، وإذا قلنا: (زيدٌ كَعمرو يغضبُ) على إرادة الحـال يكون المراد الصفة لا الموصوف ، أي: ربـط الصفة بالحكم ، والمعنى: (زيدٌ كعمرو في حال غضبه) وليس مثله في حالاته الأخرى ، أي: يكون المقصود صفـة غضبه دون غيرها من صفاته ، وكأنَّ المعنى _أيضاً_ (زيدٌ كعمرو يغضبُ لا كعمرو يبتسم) .

وقد مـرَّ أنَّ قول النُّحاة : الجُمـل بعد المعارف أحوال لا اختلاف فيه إلاَّ أنَّهم يُخرجون المُعـرَّف بـ(أل الجنسية) من هذه القاعدة ؛ لأنَّه يُعـدُّ عندهم نكرة في المعنى ، وإنْ كان معـرفة من حيث اللفظ ، فجاز إعراب الجملة بعده حالاً استنـــاداً إلى لفظه ، وصفةً استنـــاداً إلى معناه ، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾** (يس:37) ، وقوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾** (الجمعة:5) .

والحقيقة أنَّ المعرَّف بـ(أل الجنسية) معرفة لفظاً ومعنى لا يختلف عن المعرَّف بـ(أل العهـدية) ، سوى أنَّ المعرَّف بـ(أل العهـدية) يُراد به فـرد معين من الأفراد ، والمعرَّف بـ(أل الجنسية) يُراد به جنس معين من الأجناس ، فقوله تعالى: **﴿يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾** حال ولا يصحُّ إعرابه صفة ، ولو أُريد به هذا الإعراب لوجب استعمال(الذي)، وقيل في الكلام كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً ، ولكن المراد تشبيههم بجنس الحمار لا بالحالة ، وتوضيح ذلك: أنَّ التشبيه يكون مدحاً لزيد إذا قلنا مثلاً: (زيدٌ كمثلِ الرَّجُلِ الْعَبُوسِ مُبْتَسِماً) ؛ لأنَّ المراد تشبيه زيد بالرجل في حال كونه مبتسماً لا في حال كونه عبوساً ، ويكون التشبيه ذمّاً لا مدحاً إذا قلنا: (زيدٌ كمثلِ الرَّجُلِ الْمُبْتَسِمِ عَبُوساً) ؛ لأنَّ المراد تشبيهه بالرجل في حال كونه عبوساً لا في حال كونه مبتسماً ؛ إذْ لا يشترط في الموصوف ألَّا ينفك عن صفته في كلِّ وقت ومقام ، بل يصح أنْ يكون الشيء في حالة مناقضة لما اتَّصف به ؛ لذا جاز أنْ يُقال في الكلام: (كمثلِ الحمار الذي يحمل أسفاراً يحملُ حطباً) ويكون المعنى المقصود تشبيههم بالحمار في حال كونه يحمل حطباً لا في حال كونه يحملُ أسفاراً ؛ لأنَّ الفعل (يحمـلُ حطباً) لوقوعه حالاً أُريدَ ارتباطه بالحكم الذي هو التمثيل ، وأمَّا الفعل (يحمـلُ أسفاراً) لوقوعه صفـة ما أريد به ذلك ، فيكون المراد بقوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾** تشبيه بني إسرائيل في حالة عدم انتفاعهم بما أُنْزِل عليهم من التوراة بجنس الحمار بصفة عامة ، أي حمار كان ، لكن في حالة معينة وهي حالة كونه يحمل أسفاراً .

فثمَّة فرقٌ أساسي بين معنى الحال ومعنى الصفة ؛ لذا ينبغي أنْ يكون المعنى هو المعوَّل عليه في تحديد إعراب الجملة عند وقوعها بعد النكرة سواء أكانت محضة أم مختصَّة ، وسواء أكانت الجملة فعلاً مضارعاً أم ماضياً ، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**(البقرة:261). يُجمع النحاة والمفسِّرون على إعراب الفعل (أنبت) صفة لوقوعه بعد نكرة محضة[29] ، وهذا الإعراب

(29) ابن الأنباري : البيان في غريب إعراب القرآن : (157/1) ، العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (213/1) .

يُوجب أنْ يكون المراد جنس الحبَّة التي صفتها أنْ تُنبت سبع سنابل دون أجناس الحبات الأخرى التي لا تتصف بذلك ، وهذا معنى محتملٌ غير واجب أو متعيَّن ؛ إذْ يجوز أنْ يكون المراد جنس الحبَّة بصفة عامة لكن في حال كونها أنبتت سبع سنابل لا في حال كونها لم تنبت شيئاً أو أنبتت سنبلة واحدة ، أي: المراد هذه الحبة في هذه الحالة لا في حالاتها الأخرى ، ويترتب على ذلك أنَّه إذا كان هذا هو المعنى الذي يراه المفسِّر وجب عليه أنْ يُعرب الفعل (أنبت) حالاً لا صفة وإذا اتَّبع ما قاله النُّحاة أو القاعدة الشائعة: (الجمل بعد النكرات صفات) ، لكان إعرابه مناقضاً لتفسيره ، وهــذا ما حصل كما سيأتي تفسيره .

يبقى الفرق الذي بيناه بين الصفة والحال قائماً في كل مثال ، فإذا قُلنا مثلاً : (هذا رجلٌ راكضٌ) عنينا أنَّه راكضٌ قبل الإشارة إليه ، وهو مايزال على هذه الصفة ، وإذا قُلنا : (هذا رجلٌ راكضاً) عنينا صفة ركضه عند الإشارة إليه دون أنْ نقصد حالته هذه قبل ذلك .

ومــن حالاتِ ارتباط جملة الحال بالحكم ارتباطها بزمــن عاملها ، فجملة (يركضُ) حــال في قولنا: (جاء الرجل يركُضُ) والمقصود وصف الرجل بالركض في أثناء مجيئه ، فإذا قُلنا: (جاء الرجلُ الذي يركُضُ) يكون المقصود وصف زيد بالركضِ قبل المجيء ؛ لذلك جاز أنْ يُقال: (جاءَ الرجلُ الذي يركضُ يمشي) والمعنى: جاء الرجل المعروف عنه أنَّه كثيراً مايركضُ جاء هذه المرة يمشي ، والتقدير: (جاء الرجلُ الركَّاضُ ماشياً) وهذه حقيقة أشار إليها المبرِّد بقوله: ((فَإِنْ قُلْتَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ مَاشِياً) لَمْ يَكُنْ نَعْتاً ؛ لأَنَّكَ لَو قُلْتَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ الْمَاشِي) لَكَانَ مَعْنَاهُ الْمَعْرُوفُ بِالْمَشِي ، وَكَانَ جَارِياً عَلَى زَيْدٍ ؛ لأَنَّه تَحْلِيَةٌ له ، وَتَبَيَّن أَنَّهُ زَيْدٌ الْمَعْرُوف بِهَذِه السِّمَةِ ... فَإِذا قُلْتَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ مَاشِياً) لَمْ تُرِدْ أَنَّهُ يُعْرفُ بِأَنَّهُ مَاشٍ ، وَلَكِنْ خُبِّرْتَ بِأَنَّ مَجِيئَهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْحَالَة وَلَمْ يَدلّ كَلَامُكَ عَلَى مَا هُو فِيه قَبْل هَذِه الْحَالة أَوْ بَعْدَهَا))[30] ، وهــذا هو تعريف الحال عند النُّحاة أنَّها تكون بتقدير في هذه الحال[31] .

والظاهر أنَّ النُّحاة حين وضعوا قاعدتهم النحوية: (الجمل بعد النكرات صفات) قاسوا الجملة على الاسم ، وقد ذهبوا إلى أنَّ الاسم قلَّما يأتي حالاً بعد النكرة إلاّ بمسوغ فاشترطوا في صاحب الحال التعريف ، وإذا كان نكرة اشترطوا فيه التخصيص[32] .

والطريقة التي اتَّبعوها في إلحاق الجملة ولا سيَّما الفعل المضارع بهذه القاعدة تقديرهم الفعل باسم الفاعل ، فقالوا مثلاً: (مررْتُ برجلٍ يضربُ غُلامَهُ) أنَّ يضرب صفة ، والتقدير: (مَرَرْتُ برجلٍ ضاربٍ غُلامَهُ)[33] .

ولا نريد أنْ نخوض هنا في مسألة مسوغات مجيء الحال من النكرة ، ولكن نريد أنْ نبيِّن أنَّ ثمَّة فرقاً أساسياً بين الاسم المشتق والفعل المضارع ، فإذا صحَّ أنَّ الاسم قلَّما يأتي حالاً بعد النكرة المحضة فهو لأنَّه أقرب إلى معنى الصفة ، إذْ الاسم يدلُّ على معنى الثبات والاستمرار ، أمَّا الفعل المضارع فعلى العكس من ذلك فهو أقرب إلى معنى الحال؛ لأنَّه يدل على التجدد والحدوث حتى إنَّه ليمكن القول: إنَّ كل فعل مضارع يقع بعد نكرة يفيد معنى الحال مالم تصرفه

عن هذا المعنى إلى معنى الصفة قرينة أخرى ، بل الفعل المضارع لا يدل على معنى الصفة إلاَّ إذا

---

(30) المبرِّد : المقتضب : (300/4) .
(31) ابن يعيش : شرح المفصَّل : (4/2) .
(32) ابن مالك : شرح التسهيل : (334_331/2) ، ابن الناظم : شرح ألفية ابن مالك : (320_319) ، الأشموني : شرح الأشموني : (2/ 14_10) ، الصبَّان : حاشية الصبَّان : (260_259/2) .
(33) المبرِّد : المقتضب : (123/4) .

قصد تكرار حدوثه .كما أنَّه ليس كل فعل مضارع صحَّ تكرار حدوثه أُستُسيغ منه معنى الصفة ، فإذا قُلنا مثلاً: (مررْتُ برجلٍ يزرعُ) فالفعل المضارع (يزرعُ) حال ؛ لأنَّ المراد المرور بالرجل في حال كونه يزرع ، ممَّا يقتضي أنْ يكون المرور به في مزرعة أو بستان ، ولا يُستساغ من (يزرعُ) معنى الصفة ، وإذا أُريد التعبير عن هذا المعنى اقتضى اسم الفاعل وأنْ يُقال: (مررتُ برجلٍ مُزارعٍ) ، وإذا أردنا أنْ نصف رجلاً بالسباحة قلنا : (إنَّه رجلٌ سبَّاحٌ) ولا نقول : (إنَّه رجلٌ يسبح) .

بل ثمَّة أفعـــال مضارعة أخرى لايصحُّ فيها أصلاً تكرار حدوثها ممَّا يمتنع أعرابهـا صفة ، نحو قولنا: (مررتُ برجُلٍ يموتُ)،فالفعل (يموت) يتعيَّن إعرابه حالاً ؛ إذْ المعنى مررتُ برجلٍ وهو في حال سكراتِ الموت ، فإذا أُريد الصفة وجب أنْ يُقال : (مررْتُ برجلٍ ميِّت) أي : أنَّه مات وصار في عداد الأموات ، وكذلك إذا قلنا: (نظرتُ إلى سفينة تغرقُ) تعيَّن إعراب الفعل (تغرق) حالاً ولا يصحُّ إعرابه صفة ؛ لأنَّ حدوث الغرق كالموت يحصلُ مرة واحدة ولا يصحُّ تكراره ، ومعنى الصفة يستوجب الحدوث والتكرار .

فالمضارع بعد النكرة يُعرب استناداً إلى المعنى المراد والمفهوم من السياق ، ففي المثال : (مرْرتُ برجلٍ يُصلِّي) لايتعين إعراب (يصلي) صفة وإنْ وقع بعد نكرة محضة ، بل لا يصحُّ فيه هذا الإعراب إلا إذا قُصِد أنْ يكون المثال بمعنى : (مررْتُ برجلٍ وهو من المؤديين لفرضية الصلاة لا من التاركين لها) وجاز حينئذٍ أنْ يُقال: (مررْتُ برجلٍ يصلي يكتبُ)إذا قُصِدَ من (يكتب) معنى الحال ، ومن (يُصلي) معنى الصفة ، وما جاز المثال إذا قُصِـــدَ من كليهما معنى الحـــال ، وإذا قلنا: (مررتُ برجلٍ يصلي فانتظرتُه حتَّى فرغ من صلاته) تعيَّن أنَّ المراد قيام الرجل بالصلاة وقت المرور به ممَّا يوجب إعراب الفعل (يصلي) حالاً لا صفة ؛ لأنَّه قد تعيَّن من السياق المعنى الحالي لا المعنى الوصفي وعلى أساس هذه القاعدة ينبغي إعراب الفعل المضارع بعد النكرة في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى:

_ **﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾**(التوبة:26) يتعيَّن عند النحاة إعراب (لَمْ تَرَوهَا) صفة استناداً إلى القاعدة اللفظية (الجمل بعد النكرات صفات) ، وهـذا الإعراب يقتضي أن يكون المعنى أنَّ ملائكةً موصوفةٌ بأنَّكم لم تروها قد أنزلها الله يوم بدر ، وهـذا معنى لا يتعيَّن فيه أنْ يكون المقصود عدم رؤيتها وقت إنزالها حتَّى جاز أنْ يُقـال في الكلام على إرادة الصفة: (وأنزل جنوداً لم تروها فرأيتموها عند نزولها) .

كما أنَّه لو أُريدَ أصلاً المعنى الوصفي لَقِيـل : (وأنْزل جنوداً لاتُرى) ، أو (وأنزلَ جنوداً لا ترونها) ، لكن لما قال _سبحانه_: **﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾** اتَّضح : أنَّ الله _تعالى_ أراد أنْ يخبر المؤمنين بأنَّه _جلَّ شأنه_ أنزل ملائكته لتثبيتهم إلَّا أنَّهم لم يكونوا قد رأوها وقت إنزالها ، أي : ليس المراد عدم رؤيتها قبل ذلك أوبعده ، وهذا المعنى الظاهر من الآية يقتضي إعراب (لم تروها) حالاً لا صفة .

_ كذلك يتعيَّن عند النحاة حسب القاعدة النحوية (الجمل بعد النكرات صفات) إعراب (نوحي) صفة في قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾**(الأنبياء:7) ويبدو أنَّ إعراب (نوحي) صفة لا يصحُّ ، وإنْ وقع بعد نكرة محضة ؛ لأنَّه بهذا الإعراب يكون المعنى وصف رجال بأنَّهم يوحى إليهم قبل الإرسال ، في حين أنَّ المعنى الظاهر من الآية يفيدُ اقتران الإيحاء بزمن الإرسال حتَّى يمكن القول بأنَّه يمتنع إعراب (نوحي) صفة ؛ لأنَّه يمتنع أنْ يوحى إلى الرسول قبل إرساله .

_ استناداً إلى هذه القاعدة أعرب العكبري (ينادي) صفة [34] في قوله تعالى : ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ (آل عمران:193) ، والفعل (ينادي) هو كالفعل (يذكرهم) في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(الأنبياء:60) وقوله تعالى: (يذكرهم) يعني : تكلَّم إبراهيم على الأصنام ، فإذا كان المراد سمعوا كلامه بصوته مباشرة وجب إعراب (يذكرهم) حالاً ؛ لأنَّ حدوث الكلام وحدوث سماعه مقترنان ، ولا يجوز إعرابه صفة إلَّا إذا قُصِدَ الكلام قبل السماع ، وهذا محال ، إلَّا إذا كان المراد أنَّهم سمعوا ما قاله الناس عن إبراهيم _عليه السلام_ أو إذا كان المراد بـــ(سمعنا) معنى (علمنا) .

_ كذلك أجمع معربو القرآن ومفسِّروه على وجوب إعراب (معها سائق) صفة[35] ؛ لوقوعها بعد نكرة محضة ؛ استناداً إلى القاعدة النحوية في قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:21) إلَّا أنَّ المعنى يوجب إعرابها حالاً ، ولا يصحُّ إعرابها صفة ، لأنَّه لا يصحُّ سوق النفس قبل مجيئها ، فالسوق والمجيء مقترنان .

_ وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾(القصص:20) يقول الزمخشري: ((يَسْعَى يَجُوزُ ارْتِفَاعه وَصْفاً لِرَجُلٍ ، وَانْتِصَابه حَالاً عَنْهُ ؛ لِأَنَّه قَدْ تَخَصَّصَ بِأَنْ وُصِفَ بِقَوْلِهِ: مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ))[36] .

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾(يس:20) فيتعيَّن عند النُّحاة إعراب (يسعى) فيه صفة ؛ لأنَّ (رجل) _هنا_ لم يتخصَّص كما تخصَّص في موضع القصص .

وحين استند النحاة إلى القاعدة اللفظية وأجازوا الصفة والحال في (يسعى) لم يشر أحد منهم إلى الفرق بين المعنيين ، ولم يشر أحد منهم أنَّه ماذا يكون معنى الآية عند إعراب (يسعى) صفة؟ وماذا يكون معناها عند إعرابه حالاً؟ فمعنى الآية في الموضعين: (جاء رجلٌ يشتدُّ سعيه)[37] ، والمراد: حدوث سعيه أثناء مجيئه ، فإعراب (يسعى) صفة لا يصحُّ وإنْ وقع بعد نكرة ؛ لأنَّ هذا الإعراب يستوجب وصف (رجل) بالسعي قبل مجيئه وهذا أيضاً أمر محال ؛ لأنَّ المجيء والسعي مقترنان ، بل وقوع السعي لايكون إلَّا بعد وقوع المجيء .

المراد بجملة الحال حصول حدوثها

لَمَّا كان المراد بجملة الحال ارتباطها بالحكم كان المراد بها حصول حدوثها ، وهذا الفرق الأساسي الثاني بينها وبين جملة الصفة الذي نلحظه كذلك في كل مثال من أمثلة المبحث السابق ، فعند جَعْل (يُصلي) مثلاً صفة في (مررتُ برجلٍ يصلي) ، يكون المعنى: إنَّك مررتَ برجلٍ هو من الملتزمين بأداء فريضة الصلاة لا من التاركين لها ، وهذا لا يتطلَّب أنْ يكون الرجل ممارساً لهذه الفريضة في أثناء مرروك به ، ويكون المقصود هذا الرجل دون غيره من الرجال ، وعند جعل (يُصلِّي) حالاً يكون المقصود هذه الحالة من الرجل دون حالاته الأخرى ، وهذا المقصود يتطلَّب ممارسته في أثناء مرورك به ، أي: حصول حدوثها ، ومن الأمثلة القرآنية التي تتَّضح فيه هذه الحقيقة

(34) العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (321/1) .
(35) ينظر : القيسي : مشكل إعراب القرآن : (226/2) ، ابن الأنباري : البيان في غريب إعراب القرآن : (323/2) ، العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (1175/2) .
(36) الزمخشري : الكشَّاف : (440/3) .
(37) أبو حيَّان : البحر المحيط : (110/7) .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:14) قال الطبري في تفسير هذه الآية: ((لَمْ يَدِل الجنَّ عَلَى مَوْتِ سُلَيْمَانَ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَهِيَ الْأَرَضَةُ وَقَعَتْ عَلى عَصَاهُ الَّتِي كَانَ مُتَّكِئاً عَلَيْهَا فَأَكَلَتْها))[38] .

وقال الزجَّاج: ((فَلَمْ يَعْلَمِ الْجِنُّ بِمَوْتِهِ حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ الْعَصَا))[39] ، وَقَالَ الرَّازِي: ((أَكَلَتْ دَابَةُ الْأَرْضِ عَصَاهُ فَوَقَعَ وَعُلِمَ حَالُهُ))[40] ، فقوله تعالى: (تأكل منسأته حال) ، وهو بهذا الإعراب أفاد أنَّ الذي دلَّ الجنَّ على موت سليمان أنَّ دابة الأرض كانت تأكلُ منسأته ، ممَّا أدَّى إلى أنْ يخرَّ فيعلموا بموته ولو أعربناه صفة لَما أفاد هذا المعنى ، ولَوجب استعمال (التي) وأنْ يُقال في الكلام: (مادلَّهم عَلَى موته إلَّا دابة الأرضِ التي تأكل منسأته) ، ولتجرد السياق من ذكر الطريقة التي علمت بها دابةُ الجن بأنَّه سليمان قد مات .

وعلى أساس هذا الفرق بين جملة الحال وجملة الصفة يُحدَّدُ إعراب الجملة بعد النكرات ، فالسياق يقتضي مثلاً أنْ يكون الفعل المضارع صفة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(الأنعام: 38) ؛ لأنَّ المراد الطائر الذي يطير بجناحيه سواء أكان في حالة طيران أم ماشياً أم واقفا أم راقداً في عشه ، ولا يصحُّ أنْ يكون حالاً ؛ لأنَّ الآية بالحال تخصُّ الطائر وهو يطير ولا تشمله في غير هــذه الحالة ، والطائر الذي يطير بجناحيه ليس دائماً في حالة طيران ؛ فالآية حسب المعنى والسياق تفيد المعنى الوصفي ، والفرق بين المعنيين كبير وأساسي حتَّى إنَّه جازعلى المعنى الوصفي أن يُقال في الكلام: (ولا طائر يطير بجناحيه إلا يطير عند إحساسه بالخطر) ، وما جاز هذا على معنى الحال ، وعلى العكس من ذلك جاز على معنى الحال أنْ يُقال: (ولا طائر يطير بجناحيه إلا يهبط على الأرض ليقتات منها ، وما جاز هذا على المعنى الوصفي) .

والفعل (تأكل) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:27) أقرب إلى الحال ؛ لأنَّ الله_سبحانه وتعالى_ أراد أنْ يذكر نعمته وفضله على عباده ويبرر هذا المعنى عندما يكون المراد بالفعل (تأكل) حصول حدوثه ؛ لأنَّ به يتحقق في الواقع هذا الفضل وهذه النعمة .

ويتَّضح معنى الحال في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾(يوسف:36) فقوله تعالى: (تأكل الطير منه) صفة عند النحاة لوقوعه بعد نكرة[41] ، والظاهر أنَّه حال وليس صفة ؛ لأنَّه ليس المراد: أحمل فوق رأسي خبزاً من نوع الخبز الذي تأكل الطير منه ، فهذا المعنى لايفيد حصول أكل الطير من الخبز والمراد حصوله .

ويقتضي السياق أيضاً إعراب (تأكله النار) حالاً لاصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ عَهِــدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِــنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾(آل عمران:183) ، فقد ذكر الطبــري في تفسيره أنَّ

(38) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : (73/22) .
(39) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه : (186/4) .
(40) الرازي : مفاتيح الغيب : (250/25) .
(41) العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (732/2) .

الضحَّاك قال : ((كَانَ الرَّجُلُ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَتُقُبِّلَتْ مِنْهُ بَعَثَ اللهُ نَاراً مِنَ السَّمَاءِ فَنَزَلَتْ عَلَى الْقُرْبَانِ فَأَكَلَتْهُ))[42] .

وقال الرازي : ((قَالَ عَطَاء: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُونَ للهِ فَيَأْخُذُونَ الثُّرُوبَ وَأَطَايِبَ اللَّحْمِ فَيَضَعُونَهَا فِي وَسَطِ بَيْتٍ وَالسَّقْفُ مَكْشُوفٌ ، فَيَقُومُ النَّبِي فِي الْبَيْتِ وَيُنَاجِي رَبَّهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ خَارِجُونَ وَاقِفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ فَتَنْزِلُ النَّارُ بَيْضَاءُ لَهَا دَوِيٌّ خَفِيفٌ وَ لا دُخَانَ لَهَا فَتَأْكُلُ كُلَّ ذَلِكَ الْقُرْبَان))[43] .

وكذلك يتعيَّن عند النحاة إعراب (تأكله النار) في هذه الآية صفة استناداً إلى القاعدة النحويه التي أجمع عليها النحاة والمفسِّرون : (الجمل بعد النكرات صفات) ، ولا يصحُّ هذا الإعراب ؛ لأنَّه ما أُريد أنْ تكون الآية بمعنى: (حتَّى يأتينا بقربان من جنس القرابين التي تأكلها النـــار ، أو بمعنى: حتَّى يأتينا بقربان قابل لأنْ تأكله النار) ، لأنَّه لا يقتضي في هــذا الإعراب حصول أكل النار للقربان ، والمراد حصوله ، ويكون ذلك بإعراب (تأكله النار) حالاً فيكون المعنى: حتَّى يأتينا بقربان ثمَّ تأكله النار، وهذا هو المعنى المراد ، وكما هو واضح من سياق الآية وتفسيرها عند المفسرين ، فقد اشترط قوم النبي أنَّهم لا يؤمنون إلا بعد أنْ يأتيهم نبيهم بقربان ، ثمَّ تُسلَّطَ عليهم النَّار فتأكله أمام أعينهم ، وهذا هو معنى الحال لا معنى الصفة .

واستناداً إلى القاعدة الآنفة الذكر يذهب النحاة إلى إعراب (نقرؤه) صفة[44] في قوله تعالى: ﴿**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ**﴾(الإسراء:93) ؛ إذْ يُصرِّح ابن هشام بأنَّ المعربين يقولون على سبيل التقريب: (الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال) ، ويمثِّل للنوع الأول وهو الواقع صفة لا غير لوقوعه بعد النكرات المحضة بالآية السابقة[45] .

غير أنَّ المتأمل للآية يلحظ أنَّ إعراب (نقرؤه) صفة لا فائدة منه ؛ لأنَّ القراءة صفة ملازمة لكل كتاب ، فكل كتاب من صفته أنْ يُقرأ ، بل ما سمِّي كتاباً إلا لأنَّه يُقرأ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنَّ المعنى الوصفي لا يفيد حصول القراءة والمراد حصولها ، أي: المراد: حتَّى تنزِّل علينا كتاباً من جنس الكتب التي نقرؤها ، أو حتَّى تنزِّل علينا كتاباً قابلاً لأنْ نقرأه ، وإنَّما المراد : حتَّى تنزِّل علينا كتاباً ثمَّ نقرؤه ، فالمشركون لم يشترطوا ليؤمنوا أنْ ينزِّل عليهم كتاباً من الكتب التي يقرؤونها ؛ لأنَّه حتَّى لو أنزل عليهم هذا الكتاب فإنَّهم لايؤمنون إلا بعد أنْ يقرؤوه ويَعُوا مافيه ، فالواضح من التفسير أنَّ إيمانهم يكون بعد حصول القراءة لا قبل ذلك ، وهذا معنى الحال لا معنى الصفة .

وكذلك يتعيَّن عند النحاة إعراب (يبحث) صفة لا غير لوقوعه بعد نكرة محضة في قوله تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ**﴾ (المائدة:31) نقل الطبري في تفسيره للآية عن ابن عبَّاس أنَّ المعنى: ((بَعَثَ اللهُ _عَزَّ وَجَل_ غُراباً حَيّاً إِلَى غُرَابٍ مَيْتٍ فَجَعَلَ الْغُرَابُ الْحَيُّ يُوَارِي الْغُرَابَ الْمَيْتَ ، فَقَالَ ابْنُ آدَم الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ : (يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُراب) ...))[46] .

---

(42) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : (197/4) .
(43) الرازي : مفاتيح الغيب : (121/9) .
(44) العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (832/2) .
(45) ابن هشام : مغنى اللبيب : (91/2) .
(46) ابن عبَّاس : تنوير المقباس من تفسير ابن عبَّاس : (121) ، الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : (10/ 224 _227) .

فالمعنى الذي يتَّفق عليه المفسَّرون: أنَّ ابن آدم لمَّا قتل أخاه جهل مواراة أخيه أو التخلُّص من جثته ، فبعث الله غراباً أو غرابين فقتل أحدهما الأخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه فجعل له حفرة ثمَّ حثا عليه التراب فدفنه فيها وابن آدم القاتل ينظر إلى الغراب فتعلَّم كيف يواري أخاه المقتول(47) .

وهذا التفسير المتفق عليه يوجب إعراب (يبحث) حالاً ؛ لأنَّ في إعرابه صفة لا يتعيَّن حصول البحث ، والتفسير والظاهر من سياق الآية يقتضيان حصوله ، فلو قلت مثلاً : (بعثتُ زيداً المصلِّي ، أو الذي يصلِّي ؛ ليعلِّم النَّاس كيف يصلُّون) ، لَمَا تعيَّن أنْ يكون المراد أنَّه علَّم الناس الصلاة عن طريق أداء هذه الفريضة أمامهم ، فهذا المراد لا يتحقَّق إلا بمعنى الحال ، وبأنْ يُقال: (بعثتُ زيداً يصلِّي؛ ليعلمَ الناس كيف يصلون) فيكون تعلُّمهم للصلاة يجيء من مشاهدتهم له وهو يصلي ، وهذا هو الفرق الذي نلحظه بوضوح بين الحال المفردة ، والصفة فقوله تعالى: **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾**(الحجر:22) يفيد حصول اللقاح ، والمعنى : أنَّ الله _سبحانه وتعالى_ أرسل الرياح لغرض أنْ تكون لواقح للنباتات ، وإذا قيل في الكلام: وأرسلنا الرياح اللواقح ، لم يفد حصول التلقيح ، ولَتجرَّد هذا القول من ذكر الغرض الذي أُرْسِلتْ له الرياح ، حتَّى جاز أنْ يسأل: لِمَ أرسلت الرياح اللواقح؟ فيقال مثلاً: (أُرْسِلَت الرياحُ اللواقحُ لواقحَ) .

وكذلك قوله تعالى: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾**(البقرة:213) ، والمعنى: (أنَّ الله بعثهم ليكونوا مبشرين ومنذرين) ، ولو قيل في الكلام : (فبعث الله النبيين المبشرين والمنذرين) لَمَا أفاد أنَّ الله بعثهم لهذين الغرضين ، والمراد حصولهما ليقيم الله بهما الحجة على عباده يوم القيامة بأنَّهم بشَّروا وأنذروا ؛ لأنَّه لا يشترط في إرسال النبي المبشر والمنذر بأنَّه قد بشَّر وأنذر .

وكذلك نلحظ هذا الفرق بين الحال والصفة في الجملة الفعلية بعد المعرفة: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾**(المائدة:15، 19) فقد جعل(يبيِّنُ لكم)حالاً ؛ لأنَّه أراد حصول حدوثه والمعنى: (أنَّه سبحانه بعث إليهم رسوله ليبيَّن لهم ، وقد بيَّن لهم) ، ولو جعل (يبيِّن لكم) صفة ، وقيل: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا الذي يبيِّن لكم) لأفاد هذا الكلام مجيء الرسول دون أنْ يفيد أنَّه يبيِّن لهم .

ومثل ذلك قوله تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾** (الأعراف:37) ، والمعنى: أنَّ رُسل الله من الملائكة جاءتهم لغرض قبض أرواحهم ، ولو جعل (يتوفونهم) صفة ، وقيل: حتَّى إذا جاءتهم رسلنا الذين يتوفونهم لما أفاد ذلك ، ولكان المعنى: إنَّ رسلنا التي وُكِّل إليها توفية الناس جاءتهم ، وعندئذ يخلو الكلام من ذكر الغرض الذي من أجله جاءتهم رسل الله ولجاز أنْ يسأل: لأي غرض جاءت هذه الرسل ؟ وإذا أُريد الإخبار بأنَّهم جاءتهم لغرض وفاتهم لاقتضى إضافة (يتوفونهم) بمعنى الحال لا بمعنى الصفة ، وأنْ يُقال: جاءتهم رسلنا الذين يتوفونهم يتوفونهم ، وإذا أُريدَ الاقتصار على ذكر الغرض من مجيء الرسل إليهم حُذِف الدَّال على المعنى الوصفي وقيل كما قال تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾** .

وكذلك قوله تعالى: **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾** (المائدة:31) فعند جعْل (يبحث) صفة يكون المعنى: أنَّ الله _سبحانه_ بعث غراباً من جنس الغرابين الباحثة في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ، وهذا المعنى لا يفيد حصول البحث في الأرض من قبل غراب أمام ناظر إليه .

---

(47) الزجاج : معاني القرآن وإعرابه : (135/2) ، الزمخشري : الكشاف : (23/2) ، الرازي : مفاتيح الغيب : (209/11) ، أبو حيَّان : البحر المحيط (465/3_466) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : (450/2) .

فإعراب (يبحث) صفة يجعل معنى الآية يخلو من ذكر هذه الطريقة التعليمية ووجب عندئذ أنْ يُسْأَلَ النحاة والمفسِّرون عند إجماعهم على هذا الإعراب أنْ يدلونا على الطريقة التي علَّم بها الغراب ابن آدم القاتل كيفية مواراة أخيه المقتول ، فإذا قالوا : إنَّه تعلَّمها من مشاهدة الغراب وهو يدفن غراباً ميتاً بنصِّ قوله تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ**﴾(المائدة:31) فنقول: إنَّ هذا المعنى إذاً يوجب إعراب (يبحث) في الآية حالاً لا صفة .

وكذلك يتعيَّن إعراب الجملة حالاً لا صفة ، وإن وقعت بعد النكرة في قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾(الأنعام:130) وقوله تعالى : ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾(الزمر:71) فالله _سبحانه وتعالى_ يقيم الحجَّة يوم القيامة على الكافرين وذلك بجعل كل من (يقصُّون) و(يتلون) حالاً لا صفة ؛ لأنَّه لو أُريد بكل منهما المعنى الوصفي لما أفادا أنَّ الرسل قصوا وتلوا عليهم آيات الله ، وأنذروهم ، ولجاز أنْ يجيب الكافرون : بلى ، قد جاءتنا الرسل التي كُلِّفت بأنْ تقص وتتلو علينا آياتك ، وتنذر لقاء هذا اليوم ، ولكنها لم تقص ولم تتلَ علينا آياتك ولم تنذرنا لقاء هذا اليوم .

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾(القصص:59) جعل الله من سنَّته ورحمته ألَّا يُعذِّبَ أمة حتَّى يبعث إليها رسولاً يتلو عليهم آيات الله ويعظهم ، وينذرهم ويبشِّرهم فهذه السنَّة المفهومة من السياق ويتَّفق عليها المفسَّرون ويتحقَّق معناها بجعل (يتلو) حالاً لا صفة .

وكذلك يُقال الكلام نفسه في شبه الجملة ، فشبه الجملة مثلاً في قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ**﴾(الأحزاب:10) لو أُريـــدَ جعلها صفة في الكلام لوجب استعمال (الذين) ، وقيـل: (إذْ جاءوكم الذين من فوقكم) ، والمعنى : إنَّ الذين من فوقكم جاءوكم ، والكلام بهذا السياق خالٍ من ذكر حالة المجيء ؛ لذلك جاز أنْ يُقال : (إذْ جاءوكم الذين من فوقكم من تحت أرجلكم) .

فشبه الجملة يحدِّد إعرابها أيضاً بعد النكرة بحسب المعنى المراد ، فهي بمعنى الحال في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ**﴾(المائدة:114) ؛ لأنَّ المراد حصول نزول المائدة من السماء ، وشبه الجملة (من فوقكم) حالٌ أيضاً في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْـــتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾(الأنعام:65) ، وعند جعلها صفة كما يذهب النحاة ، والمعربون[48] يكون المعنى : (قل هو القادر أنْ يبعث عليكم عذاباً من جنس العذاب الذي يصيبكم من فوقكم) ، وهذا المعنى لايفيد ذكر الجهة وتحديدها التي يبعث من خلالها هذا النوع من العذاب ؛ لأنَّ(من فوقكم)عند جعلها صفة تكون صفة للعذاب وليس صفة لبعثه ؛ ولذلك جاز على المعنى الوصفي أنْ يُقال: (هو القادر أنْ يبعث عليكم عذاباً من فوقكم من تحت أرجلكم) ، وذلك بإعراب (من فوقكم) صفة و(من تحت أرجلكم) حالاً ، والمعنى: (إنَّ الله قادرٌ على أنْ يبعث عليكم عذاباً من جنس العذاب الذي من صفته أنْ يأتيكم من فوقكم قادر _سبحانه وتعالى_ أنْ يبعثه عليكم من تحت أرجلكم فيجعل الصواعق_ مثلاً_

(48) يُنظر : الفرَّاء : معاني القرآن : (338/1) ، العكبري : التبيان في إعراب القرآن : (505/1) ، أبو حيَّان : البحر المحيط : (151/4) .

تصدر من جوف الأرض لا من جو السماء والله على كل شيء قدير) .

فإذا كان الظاهر من الآية والمتبادر إلى ذهن المفسِّر أنَّ المعنى المراد هو : (أنَّ الله قادر أنْ يصيبكم بعذاب يبعثه عليكم من فوقكم كالصيحة ، أو يبعثه عليكم من تحت أرجلكم كالخسف تعيَّن إعراب (من فوقكم) حالاً لا صفة و إذا أُعربت صفة استناداً إلى القاعدة النحوية (الجمل بعد النكرات صفات) جاء الإعراب مستنداً إلى اللفظ مناقضاً للتفسير في حين أنَّ النحاة والمفسَّرين مجمعون على أنَّ الإعراب يجب أنْ يكون مستنداً إلى المعنى أولاً وآخراً ، بل ذهبوا إلى أنَّه لا يمكن التعرف على الإعراب وتحديده إلا بعد التعرف على المعنى وتحديده .

خلاصة ما تقدَّم أنَّ قول النحاة : (الجمـــل بعد المعارف أحـــوال) حقيقـة لا مراء فيها أمَّا قولهم : (الجمـــل بعد النكرات صفـــات) فهو قولٌ يحتاج إلى نظر .

الخاتمة

بعد التأمل الدقيـــق في قول النحاة: (الجمل بعد النكرات صفات) ، ومقارنة هذا القول بآيات من النص القرآني وتحليل تلك الآيات وتفسيرها ، والغوص في مكوِّناتها ؛ سعياً إلى حكم قاطع بضرورة القطع بإعراب الجمل بعد النكرات صفات استناداً إلى القاعدة النحوية المنصوص عليها من جهة النحاة **يصل البحث إلى نتيجة مفادها :** أنَّ قـــول النحاة هذا يحتاج إلى إعادة نظر انطلاقاً من النَّص القرآني الذي هو أفصح الأساليب العربية فقد تبيّن من خـــلال معاني الآيات وتفسرها أنَّه إذا سلمنا بقول النحاة : (الجمل بعد النكرات صفات) أدَّى ذلك إلى استناد الإعراب إلى اللفظ _فقط_ دون المعنى كما يؤدي إلى الوقوع في محظور التناقض بين إعراب اللفظ وبين معناه المراد في سياق النص ؛ لذا فإنَّ الدلالة العقلية _وهي دلالة يجد العقل فها رابطاً بين الدال والمدلول_ تكون هي الفصيل ؛ إذْ الرابط بين الجمل والنكرات _هنا_ رابطة عقلية منطقية ، قائمة على الاستنتاج المنطقي العقلي ، المعتمد على الإدراك الذهني ، وهي التي تُحدد رجحان إعراب الجمل بعدها حالاً أو صفة ، خصيصاً بعد أنَّ أوضح التفسير القرآني أنَّ الاعتماد على اللفظ في الإعراب مناقض للمعنى المراد في الوقت الذي يجمع فيه أهل اللغة على أنَّ الإعراب يجب أن يكون مستنداً على المعنى أولاً قبل اللفظ ، بل أكَّد معظمهم على أنَّه لا يمكن الوقوف على إعراب الألفاظ داخل التراكيب إلا بعد تحديد المعنى لذا فإنَّ قاعدتهم هذه تستلزم من دراسي اللغة والمهتمين بها وقفة تأمل وإعادة نظر .

المصادر والمراجع :

أولا: القرآن الكريم برواية حفص .

ثانياً: المطبوعات :

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر_ للبنَّاء الدمياطي: (شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد الغني(ت:1117هـ)) _ وضع حواشيه الشيخ : أنس مهرة _منشورات محمد علي بيضون _دار الكتب العلمية_ بيروت ، لبنان _1422هـ/ 2001 م .
- الأصـــول في النحو_لابن السرَّاج : (أبو بكر محمد بن سهـــل (ت:316هـ)) _ تحقيق الدكتور: عبد الحسين الفتلي_ مؤسسة الرسالة _الطبعة الرابعة_ 1420هـ / 1999 م .
- إعراب القرآن_ للنَّحاس: (أبو جعفر أحمد بن محمد(ت:338هـ)) _ تحقيق الدكتور: زهير غازي زاهد _عالم الكتاب ، ومكتبة النهضة العربية _بيروت_الطبعة الثالثة_1409هـ/1988م .
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء مِنَ العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلي : (ت:1976م) _الطبعة الثالثة_1389هـ/1969 م .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك _لابن هشام: (جمال الدين أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأنصاري (ت:761هـ)) _تحقيق الدكتور : هادي حسن حمودي_دار الكتاب العربي_ بيروت_ الطبعة الرابعة_ 1420هـ / 1999 م .
- الإيضاح في علل النحو_للزجاجي : (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق(ت:337هـ)) _تحقيق الدكتور : مازن المبارك_ دار النفائس _بيروت_ الطبعة الثانية_ 1393 هـ/ 1973 م .
- البحر المحيط _لأبي حيَّان أبو حيَّان : (أثير الدين محمد بن يوسف (ت:745هـ)) _دار إحياء التراث العربي_ بيروت ، لبنان _الطبعة الثانية_ 1411هـ / 1990 م .
- البيان في غريب إعراب القرآن : لابن الأنباري : (كمال الدين أبو البركـــات عبد الرحمن بن أبي الوفاء (ت:577هـ)) _ضبط وتعليق: بركات يوسف هبُّود_ دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة ، والنشر ، والتوزيع _ بيروت ، لبنان_ 1421 هـ/2000 م .
- التبيان في إعراب القرآن _للعكبري: (مُحب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت:616هـ)) _ تحقيق: علي محمد البجاوي _دار الجيل_ بيروت ، لبنان _الطبعة الثانية _ 1407هـ / 1987 م .
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد_لابن مالك: (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت:672هـ)) _تحقيق : محمد كامل بركات_دار الكتاب العربي للطباعة ، والنشر بمصر_1387هـ / 1967 م .
- تفسير القرآن العظيم _لابن كثير: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت:774هـ)) _مكتبة دار التراث _القاهرة_ (بدون تاريخ) .
- التفسير الكبير_للرازي : (محمد بن عمر(ت:606هـ)) _ملتزم طبعه : عبد الرحمن محمد _المطبعة البهية المصرية_ الطبعة الأولى_1357هـ/1938 م .
- تنوير المقباس من تفسير ابن عبَّاس _لابن عبَّاس: (أبو العباس عبد الله بن العباس القرشي الهاشمي (ت: 68 هـ))

جمعه : الفيروز آبـادي منشورات محمد على بيضون _دار الكتب العلمية_ بيروت،لبنان_ الطبعة الثالثة_1429ه / 2008 م .

- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك _للمرادي : (بدر الدين الحسن بن قاسم (ت: 749ه)) _شرح وتحقيق الدكتور : عبد الرحمن علي سليمان _دار الفكر العربي القاهرة _الطبعة الأولي _ 1422 ه /2001 م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن_للطبري : (أبو جعفر عمر بن جرير (ت:310ه)) _مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر _ الطبعة الثانية_ 1373ه/ 1954 م.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك_ للخضري : (محمد بن عبد الله الشافعي (ت:1288ه))_شرح،وتعليق: تركي فرحان المصطفى_منشورات محمد على بيضون _دار الكتب العلمية_ بيروت ، لبنان _الطبعة الأولى_ 1419ه / 1998 م .
- حاشية الصبَّان على شرح الأشموني_للصبَّان: (أبو العرفان محمد بن علي (ت:1206ه))_تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد_المكتبة التوفيقة_القاهرة_(بدون تاريخ) .
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك_ للأشموني : (نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عيسى (ت:929ه)) _قدَّم له ، ووضع هوامشه ، وفهارسه : حسن حمد ، إشراف: الدكتور إميل بديع يعقوب_منشورات محمد علي بيضون_ دار الكتب العلمية_بيروت،لبنان_الطبعة الأولى_1419ه / 1998 م .
- شرح ألفية ابن مالك _لابن الناظم : (بـدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن مالك (ت:686ه))_حققه ، وضبطه ، وشرح شواهده ، ووضع فهارسه الدكتور : عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد _ دار الجيل _بيروت_1419ه/ 1998 م.
- شرح التسهيل_ لابن مالك : (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت:672ه))_ تحقيق الدكتور: عبد الرحمن السيد ، والدكتور محمد بدوي المختون _ دار هجر للطباعة ، والنشر ، والتوزيع _القاهرة_الطبعة الأولى_ 1410ه/1990 م .
- شرح التصريح على التوضيح _للأزهري : (زين الدين خالد بن عبد الله (ت:905ه)) _دار إحياء الكتب العربية_القاهرة_(بدون تاريخ) .
- شـرح الرَّضِي على الكافية_للرضي : (رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت:686ه)) _تصحيح ، وتعليق : يوسف حسن عمر _منشورات جامعة قاريونس _بنغازي_الطبعة الثانية _ 1996 م .
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب_لابن هشام : (جمال الدين أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأنصاري (ت:761ه)) _تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد_دار الثقافة_بالقاهرة_(بدون تاريخ) .
- شرح عمدة الحافظ وعدة اللاقط_لابن مالك: (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت:672ه)) _تحقيق : عدنان عبد الرحمن الدوري _مطبعة العاني_الطبعة الأولي_ بغداد_1398ه / 1978 م .

- شرح المُفصَّل_لابن يعيش: (موفق الدين أبو البقاء يعيش بن يعيش النحوي (ت:643ه)) _قدَّم له ، ووضع هوامشه ، وفهارسه : الدكتور إميل بديع يعقوب _ منشورات محمد علي بيضون_دار الكتب العلمية_ بيروت ، لبنان _الطبعة الأولى_1422ه / 2001 م .
- كتاب التعريفات_للجرجاني : (عبد القاهر أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن(ت:471ه))_ تحقيق وزيادة الدكتور: محمد عبد الرحمن المرعشلي _دار النفائس_ الطبعة الأولى_1424ه/2003 م .
- الكشَّاف عَنْ حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل _للزمخشري : (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر(ت:538ه)) _شرح ، وضبط : يوسف الحمَّادي _دار مصر للطباعة_ سعيد جوده السحَّار وشركاه_ (بدون تاريخ) .
- مشكل إعراب القرآن_للقيسي: (أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت:437ه)) _تحقيق:الدكتور حاتم صالح الضامن_دار البشائر للطباعة ، والنشر _دمشق_الطبعة الأولى_1424ه / 2003 م .
- المطالع السعيدة في شرح الفريدة :للسيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن(ت:911ه))_ تحقيق الدكتور: نبهان ياسين حسين ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد _1977م .
- معاني القرآن_للفراء : (أبو زكريا يحيى بن زياد(ت:207ه)) _ الجزء الأول تحقيق : أحمد يوسف نجاتي،ومحمد علي النجَّار ، والجزء الثاني تحقيق : محمد علي النجَّار ، والجزء الثالث تحقيق : عبد الفتَّاح إسماعيل شلبي _دار السرور_ 1955 م .
- معاني القرآن وإعرابه_للزجاج: (أبو إسحاق إبراهيم السرِّي (ت:310ه))_شرح،وتحقيق : الدكتور عبد الجليل عبده شلبي_خرَّج أحاديثه : الأستاذ علي جمال الدين محمد _دار الحديث_القاهرة_ 1424ه / 2004 م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام: (جمال الدين أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأنصاري (ت:761ه)) _قدَّم له ، ووضع حواشيه ، وفهارسه :حسن حمد ، أشرف عليه وراجعه : إميل بديع يعقوب_ منشورات محمد علي بيضون _دار الكتب العلمية بيروت،لبنان_الطبعة الأولى_ 1418ه/ 1998 م .
- المقتضب_للمبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد(ت:285ه))_تحقيق: الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة_عالم الكتب_بيروت_1382 ه / 1963 م .
- النشر في القراءات العشر_ لابن الجزري : (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت:833ه)) _ قدَّم له : الأستاذ علي محمد الضبَّاع ، وخرَّج آياته : الشيخ زكريا عميرات_منشورات محمد علي بيضون_دار الكتب العلمية_ بيروت ، لبنان – الطبعة الأولى_1418ه / 1998 م .

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

المفردات والصور في رواية يوميات نائب في الأرياف ـ دراسة أسلوبية سيموطيقية

د. العدوي محمد راضي.

(استاذ مساعد ـ كلية التربية المرج / جامعة بنغازي ـ ليبيا)

العدد السادس – مارس 2016

دلالة المفردات في رواية " يوميات نائب في الأرياف "

دراسة أسلوبية سيموطيقية

ملخص بحث :

يشغل المنهج الأسلوبي أهمية خاصة , فهو يهتم بدراسة النصّ الأدبي باعتباره بناءً لغويًا ينتظم فيه : الأصوات , والمفردات , والتراكب , والدلالات , والسياق , ويعكس مضمونًا أو رؤية موضوعية , أو أيدولوجية , أو نفسية , أو تاريخية , أو اجتماعية , أو ثقافية تخصُّ المبدع وتخضع - هذه البنية - لدراسات علمي اللُّغة والبلاغة في آنٍ واحد .

وهذه الدراسة بعنوان : دلالة المفردات والصور في رواية " يوميَّات نائب في الأرياف " دراسة أسلوبية سيموطيقية , جاءت سعيًا وراء دراسة لغوية وأسلوبية لأدب توفيق الحكيم في الكلمة ودلالتها المعجمية والبلاغية ؛ حيث أعطت حرية اختيار الكلمات للكاتب - في روايته - فرصة لتوليف مفردات معجمية رسمت صورة ذهنية للعالم المحيط بالكاتب في بيئة الريف في مصر في هذه الفترة من تاريخ مصر . كما عرضت الرواية مجموعة من الحقول الدلالية تمثَّلت في : الملابس - بيئة الريف - قطاع الشرطة - قطاع القضاء - قطاع الصحة ؛ أعطت صورًا رمزية للمفردات الخاصة بهذه القطاعات . ورسم الكاتب بقلمه مجموعة من الصور البديعة قامت على المجاز تمثلت في التشبيه والاستعارة , صُبغتْ هذه الصور بالسخرية مرة وبالنقد مرات , وبالألم على حال هذه الفئة من البشر في بعض الأحيان . كما وضَّحتْ الدراسة أنَّ أدب توفيق الحكيم على درجة عالية من الجودة الأسلوبية , وفيه سمات عديدة على مستويات :الإيقاع , والمفردات , والتركيب , والنص , والسياق الخارجي , خاصة أنه يمتاز بمفردات بلاغية غاية في الروعة .

كلمات مفتاحية : دلالة - المفردات - رواية - يوميات - نائب - أسلوبية .

Search Summary: indication vocabulary in the novel "Diary deputy in the countryside - Study stylistic semeiotics "

Abstract

Occupies approach stylistic particularly important, he is interested in studying the literary text as a building linguistically organized it: sounds, vocabulary, overlay, and semantics, and context, and reflects the content or objective vision, or ideology, or psychological, or historical, or social, or cultural belonging creator and subject - This structure - of the scientific studies of language and rhetoric at the same time. The study, entitled: indication vocabulary and images in the novel "Deputy Diary in rural areas," the study of stylistic semeiotics, came in pursuit of the study of language and stylistic Literature Tawfiq al-Hakim in the floor and significance of lexical and rhetorical; where given the freedom to choose the words of the writer - in his novel - a chance for the synthesis of vocabulary lexical painted a picture mentality of the world around the writer in the rural environment in Egypt at this period of the history of Egypt . The novel also offered a set of semantic fields represented in the clothing - rural environment - the police sector - the justice sector - health sector; given the symbolic images of the vocabulary for these sectors. Author his pen and draw a group of pictures on the magnificent metaphor was the simile and metaphor, these images painted mock-time-critical times, and pain on the case of this category of people sometimes. The study also made clear that the literature Tawfiq al-Hakim a high degree of stylistic quality, and the many features on the levels: rhythm, vocabulary, installation, text, and external context, especially as it is characterized by very vocabulary rhetorical magnificence.

Keywords: connotation - Vocabulary - - novel - Diary - deputy

يبرُز أدب مصر الحديثة مادةً إبداعية تستحق الدرس المتجدد والمتأني , والتعامل مع التيارات المنهجية الجديدة خاصة في عصر ازدهار الكتابة في النصف الأول من القرن التاسع عشر , حيث بلغتْ فيه الحياةُ الأدبية مبلغًا عظيمًا . ويبرُز من هؤلاء الكتاب توفيق الحكيم بإنتاج هائل من الروايات والمسرحيات حظي باهتمام دارسي الأدب والنقد , وتُرجمت العديد من أعماله إلى اللغات الأوروبية.

ويشغل المنهج الأسلوبي أهميَّة خاصَّة , فهو يهتمُّ بدراسة النصِّ الأدبيّ باعتباره بناءً لغويًا ينتظم فيه: الأصوات , والمفردات , والتراكب , والدلالات , والسياق , ويعكس مضمونًا أو رؤية موضوعية، أو أيدولوجية , أو نفسية , أو تاريخية , أو اجتماعية ,أو ثقافية تخُصُّ المبدعَ وتَخضعُ - هذه البنية - لدراسات علمي اللُّغة والبلاغة في آنٍ واحد .

من هنا انبثق موضوع هذه الدراسة : دلالة المفردات والصور في رواية " يوميَّاتنائب في الأرياف " دراسة أسلوبية سيموطيقية , والتي تهدف إلى :

1- دراسة الدِّلالة المعجمية للمفردات في رواية يوميَّات نائب في الأرياف .
2- دراسة الدِّلالة العرفية للمفردات في رواية يوميات نائب في الأرياف .
3- دراسة دلالة الصورة في رواية يوميَّات نائب في الأرياف باعتبارها : صورًا بلاغية - صورًا ذهنية - رمزًا .

مادة الدراسة ومصدرها : تنصبُّ هذه الدراسة على رواية " يوميات نائب في الأرياف " للأديب العالمي توفيق الحكيم , وما تناثر حول الإنتاج الأدبي في مصر قبل ثورة يوليو . فالرواية وثيقة (انثروبولوجية) عظيمة وصور من أكثر الصور أمانة , وأبلغها تأثيرًا لمجتمع القرية في مصر - آنذاك - بسيئاته ومباهجه , بحماقاته وروح التكافل فيه ... خلافاته ...تماسكه... وإخلاصه لكل هذه السمات فيه من زمن بعيد . **(الرواية ص149 , تحت عنوان : يوميات نائب في الأرياف في نظر النقاد الأوربيين , مقال للفرنسي جان لاكوثور)** .

مما يُعد سياقا فكريًا - لهذه الفترة - يساعد في تفسير الجوانب اللغوية والبلاغية ,بالإضافة إلى المصادر الأسلوبية والنحوية والبلاغية , بحيث يشكل سياقًا منهجيًا متكاملًا .

منهج الدراسة وأدواته :

يلتزم هذا البحث بالمنهج الأسلوبي عند رومان (جاكوبسن) ومن سبقه منذ (دوسوسير) في النظرة إلى بناء العمل الأدبي من أصوات , ومفردات , وجمل , وسياقات للدلالة على رؤية فكرية ودلالية مع الاستفادة من معطيات علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد الأدبي , منطلقًا من منظور الأسلوب في اعتبار النص رسالة لغوية تصل ما بين المبدع والمتلقي ضمن سياق وسنن لغوية عبر وسيلة اتصال.

وقد جاءت الدراسة حسب التقسيم الآتي :

المبحث الأول : الدلالة المعجمية في رواية "يوميات نائب في الأرياف " .

المبحث الثاني : الدلالة العرفية (الرمزية) .

المبحث الثالث : دلالة الصورة (الأيقونة) .

خاتمة : فيها أهم النتائج والتوصيات .

مـــدخل :

الكلمات المفردة تحظى بنصيب وافر من اهتمام الباحثين في الأسلوب باعتبار أنها أظهر المتغيرات وأيسرها تناولًا بالعدِّ والإحصاء والتصنيف من حيث الصيغ الصرفية والخصائص الدلالية **(محمد عبد الله جبر, الأسلوب والنحو 1988, ص16)** .

ونظرًا لأنَّ الرواية محلَّ الدراسة تتميز بظروف إبداعية خاصة فإنَّهذا البحث ينطلق من اعتبار المفردة قسيمة عِلْمين :

1- اللغة : باعتبار الكلمة بنية صوتية (مورفيمية Morpheme), وصيغة صرفية ذات معانٍ وظيفية في ذاتها كاسم الفاعل واسم المفعول , وفي صلتها بغيرها كالفاعلية والمفعولية والحالية .. وتُردُّ الكلمة إلى جذرٍ لغويٍّ اشتقاقي , خاضعة لقواعد خاصة في الكتابة تختلف من لغة إلى لغة . والكلمة علامة أو رمز لشيء واقعي اجتماعي يُدرك من خلال تصورٍ ذهنيٍّ , وتتعدد دلالاتها من الدلالة المعجمية إلى العرفية إلى الفكرية.**(حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية ومعجمية 1993 ص25)**

ومن هذا الجانب يمكن التعرف على بنية الكلمة الصرفية ووظائفها الذاتية والدلالية الظاهرة في عدد من النقاط :

أ- الدلالة الذاتية للكلمة .

ب - الدلالة المعجمية للكلمة .

ح - دلالة الكلمة في السياق اللُّغوي .

د - دلالة الكلمة في السِّياق الاجتماعي والفكري .

2- البلاغة (البيان) : يدرس الكلمة في انحرافها من معناها المعجمي إلى معنىً مجازيٍّ على سبيل التشبيه , أو الاستعارة , أو المجاز , أو الكناية . ومن هذا الجانب يمكن التعرف على الصور المجازية: التشبيه والاستعارة والمجاز .

ويمكن جمع هذه الدلالات في الآتي :

أ - دلالة الكلمة في المعجم (تضم دلالة الكلمة في ذاتها الاشتقاقية والقاموسية) .

ب- دلالة الكلمة في السياق الفكري , (دلالة عرفية أي رمزية) .

ج - دلالة الكلمة نحويًا في الجملة وجمالياتها .

د - دلالة تصويرية (تشبيه - استعارة - مجاز) .

وتنتُج الدلالاتُ (أ , ب , ج) من علاقة الدَّال بالمدلول بينما الدِّلالة النحوية من علاقة الدَّال بالجملة . وقد اعتبر اللغويان - أوجدن و ريتشارد - المفردة رمزًا Symbol والمعنى المشار إليه Referent والعلاقة بينهما تمر بالفكرة Thought وأشارا إليه بالشكل :

الفكرة

المشار إليه ا الرمز

وقد تعدَّل هذا المفهوم عند (دوسوسير) حيث أبدل الرمز بالدَّال , وهي الصورة السمعية اللفظ , وأبدل الفكرة بالمدلول بالمشار إليه وألغي المشار إليه , ورأى أنَّ هناك صورة ذهنية **(سيزا قاسم وآخر,أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة 1986,ص23)** . وتستدعي الفكرة وتدفعها . فالمفردات علامات سيموطيقية دالة عبر صورة ذهنية على مدلول نفسي أو معنوي , يختارها المبدع من المستوى المعجمي بقصدية . والدَّال والمدلول يكوِّنان معًا الدليل .**(رولان بارت ,مبادئ في علم الأدلة1987, ص65-71)**.

وقد استنتج اللغويون ثلاث علاقات بين الدال والمدلول وهي : الأيقونة , والرمز , والمؤشر . فالمؤشر هو علامة تحيل الشيء الذي تشير إليه بفضل وقوع فعل هذا الشيء عليها في الواقع , وهي تطلق على الدلالة الطبيعية . والرمز هو علامة تحيل الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون يعتمد على التداعي بين أفكار العامة , وينطبق على الدلالة العرفية. والأيقونة هي علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل سمات خاصة بها وحدها , وهو ما ينطبق على الصورة والرسم البياني والاستعارة **(أنظمة العلامات,ص251-252)**.

ويمكن أنْ يُضاف إلى هذه الدلالات دلالة الكلمة في موقعها النحوي ودلالات ذلك جماليًا , وهو ما يعرف بالوظائف النحوية . ومن يمكن حصر الدلالات في :

الأولى : دلالة المؤشر (المعجمية) . الثانية : دلالة الرمز (العرفية) .

الثالثة : دلالة الأيقونة (الصورة) . الرابعة : الدلالة النحوية (النظم) .

المبحث الأول : الدلالة المعجمية في رواية "يوميات نائب في الأرياف " :

الدلالة المعجمية هي دلالة القاموس على المفردات , وقد اكتُسبتْ من دلالات عدة : الدلالة الصوتية التي تُستمد من طبيعة الأصوات في الكلمة ، والدلالة الصرفية التي تُستمد من صيغة الكلمة وبنيتها كدلالة (الكذَّاب) على الاتصاف بالكذب والمبالغة , والدلالة الوضعية التي تمثل اتفاق اصطلاح الجماعة اللغوية قديمًا على دلالة الكلمات , وهو اتفاق يتطور ويتجدد ويتغير مع الزمن , والدلالة النحوية التي تُكتسب من استعمال الكلمة في جمل متعددة بدلالات متعددة واستقرار هذه الدلالة معجميًا.

ويَكتسب أبناء البيئة اللغوية هذه الدلالات اللغوية عن طريق التلقِّي والمشافهة وبالمران الكافي تَحلُّ هذه الدلالات منطقة اللاشعور أو شبه اللاشعور , وهو ما يعرف بالسليـــقة اللـغوية **(إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ 1976,ص59 وما بعدها)**. والمبدع لا يستخدم هذه المفردات بطريقة منطقية , وإنما يتعامل معها بقصدية وحرية , ومن هنا فإنه يختار من بين هذه المفردات ما يناسب قصده , وتُمثِّل عملية الاختيار خلْقًا للمعنى , وتمكنه من حرية التعامل مع الأعراف اللغوية في استخدامه للمفردات **(شكري محمد عياد ,اللغة والإبداع1988,ص71-72)** . ومن هنا فإنَّ المبدع يختار من العلاقات الرأسية الترابطية التي تعتمد على تداعي المعاني بين الكلمة وقريباتها ونظيراتها في الاشتقاق , وبينها وبين مضادتها ومرادفاتها ... ما يناسب المعنى والاختيار ، فهو يختار من العلامات بين عالم , عِلْم, مُعلم , تعليم , عَلَم , وبين قائم , قاعد , سائق **(نفسه ص 42)** .

وفي اليوميّات ما يوحي بحرية الكاتب في هذا الاختيار , فيقول في وصف مساعده : " ***وأرسلتُ في طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة , وأوفدتُ من يوقظ مساعدي الجديد , وهو شاب رقيق الحاشية حديث عهد بالعمل , كان قد أوصاني أنْ أستصحبه في الوقائع ليكتسب الخبرة والمران*** . " **(الرواية ص13).**

وقال يصف الشيخ عصفور - وهو الشخصية التي مثـّلت حوار الفانتازيا في الرواية - ويصف ليل القرية : " ***وصعد الرجل إلى (البوكس فورد) كأنه يصعد إلى (زولزرويس) بعد أن انتزع من الدغل عودًا أخضر حمله في يده كالصولجان . وانطلقت السيارة بين المزارع , وقد نامت الطبيعة وسكنتْ الأصوات إلّا من نقيق الضفادع وهفيف الحشرات وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف (البوكس)*** **(الرواية ص15)** .

ففي وصف المساعده استخدم : أرسلت - أوفدت - أوصاني - حديث - رقيق - أستصحبه -

وفي وصف الشيخ المخبول : انتزع - الدغل - الصولجان - تغريد . وفي وصف الطبيعة استخدم : سكنت - نامت - هفيف - المزارع - نقيق - الحشرات .

فمكَّنته حريته وقصده لاختيار ألفاظ وصف الطبيعة ووصف الشيخ بدقة .

ونظرًا لأنَّ الرواية مليئة بالصور المرسومة بريشة السخرية والمأساة , فيقول في وصف المصاب بطلق ناري في أحد معاياته : " ***ودنوتُ من ذلك الجسم الممدَّد على الأرض , وحدَّقتُ في ذلك الوجه المعفَّر بالتراب والدم , فعلمتُ أنه حقيقة لن يتكلم , وقد وجدت مُلاحظ النقطة غارقًا لأذنيه في تحرير محضره الذي سأضرب به عرض الحائط , فالنيابة متى حضرت بحَثتْ كل شيء من جديد*** " **(الرواية ص17)** . ظهر ذلك من : الممدد - المعفَّر - التراب - الدم غارقًا - لأذنيه - عرض الحائط .

وتتصاعد نبرة الألم على حال الريف في تلك الحقبة فيقول : "***لا يكاد يُرى غير هذه الجُحور المسقفة بحطب القطن والذرة يأوي إليها الفلاحون . إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماء وفضلات البهائم , وفي تكدُّسها وتجمعها (كُفورًا) و(عِزبًا) مبعثرة على بسيط المزارع , لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان . هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه من هذه البقاع***. " **(الرواية ص 51)** .
فاستخدم الكاتب : الجحور - المسقفة بحطب - يأوي - الأغبر - الأسمر - الطين - فضلات البهائم - مبعثرة - قطعان - مرسلة - ديدان - المساكين .

كلمات أرسلها الكاتب في حرية رسمت صورة مهيبة من البؤس لمجتمع الريف المصري .

وبجانب صورة الألم والبؤس لحال هذا المجتمع تمتلئ الرواية بصور السخرية والنقد لكل تنظيمات المجتمع الإدارية والشرطية والقضائية والصحية والعرفية والتعليمية , فيصف العمدة - ممثل السلطة المباشرة على مجتمع القرية - أثناء اجتماع العُمَد مع مأمور المركز فيقول : " ***فخرج العمدة ذليلًا كأنه خادمٌ أو مجرم , وقلت في نفسي : هذه الذِّلة التي يذوقها في حضرة رجال الإدارة لن تذهب سُدى , فهو سيذيقها بعينها لأهالي القرية التي يحكمها , فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس في هذا البلد حتى تصل في نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة*** . "**(الرواية 118)**

فاستخدم الكاتب - تقريبًا - معظم مرادفات الذُّل : الذِّلة - ذليل - خادم - يذوقها - حضرة - سيذيقها - كأس الإذلال - المرؤوس - المسكين - تجرَّعها - يحكمها .

وتتسع دائرة النقد إلى النصف الجنوبي من القطر المصري (بلاد الصعيد) فيصف هذه الرقعة الشاسعة من مصر والتي تدور فيها أحداث الرواية , فيقول : " ***الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة الوحشية , هذا الوجه القبلي من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحري . إنَّ المرأة هناك شبح لايرى , ولا ينبغي أنْ يرى . وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل , كلاهما شيء لا أثر للرقة فيه . وكلاهما في الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها , وقد جفَّ عنها النيل من زمن التحاريق ! آدميون قد جفَّ عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سرّ امتياز الآدميين*** " (الرواية ص141).

وبلغ النقد مداه في تصوير المرأة - التي هي رمز الرقة و الرحمة في أي مجتمع - في هذه البلاد فاستخدم الكلمات : الوحشية - مخيف - شبح - جاف - الأرض السوداء - جفَّ - زمن التحاريق .

هي كل الكلمات التي يمكن أن يختارها مبدع للتعبير عن القساوة , فتكررت مادة (ج ف ف) ثلاث مرات في فقرة قصيرة مع ألفاظ الخشونة والقسوة .

وتَدِقُّ نبرة النقد فيصف دار النيابة رمز السلطة القضائية في ذلك الوقت فيقول : " ***آه من هذه الشكاوى! إنها أكثر عددًا من ذلك البق الزاحف جيوشًا على حائط دار النيابة الرطب المُتهدم*** " **(الرواية ص136)**.

وتمتدُّ مرارة النقد فيصف نفسه في حديث النجوى, وقد تبلَّدتْ من كثرة مشاهدة الجثث ومناظر التشريح، فيقول : " ***وماذا يبقى من كلِّ تلك الأشياء العظيمة المقدسة*** (الجثث المشرحة والجسامين) ***التي لها في حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك الرمز . أيبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادي ؟ حجر ! أو عظم ! لا يساوي شيئًا , ولا يعني شيئًا . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها الرمز ؟ الرمز هو في ذاته كائن لا وجود له . هو لا شيء وهو مع ذلك كل شيء في حياتنا الآدمية*** " (الرواية ص88) .

وربما لجأ الكاتب إلى استخدام صيغ لغوية غير مستعملة في العربية الفصحى , وهي جزء من عامية هذا المجتمع , نحو : ولا مُؤاخذة - عُقبال عندك - مَحسوبتك - فَركة كعب - يافندم - يِسبَّخ (يوبخ) - سيد العرفين - بلا ش أمور ... - اخرسي يا وَلِيَّة (امرأة) . وعلى الرغم من قلة هذه الصيغ إلا أنْ الكاتب استخدمها في المواضع التي يحتاجها بشدة لتكتمل الصورة الذهنية المرجوة من الحوار , كحوار أحد الفلاحين المساكين إلى قاضي المحكمة : " ***يا سيدي القاضي , الخروف ذبحناه " ولا مؤاخذة " في ليلة حظ " عقبال عندك " بمناسبة طهور الولد"*** . (الرواية ص31) .

المبحث الثاني : الدلالة العرفية (الرمزية):

تعد الكلمات من جانب آخر علامات سيموطيقية عرفية تشير إلى دلالاتها إشارة رمزية متعارفة بعلم معين أو بفرع علمي معين , كمفردات الجبر والكيمياء والنحو والصرف وغيرها . ولا يعد هذا رمزًا طبيعيًا للكلمات ؛ وإنما رمزًا عرفيًا تخصيصيًا أو مصطلحًا (Term) , وهو كلمة أو مجموعة من الكلمات تخصُّ حقلًا معيَّنًا من حقول المعرفة , مثل مصطلحات علم الأصوات **(محمد الخولي ,**

معجم علم اللغة النظري 1982, ص 285 , وجبور عبد المنعم , المعجم الأدبي 1984,ص252) وعلم التاريخ والآداب والفلسفة .

ويعد الحقول الدلالية من المباحث التي لم تتبلور فيها نظرية دلالية جامعة رغم الجهود اللغوية لعلماء الألسنية والدلالة , والتي أنتجت رؤى مختلفة حول تصور الحقول الدلالية , فقد أشار (دي سوسير) في مجال حديثة عن اللسانيات الوصفية في باب العلاقات الترابطية أنَّ الدليل اللساني بإمكانه أنْ يخضع لنوعين من العلاقات :

أ - علاقات مبنية على معايير صورية , مثل كلمة " تعليم " , توحي بكلمات أخرى مشتقة منها , وتنتمي إلى نفس المجال , مثل : عَلِم - نَعْلم .

ب- علاقة مبنية على المعايير الدلالية . فكلمة (تعليم) توحي بكلمات أخرى , مثل : تربية - تعلم - تكوين .

وبذلك وضع (دي سوسير) الإطار العام الذي يمكن أن تُدرس فيه الأدلة اللُّغوية , وذلك ببحث العلاقات التي تجمعها وتصنفها ضمن حقول دلالية . **(منقور عبد الجليل , علم الدلالة أصوله ومباحثه 2001ص 75:76)**.

كما يُعد المصطلح من جانب آخر نوعًا من تخصيص الدلالة , وهو يعني أنْ تُستعمل الدلالة استعمالًا خاصًا , ويتردد هذا الاستعمال ويشيع بين جمهور الناس وتتطور دلالة اللفظ من العموم إلى الخصوص, وهو ما يعرف بتخصيص الدلالة **(دلالة الألفاظ ص154)** , وهي الحقيقة العرفية الخاصة عندالبلاغيين **(أحمد مختار عمر , علم الدلالة ,ص243:248)**

وفي الرواية محلِّ الدراسة نجدمجموعة من الحقول الدلالية استخدمها الكاتب في رسم صورة كُلِيَّة واقعية للريف المصري خلال هذه الفترة , حيث عكستْ ظلالُ هذه الصورةحال جميع التنظيمات الحكومية والإدارية للدولة في ذلك العهد ؛ لتنتج مجموعة من الصور رسمت بلون الألم مرة وبلوني النقد والسخرية مرات .

والحقول الدلالية التي شملتها الرواية هي : الملابس - بيئة الريف - القضاء - الشرطة - الصحة.

أولًا : الملابس :الصوف - ثياب - اللبدة - الرقعة النحاسية - جلباب - القميص - اللباس - الدِّفيـَّـة - السِّروال - التـَّـكة الحمراء - البُلغة (الحذاء) - شال - عِمامة - عباءة - حزام - طُرَح (للنساء) - التاج - الدبورة - الطربوش - المَلَس (زي أسود خاص بالنساء في القرية المصرية) .

ثانيًا : بيئة الريف :دغل البوص (صفّ البوص) - العود الأخضر - المزارع - نقيق الضفادع - هفيف الحشرات - الجُبن - مصايد الفيران - مصباح النفط - الجسر - داير الناحية - زراعة قصب - العُمدة - الشيخ عصفور - غيط - الجُحور - الغِيطان - العِزب - الكُفور - قطعان الماشية - البيوت - الفلاحين - الديدان- الكَنَبَة (كرسي كبير) - الكلب - الصيد - المَعَدِّية (المركب) - ترعة - ضَفة - الرَّكايب - حِمِير العُمدة - الحصان - الثعلب - المشاعل - الأهالي - البُوم - وَشْم العصفور - الذُّرة - محصول - القمح - الشعير - القَوَالِح - القطن - الحطب - التقليع - المنظرة (حجرة الضيوف) - فدان - الجحش - مصرف الماء - الخروف - الأطيان - حُرْمة - وابور غاز - القُلَّة (إناء ماء) - عُمَّال الدريسة - الندى - البرسيم - خُوار الجاموس - نبح الكلاب - نهيق الحمير - نحيب السواقي

والشواديف - مرابط البقر - الطاحونة- دوَّار العمدة (منزل) - أوضة التبن (حجرة التبن) - الأنفار - السِّلال - دودة القطن - حلاق القرية - اللَّحاد - نَوبات التـُّرع - أنفار القُرعة - البندر (الحَضَر) - الشراشر - المناجل - الفؤوس - البُلَط - النبابيت (مفرد نبُّوت وهو العصا) - الهراوات- الجراد - الضفة الأخرى - أزيار من الفخار - نبش الدجاج- الكلُّوب (مصباح من الكيروسين)- قطع الخشب - قوالب الطين - عِيدان الحطب .

ثالثًا القضاء : مساعد النيابة - جِناية - إشارة تليفونية - الشهود - الجُثَّة - الجاني - الجُرح الناري - المجني - ضبط الواقعة - النيابة - كاتب التحقيق - معاون الإدارة - سعادة البك - القضية - محل الحادث - الحِرْز - المعلومات - المعاينة - الديباجة - وكيل النيابة - رئيس النيابة - الجُنَح - المِنَصَّة - مُخالفة - قانون - غَرامة - القلم الجِنائيّ - الحبس الاحتياطي - رُول المحكمة - المحكمة الشرعية - دار النيابة - العوارض (مفرد عارضة وهي المذكرة المكتوبة) - الأحوال - الشكاوى - الحَقـَّـانية (وزارة العدل قديمًا) - حيثية الحكم - فرَّاش المحكمة - سيدي القاضي - أسئلة النيابة - الاستجواب - الضارب - النائب العمومي - أسباب الجريمة - العدل - أساس الملك- الطبيب الشرعي .

رابعًا : الشرطة :

البوكس - إشارة تليفونية - المركز - عيار ناري - العمدة - ضبط الواقعة - رجل المطافئ - المأمور - مُعاوِن الإدارة - الجنود - التحية - الواقعة - الخفير - العساكر - الباشجاويش - بوليس - نقطة البوليس - الركايب - الحصان - الخيل - اللِّجام - المصاب - مُلاحِظ النقطة - التحقيق - المَحْضَر - تحرير المَحْضَر - المُعاون - المشبوهين - الحوداث - قطار البضاعة - الشمع الأحمر - الشاهد - الحِرَاسة - الحُرَّاس - فَرْش الخيل - الاسْطبْلات - العليق - رجال الحفظ - رجال الإدارة - الرئيس - البنادق - البارود - التفتيش - بوق السيارة - البلوكامين (إحدى وظائف الشرطة) - سكرتير التحقيق - الانتخابات- المديرية - الوزارة - الأحزاب - السجن - شيخ الخفر .

خامسًا : الصحة:

المحفـَّات - عربات الحمَّالين - الكمَّاشة - المرضى - الحكيمباشي - الزائرون - المعطف - التاج - الاسبتالية الميري (المستشفى) - المستشفى الميري - الغيبوبة - الإغماء - المصاب - قاعة العمليات - الرَّدهة - الأسِـــرَّة - العجلات - المَبـَـاخِر - أدوات التعقيم - الممرضون - البُخار - الرِّداء الأبيض - الأجسام - دَلْو - دم سائل - دم متجمد - قطع اللحم - أحشاء - المشرحة - التشريح - البنج - الجلد - انشق - الطبيب - الصدر - أسفل البطن - المريضة - الدُّوَار - اصفرار الوجه - الشاحب - الميتة - العملية- الحية - رائحة البنج - الباشتمرجي - العنابر - الناقهين - الزعابيط الزرقاء - تشخيصات طبية - تطورات مرضه - الفم الجاف - العظام - أواني الألومنيوم .

استخدم الكاتب بحرية جميع المفردات التي تقع داخل كل حقل من الحقول الدلالية الخمسة التي درات حولها الرواية . فوضع قائمة من الصور لكل من هذه الحقول صبغت بألوان النقد مرة وبألوان السخرية من فوضى هذه الأماكن مرة أخرى .

ويمثِّل حقل (بيئة الريف) الحقل الارتدادي أو المحوري الذي يرجع إليه الكاتب بالوصف والسرد بعد الخروج من حقل من الحقول الأخرى .

المبحث الثالث : دلالة الصورة (الأيقونة) .

من بين دلالات المفردة (الكلمة) دلالة الصورة (الأيقونة) وهي دلالة لغوية مجازية في الاستخدام، وبحكم التطور الدلالي ضمن بيئة معينة وجيل خاص وانتقال المفردات من مجال دلالي إلى آخر ومن جيل إلى آخر **(دلالة الألفاظ ص132)** وبفعل السياق اللغوي المحيط بالمفردة . وتتعدد أنواع الصورة في مفاهيم النقد الأدبي إلى ثلاثة أنواع , هي :

أ - الصورة البلاغية الموروثة في تراثنا العربي (التشبيه و الاستعارة والمجاز والكناية) .

ب- الصور الذهنية .

ج - الصورة باعتبارها رمزًا . **(علي البطل , الصورة في الشعر العربي 1983 ، ص15).**

صور المفردات بين البلاغية والذهنية :

في المنظور الأسلوبي تعد الصورة البلاغية الوحدة اللسانية التي تشكل انزياحًا ، ويمكن تمييز ثلاثة اصناف من الانزياحات :

1- انزياح في التركيب (العلاقة بين الدلائل) .

2- انزياح في التداول (العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقي) .

3- انزياح في الدلالة (العلاقة بين الدليل والواقع) . **(هنريش بلث ، البلاغة والأسلوبية,1999 , ص66).**

ويقوم التصوير في عرف الأسلوبيين على فكرة الاختيار والتعويض على المستوى الرأسي ما بين الكلمة وقريباتها أو نظيراتها في الاستقاق أو بين مضاداتها ومرادفاتها , وتقوم بين الكلمة المستعملة رأسيًا وبين بديلاتها علاقة تعويض من خلال نمطين من التعويض أساسيين :

1 - عملية تشابه التي يعوض فيها بمعادله , كتعويض فتاة (د 2) بالخيزران (د 1) , في التثني .

2 - وتعويض المجاورة الذي يفتقد علاقة إسنادية بين شراع (د 1) وباخرة (د 2) , وللباخرة عدد كبير من الأشرعة . **(السابق ص82)** .

وتقوم على الأولى علاقات التشبيه والاستعارة ، وعلى الثانية علاقات المجاز المرسل .

وفي الرواية محل الدراسة نظفر بالعديد من الصور البلاغية التي تقوم على **المجاز** التي طعَّمها الكاتب بالصور الذهنية المناسبة فأبدعت في تصوير الواقع:

أولًا : التشبيه :

يقول عن مصايد الفئران التي أعدها حول سريره قبل أن ينام : ***" ونصبتها حول سريري كما تُـنصب الألغام الواقية حول سُفن الصليب الأحمر "*** **(الرواية ص12)** .

واستخدم الكاتب - إلى جانب التشبيه - الصورة الذهنية لسفن الصليب الأحمر وما تحمله من دلالة على الغوث وهو الشائع في هذه الفترة حيث كُتبتْ الرواية سنة 1929 م , أي أحادثها تلي الحرب

العالمية الأولى بسنوات قليلة ؛ لتلقي الصورة بظلالها على السكن الذي يعيش فيه الكاتب كأحد مفردات واقع الريف المؤلم في تلك الحقبة .

وعلى النحو السابق جاء تشبيهه لنفسه , هو يرتدي ثيابه استعدادًا لخروجه - ممثلًا للنيابة - إلى واقعة إطلاق نار على أحد شباب البلدة : **" *وقمت إلى ثيابي فارتديتها على عجل كما يصنع رجل المطافئ*" (الرواية ص 13)** .

ومن التشبيهات التي دلَّت على السخرية وصفه لأحد خفراء العمدة , فيقول : **" *ولمحت يدًا ترتفع بالتحية فوق (اللِّبدة) الطويلة ذات الرُّقعة النحاسية , وفمًا يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذَنَبُ قط* " (الرواية ص13)** .

ويصف الشيخَ عصفور وهو يتبع مأمور المركز في معاينة الحوداث , فيشبهه بالكلب : **"*ويتبعه أينما ذهب كالكلب الذي يتبع سيده إلى الى الصيد* " (الرواية ص15)** .

وعلى المنحى السابق يصف الكاتب مجموعته هو وعدد من رجال الشرطة والعمدة وخفرائه ومساعده أثناء رحلتهم للمعاينة :**"*فنزلنا جميعًا وامتلأ بنا القارب كأننا غرقى في زورق النجاة , أو أزيار من الفخار في مركب بالصعيد* " (الرواية ص16)** .

وتمضي الصور المعتمدة على التشبيه لغرض السخرية فيقول عن العمدة : **" *ولم يكد حضرة العمدة يوقع بإمضائه الذي يضاهي (نبش الدجاج) تحت أقواله* " (الرواية ص21)** .

ويقوِّي التشبيه السابق الصورة الذهنية لـــــ (نبش الدجاج) من خطوط وتعاريج لا معنى لها , دلالة على مستوى ثقافة العمدة وتعليمه .

ويستدعي الكاتب دلالة شكل البوم وما يحمله من دلالة على الشؤم في أحد التشبيهات فيقول : **"*فطار التعب من رأسي كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترب* " (الرواية ص17)** .

ويصف الكاتب أغوار النفس البشرية ممثلة في الفتاة التي أحبها في الرواية , يقول : **" *وهذه الفتاة فيما يخيل إليّ ذات نفس كدغل البوص والقصب , لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع الدنانير تتراقص في ظلام القاع كلما تمايل القصب* " (الرواية ص26)** .

استخدم الكاتب التشبيه التمثيلي حيث شبه غموض نفس الفتاه وإظلام دواخلها من قسوة الظروف المحيطة بزراعة القصب المظلمة من الداخل , والتي لا يدخلها الضوء إلا عندما تميل فتسقط أشعة الشمس مكونة ما يشبه الدنانير.

وتتداعى التشبيهات التي ترسم صورًا من السخرة مرة ومن الألم على حال هذا المجتمع , في قول: **" *ودنت سيارة المحكمة فشاهدنا الأهالي بابها مكدسين كالذِّباب* " (الرواية ص29)**.

ويصف القاضي وقد جلس بدون حراك على منصته , : **" *فهو من الصباح يجلس إلى المنصة , وكأنه قطعة منها سُمِّرتْ فيها فلا ينفصل عنها إلا قُبيل العصر* " (الرواية ص29)** .

ويقول : **"*ولكن الحوداث كالقطط إذا ناديتها رفضت المجئ وإذا طردتها جاءتْ*" (الرواية ص73)**.

وتصل صور السخرية إلى مجال الصحة فيستخدم التشبيهات الآتية : " ***والمحفَّات التي تجري على عجلات فوق الأسفلت كانها عربات الحمَّالين في المحطات الكبرى*** " (الرواية ص47) .

ويصف أداة الدكتور , : " ***وقد شمَّر زراعيه وفي يدة أداة كأنها الكماشة*** " (الرواية ص48)

ومنظر المرضى في المشفى : " ***ينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشي كما ينظر القردة في حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين*** " (الرواية ص51) .

ومنظر الفلاح المُسن : " ***وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول , فدخل كهلٌ قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبعٍ مسن*** ِ " (الرواية ص55).

فجمع الكاتب بين بلاغة التشبيهات وبين الصور الذهنية للمفردات : عربات الحمالين - المحطات الكبرى - الكماشة - حديقة الحيوانات - القردة - الحراس - ضبع .

التي توحي كلها بالازدحام والفوضى والاضطراب وسوء الإدارة .

ويضع الكاتب قلمه تحت التشبيه فيقول : " ***ولكن القلم كالجواد ينطلق أحيانًا من تلقاء نفسه كالطائر المرح , وأحيانًا يَحْرِن ويَثِب على قدميه ويأبى أنْ يتقدم كأن في طريقه أفعى رافعة الرأس*** " (الرواية ص71) .

ويضمِّن الكاتب أحد تشبيهاته آيات القرآن الكريم فيقول في وصف مقابر هذه البلدة : " ***وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكانًا قصيًا في المزارع , قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أوثلاث بضع مقابر من الطين الآجُر قد علتها شواهد طويلة سمراء كأنها رؤوس العفاريت*** " (الرواية ص85) .على نحو قوله تعالى : " ***إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ*** " (سورة الصافات الآية64) . وقد استخدم الكاتب الصور الذهنية في المفردات : الطين - السمراء - العفاريت , فلم تسلم مقابر هذه البلدة من سخرية ونقد الكاتب , مستخدمًا الصور الذهنية للعفاريت , واللون الأسمر , والطين ؛ للدلالة على شقاء وامتهان أهل هذه البلدة حتى في صورة مقابرهم !

ثانيًا : الاستعارة :

كما استخدم الكاتب التشبيه ليرسم لوحات من النقد والسخرية , استخدم الاستعارة ليرسم لوحات استعارية , منها لوحة استعارة تصويرية قامت على التصوير ومنها لوحات استعارة مفردة .

فمن الأول وصفه لمنظر الجثث وهي تلقى من المستشفى بعد شوط من الإهمال والغرق في الفوضى وقد انتظرها الأهل من النساء بالعويل , فيقول : " ***فإنهم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ؛ ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو النَّاب الأزرق في لون النيلة , والمخلب المعفَّر بالطين والتراب*** " (الرواية ص 47) .

ومع قوة الاستعارة في التمثيل السابق استخدم الكاتب الصور الذهنية للمفردات : الحزن - ذو الناب - الأزرق - لون النيلة - المخلب - الطين - التراب . كلها مفردات تدل في ذهن القارئ على الفجيعة والحزن .

ومن الثاني - الاستعارة المفردة - قول الكاتب : **" *ورأيت العسكري المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساءالمجتمعات في ثيابهن السود وطرحهن الزرق وأصواتهن التي يقطعها عويل القلق ؛ فعلمت أنه سيلقى إليهن بجثة بعد قليل* " (الرواية ص47)** .

وقوله : **" *هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه من هذه البقاع* " (الرواية ص51)**.

ويقول وهو يصف جماعة من الفلاحينالمتهمين في سرقة , وقد قيدوا بحبال الليف : **"*فما تمالكت أن صحت لمنظرهم : الله أكبر ! مواشي طالعة سوق السبت ؟! حل الحبال ياعسكري* !" (الرواية ص56)**

الخاتمة ونتائج الدراسة:

سعيًا وراء دراسة لغوية وأسلوبية لأدب توفيق الحكيم في والكلمة ودلالتها المعجمية والبلاغية في سياقها الثقافي , دار هذا البحثفي النقاط الآتية :

أولًا: المفردات علامات وصور في دلالتها المعجمية :

حيث أعطت حرية اختيار الكلمات للكاتب - في روايته - فرصةلتوليف مفردات معجمية رسمت صورة ذهنية للعالم المحيط بالكاتب في بيئة الريف في مصر في هذه المنطقة وهذه الفترة من تاريخ مصر؛ حملت هذه الصور طبيعة الواقع بقساوته واستقاماته وانحرافاته , وتنظيماته الإدارية والحكومية بكل ما فيها من مساوئ في ذلك الوقت من تاريخ مصر .

ثانيًا: الحقول الدلالية في الرواية :

عرضت الرواية مجموعة من الحقول الدلاليةتمثَّلت في : الملابس - بيئة الريف - قطاع الشرطة - قطاع القضاء - قطاع الصحة ؛ أعطت صورًا رمزية للمفردات الخاصة بهذه القطاعات , بحيث يكاد الكاتب لم يترك مفردة تقع تحت طائلة كل حقل من هذه الحقول إلَّا وذكرها في روايته , ويرجع ذلك إلى ملكة الوصف التي ميَّزت الكاتب منذ الوهلة الأولى . وربما كان داعي النقد والسخرية من كل شيء في بيئة الرواية وراء عرض كل هذه المفردات , وحصرها بهذه الصورة الدقيقة .

ثالثًا: الصورة البلاغية :

رسم الكاتب بقلمه مجموعة من الصور البديعة قامت على المجاز تمثلت في التشبيه والاستعارة ؛ صُبغتْ هذه الصور بالسخرية مرة وبالنقد مرات , وبالألم على حال هذه الفئة من البشر في بعض الأحيان .

رابعًا: لوحظ في الرواية محلِّ الدراسة أنَّ الاستخدام الأدبي للغة قد يخرجها في كثير من الأحيان من إطارها التقعيدي إلى اللغة الدارجة أو الواقعية ؛ فيما سُمي بتفوق الأداء على المقدرة اللغوية . حيث كان يميل الكاتب إلى عرض الحوار بعينه الذي سمعه من أفراد مجتمع الرواية , فيشتمل الحوار على بعض الصيغ العامية .

خامسًا: أدب توفيق الحكيم على درجة عالية من الجودة الأسلوبية , وفيه سمات عديدة على مستويات: الإيقاع، والمفردات، والتركيب، والنص، والسياق الخارجي، خاصة أنه يمتاز بمفردات بلاغية غاية في الروعة .

توصيات البحث:

1- أدب مصر الحديثة قبل ثورة يوليو على درجة عالية من الجودة الأسلوبية , وتحتاج إلى مزيد من الدراسات المنهجية الحداثية على اعتباره أدبًا قوميًا .

2- المنهج الأسلوبي من المناهج القادرة على إبراز الجوانب اللغوية والأسلوبية .

موارد الدراسة:

1- إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ , القاهرة , مكتبة الأنجلو المصرية , 1976 م .

2- أحمد مختار عمر : علم الدلالة , الكويت , مكتبة دار العروبة , ط 1 , 1982 م .

3 - توفيق الحكيم : رواية " يوميات نائب في الأرياف " , القاهرة , مكتبة مصر , د . ت .

4- جبور عبد النور : المعجم الأدبي , بيروت , دار العلم للملايين , 1984 م .

5 - حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية , الإسكندرية , دار المعرفة الجامعية , 1993م.

6 - رولان بارت : مبادئ في علم الدلالة , تعريب : محمد البكري , اللاذقية , دار الحور للنشر , 1987 م .

7 - سيزا قاسم وآخر : أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة , القاهرة , دار إلياس , 1986 م .

8 - شكري محمد عياد : اللغة والإبداع , القاهرة , ط 1 , 1988 , د . ن .

9- علي البطل : الصورة في الشعر العربي , بيروت , دار الأندلس , 1983 م .

10 - محمد عبد الله جبر : الأسلوب والنحو , الإسكندرية , دار الدعوة , ط 1 , 1988 م .

11 - محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري , بيروت , مكتبة لبنان , 1982 م .

12- منقور عبد الجليل : علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي , دمشق , منشورات اتحاد الكتاب العرب , 2001 م .

13 - هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية , ترجمة : محمد العمري , بيروت , إفريقيا الشرق 1999 م .

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الهجمات الصليبية على المغرب الإسلامي واستدعائها لتأسيس أيالات المغرب العثمانية 1492 – 1574م

أ. ناصر الهادي الحضيري.

(محاضر مساعد – كلية الآداب – صبراتة - جامعة الزاوية - ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الهجمات الصليبية على المغرب الإسلامي واستدعائها لتأسيس أيالات المغرب العثمانية 1492 – 1574م .

Entrance:

It testified the tenth century H - the sixth century AD, a major shift in the international forces in the Mediterranean basin structure, formed in the spacious expanse of the world's balance of power from new, renewed conflict is most intense between East and West pigmented religion. After the conquest of Constantinople (1453) continued the Ottoman Islamic campaigns in eastern Europe and the eastern Mediterranean, and after the fall of Granada (1492) continued the Spanish Christian campaigns on the coast of Morocco the Islamic countries and the basin of the western Mediterranean Sea, was the issue of "Moors" They are the remains of Muslims in Alondls- after fueling conflict after the end of Muslim rule in Andalusia, where they were forced as a result of abuse and torture practiced by their so-called courts of Spanish inspection to evacuate their home countries to be the last evacuation of the decision of the final expulsion in 1609, and has resulted in the migration of some new results on the Moroccan society, including maritime fueling the conflict between the Islamic and Christian forces, has pushed Spain behind those fleeing to the coasts of the Islamic Maghreb was to be Moroccans to repel the movement of this confront movement a "maritime Jihad movement". And successively the events of this conflict after the emergence of the Ottoman Empire on the scene in the western Mediterranean, and Leave them Moroccan defensive attacks, which resulted in the presence of Ottoman rule in the western Mediterranean established a Moroccan Alayalat (states). In this paper we will try to historical study following this conflict, and the role of the Islamic Maghreb countries and then the Ottoman Empire in it, and finally the political changes that resulted from the conflict in the region, can also be through this study, exposure to the features of the political, economic and social life in the Moroccan Alayalat and political ties and economic contemporaneous with countries and entities. Based on the above, this study aims to visualize stage of the conflict between what is known as the Islamic and Crusader West Morocco. And stand on political factors, economic and religious dynamics of this conflict.

كلمات مفتاحيه: الهجمات الصليبية – الاسبانية – الدولة العثمانية – المغرب الإسلامي– الايالات المغربية – الجزائر– تونس– طرابلس الغرب .

مقدمة:

شهد القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي ، تحولاً كبيراً في بنية القوى الدولية في حوض البحر المتوسط ، وتشكلت في هذه الرقعة الفسيحة من العالم موازين القوى من جديد ، وتجدد الصراع على أشده بين الشرق والغرب مصطبغاً بالدين. فبعد فتح القسطنطينية (1453) تابع العثمانيون حملاتهم الإسلامية في شرق أوروبا وشرق البحر المتوسط ، وبعد سقوط غرناطة (1492) تابع الأسبان حملاتهم المسيحية على سواحل بلدان المغرب الإسلامي وحوض البحر المتوسط الغربي ، وكان لقضية "الموريسكيين" وهم بقايا المسلمين في الأندلس- إثر تأجيج الصراع بعد انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس ، حيث اضطر هؤلاء من جرّاء التنكيل والتعذيب الذي مارسته عليهم ما يسمى بمحاكم التفتيش الأسبانية إلى الجلاء عن أوطانهم إلى أن كان الجلاء الأخير بقرار طردهم النهائي في عام 1609، ولقد ترتب على هجرتهم بعض النتائج الجديدة على المجتمع المغربي، ومنها تأجيج الصراع البحري بين القوى الإسلامية والمسيحية، فقد اندفعت أسبانيا وراء هؤلاء الفارين إلى سواحل المغرب الإسلامي فكان لابد للمغاربة من صد هذه الحركة بحركة مجابهة وهي "حركة الجهاد البحري".

وتلاحقت أحداث هذا الصراع بعد ظهور الإمبراطورية العثمانية على مسرح الأحداث في غرب البحر المتوسط، ودعمها للهجمات المغربية الدفاعية،والتي أسفرت عن تواجد الحكم العثماني في غرب المتوسط بتأسيس الايالات المغربية.

وفي هذه الدراسة سنحاول عبر المنهج التاريخي تتبع هذا الصراع ، و الوقوف على دور بلدان المغرب الإسلامي ثم الدولة العثمانية فيه , و أخيرا التغيرات السياسية التي ترتبت على ذلك الصراع في المنطقة , كما يمكن من خلال هذه الدراسة التعرض إلى ملامح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإيالات المغربية وإلى علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الدول والكيانات المعاصرة لها.

وبناء على ما سبق فان هذه الدراسة تهدف إلى تصور مرحلة من مراحل الصراع بين ما يعرف بالمغرب الإسلامي والغرب الصليبي. والوقوف على العوامل السياسية و الاقتصادية و الدينية المحركة لهذا الصراع .

مدخل:

من وجهة نظر أوروبية، استمرت من ظهور الإسلام وفتوحاته إلى ما بعد العصور الوسطى، كان المسلمون يشكلون تهديداً للعالم المسيحي الغربي.[1] وقد أدت هذه النظرة والدعاية لها إلى أن لاقت فكرة الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي رواجاً في أوساط شعوب أوروبا، فلقد كانت هذه الحروب الوسيلة التي من خلالها عبر الغرب الأوروبي عن حماسته الدينية، ونقمته على الإسلام والمسلمين، وعن رغبته في التوسع والاستعمار والاستغلال، وعن ثورته على الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت الغرب الأوروبي في تلك الفترة.[2]

ولقد استمرت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، إلى أن توقف المد الصليبي عن الصليبيين بعد فشل حملة "لويس التاسع" على تونس (668هـ / 1270م)، واستعادة المماليك "لعكا" آخر المعاقل الصليبية في المشرق سنة (690هـ / 1291م).

وبانتهاء القرن الثالث عشر الميلادي أُسدل الستار على الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي ؛[3] أما في الأندلس، فقد تمكنت الممالك المسيحية في الشمال من قصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي منه، وأخذت حركة الاسترداد الإسبانية Reconquista، انطلاقاً من القرن الحادي عشر، تحقق تقدمها العسكري في الأندلس على حساب الوجود الإسلامي، الذي استمر في تقدمه الحضاري ضمن هذا الصراع .[4]

وتجدر الإشارة إلى التدخل الكنسي في توجيه الأحداث الحربية في الأندلس، فعندما كانت الكنيسة تقوم بتأجيج الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي في هذه الفترة، رفضت طلب بعض أمراء أسبانيا للاشتراك في تلك الحملات الصليبية، مؤكدة لهم أن عملهم الحربي ضد المسلمين في الأندلس يشكل دعم وتأكيد كبير لمشاريع الكنيسة في المشرق، وذلك من حيث أن محاربة المسلمين في الأندلس تعوق دون تقديم المسلمين لأي معونة لإخوانهم في المشرق.[5]

ولقد كان البابا (أنوسنت الثالث 1188 – 1216م) هو صاحب فكرة إثارة الحماسة الدينية وتشجيع المتطوعين من البلاد الأوروبية على المشاركة في الحروب ضد مسلمي الأندلس والمغرب، واجتمع عدد كبير من فرسان أوروبا للمشاركة في هذه الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة "تاربون" وتضافر مع ملوك "آراجون، ونافار، وقشتالة"، فأنزلوا الهزيمة بالنجدة المغربية الإسلامية في

---

(1) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة: محمد زهير و آخرون , ج1,ط2 ,سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ضمن مجلة عالم المعرفة (الكويت, 1988) ص27.

(2) محمد محمد أمين، شمال أفريقيا و الحركة الصليبية 1189-1390، مجلة الدراسات الإفريقية, العدد1,(القاهرة, 1974) ص150.

(3) عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون و المواركة، مطابع International press , (القاهرة 1983) ص66.

(4) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس – دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي , مطبعة التأليف للنشر و الترجمة (القاهرة1970) ص332.

(5) عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967) ص600، 601.

موقعة العقاب سنة (1212م).[1] تلك الهزيمة التي كانت بداية الانهيار الإسلامية في الأندلس، إذ أخذت بعد ذلك الممالك الإسلامية في الأندلس، تتساقط الواحدة تلو الأخرى، في أيدي الأسبان حتى سنة 1492م ثم بدأ دور الهجوم الأسباني المسيحي على الشمال الأفريقي.[2]

وبسقوط غرناطة سنة 1492م، استؤنفت الغزوات الصليبية على بلدان المغرب، وبدأت تتشكل الخطوط الأولى لشكل جديد من الصراع بين الشرق والغرب، تزامن مع نتائج حركة الكشوف الجغرافية، وتحول إلى صراع بحري امتد من حوض البحر المتوسط إلى الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.[3]

لقد كانت عملية سقوط غرناطة – على إثر توحد مملكتي "آراجون وقشتالة"، بزواج فرديناند الخامس Ferdinand V ملك آراجون، وإيزابيلا Isabella ملكة قشتالة عام 1469 – نهاية لمرحلة في تاريخ شبه جزيرة إيبيريا، وبداية مرحلة أخرى بين أسبانيا المسيحية ودول المغرب الاسلامي ، فلقد فتحت هذه الوحدة باب الحرب على مسلمي الأندلس، وامتدت عقداً كاملاً من الزمن فيما بين سنتي 1481 و 1491م، وبدأت باحتلال المدن الرئيسية في مملكة غرناطة، وضرب الحصار على السواحل باستخدام أساطيل البرتغال وآراجون وإيطاليا، لمنع وصول الإمدادات من المغرب الإسلامي إلى أن انحصرت الحرب في نهاية العقد في المنطقة المحيطة بمدينة غرناطة التي ضيق الخناق عليها، فاستسلمت في الثاني من نوفمبر 1492م.[4]

وقابل الوحدة الأسبانية حالة من التفكك والضعف في بلاد المغرب، أدت إلى تشجيع إسبانيا لحركتها في استرداد الأراضي من المسلمين في الأندلس، وبعد ذلك إلى خرق لمعاهدة تسليم غرناطة، والتي تضمنت شروطها احترام عقيدة المسلمين وتقاليدهم وملكيتهم،[5] وكذلك تشجيعها للاستيلاء على بلدان المغرب ونهبه، وتأكيد إضعاف قوته وعدم تمكين مسلمي المغرب من نصرة أخوانهم اللاجئين إليهم من بلاد الأندلس، بعد خرق معاهدة التسليم والاضطهاد والممارسات الغير إنسانية التي تعرضوا لها في الأندلس.

ولقد تركت هذه الممارسات آثارها السيئة في نفوس المهاجرين، الذين تحول بعضهم وحولوا معهم جمع من سكان سواحل بلدان المغرب إلى غزاة في البحر في محاولة لاسترداد بعض حقوقهم التي سلبت منهم، واضطروا لتركها في ديارهم الأندلسية تحت وطأة المطاردة ومحاكم التفتيش، وكذلك لصد السفن المسيحية والأسبانية التي تعترض سفن المسلمين الفارين بما خف حمله وارتفع ثمنه.[6]

---

[1] عادل سعيد بشتاوي، المرجع السابق، ص65.

[2] زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1981) ص174، 175.

(3) عمار جحيدر، "الجهاد البحري في العصر الحديث – ملاحظات ومصادر"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الخامس (طرابلس، 1988) ص413.

[4] عادل بشتاوي، المرجع السابق، ص100، 101.

[5] محمد الهادي أبوعجيلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية – 1711 – 1835م، وأثره على علاقتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1997م) ص34.

[6] جلال يحيى، المغرب العربي – الحديث والمعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الإسكندرية، 1983) ص99.

وفي الوقت نفسه اشتملت الخطط الأسبانية والبرتغاليين على الهجوم على أقاليم المغرب الإسلامي واحتلال موانئه، وتحويل سكانه إلى المسيحية إن أمكن ذلك، ولقد كان البرتغاليون قد سبقوا الأسبانيين في عملية التوسع والاستيلاء في شمال أفريقيا، فلقد استولى البرتغاليون على مدينة سبته وطنجة سنة 1437م، ثم أزمور وأصيلة، واتخذوا من موانئ هذه المدن بعد السيطرة عليها قواعد لانطلاق سفنهم الحربية والاستكشافية.[3]

ولتفادي صدام محتمل بين أسبانيا والبرتغال – دعا البابا إلى عقد اتفاقية بينهما في 7 يونيو 1494م – معاهدة توردسيلاس Tordesillas – اقتسمت فيها الدولتين مناطق نشاطهما التوسعي فكان لإسبانيا شمال أفريقيا والمناطق الواقعة شرق "حجر باديس"، وللبرتغال المناطق الواقعة في شمال غرب أفريقيا.[4]

وبدأ الأسبانيون غاراتهم على السواحل المغربية، فاستولوا على عدة مدن ومراكز مهمة ابتداءً بالمرسى الكبير عام 1505م، ووهران عام 1509م، ثم "بجاية وعنابة وطرابلس" في عام 1510م.[5]

ومن طرابلس اتجه الأسطول الأسباني بقيادة "بيدرونفارو" PEDRO NAVARRO – نحو جربة ، وبو صوله إليها واجه أسطول "نفارو" هزيمته بعد انتصاراته فيما سبق، وعاد ما تبقى من الأسطول إلى مركزه في طرابلس بعد أن ترك ثلاثة آلاف من القتلى في جزيرة جربة.[1]

وبالمحصلة تمكن الأسبانيون خلال ستة أعوام فيما بين سنتي 1505 و 1511م، من احتلال معظم الساحل الشمالي للمغرب الإسلامي، تاركين الساحل الغربي منه، على المحيط الأطلسي للبرتغاليين يعيثون فيما تمكنوا من احتلاله من بلدانه.[2]

ولقد حاولت بعض القيادات المغربية التصدي للهجمات الأوروبية، ولكنها فشلت في ذلك لضعف إمكانياتهم العسكرية والاقتصادية، وافتقادهم للوحدة السياسية، وعدم السيطرة والاهتمام بالأوضاع الداخلية، وبالتالي عدم إمكانية مواجهة العدو الخارجي، ومثال ذلك "بنو زيان" في إقليم "تلمسان" الذين حاولوا التصدي للاحتلال الأسباني في وهران عام 1509م.[3] إلا أن الأمر انتهى بهم إلى عقد صلح مع الأسبانيين سنة 1512، اعترفوا فيه بالاحتلال الأسباني لعدة موانئ في غرب الجزائر.[4] فأدى هذا الاعتراف إلى الحد من الخطر الخارجي بالنسبة "لأمراء بنو زيان"، ولكنه أظهرهم بمظهر المتخاذلين في ظروف حرب دينية معلنة مع الأسبان وتزايد نزوح المسلمين

---

[3] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص34، 35.
[4] أندروهيس، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، منشورات ذات السلاسل (الكويت، 1986) ص56؛ كذلك محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص35.
[5] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص96، 101، 119، 141، 144.
[1] أحمد توفيق المدني، المرجع نفسه، ص144، 145.
[2] المرجع نفسه، ص142.
[3] جلال يحيى، المرجع السابق، ص91.
[4] صلاح العقاد، المغرب العربي – دراسات في تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة، المرجع السابق، ص17.

المضـــطهدين من الأندلس، وبالتالي أدى هذا إلى انفصـــال القيادة عن قاعدتها، ومهد كذلك لاتجاه الرأي العام للبحث عن قيادة أو قيادات بديلة.[5]

وفي هذه الظروف ظهرت على ساحة الصراع في غرب البحر المتوسط قوة جديدة، غيرت مجرى الأحداث تمثلت في الأخوين (عروج وخير الدين بربروسـا) واللذان مارسـا نشـاطاً بحرياً مضاداً للنشاط الأوروبي في غرب البحر المتوسط.

اتخذ الأخوان بربروســا جزيرة جربة قاعدة لانطلاق عمليات أســطولهما، بمقابل خمس الغنائم للسلطان الحفصي، وبعد أن استقر الأخوين "عروج وخير الدين" في جربة، قاما بعدة حملات بحرية على السواحل الأسبانية نقلاً خلالها عدد كبير من الأندلسيين المضطهدين إلى سواحل شمال أفريقيا، ومنذ ذلك الحين ذاع صيتهما في أوروبا والمغرب الإسلامي.

وبمساعدة الحفصيين تمكن "عروج" من استعادة "بجاية" من السيطرة الأسبانية، وبعد ذلك قام بنقل قاعدة عملياته من جربة إلى ميناء "جيجل" شرقي مدينة الجزائر.[6]

وفي تلك الآونة انتهز أهالي مدينة الجزائر موت الملك "فرديناد الخامس" عام 1516م، فاستنجدوا "بعروج وخير الدين"، لتخليصهم من الأسبان المحتلين ومن الضريبة التي كانوا يدفعونها لهم، فاستجـــاب الأخوين لاستنجـــاد أهالي الجزائر، وبعد محاولاتهم من طريق البر والبحر تمكنوا من طرد وهزيمة الأســبان والســيطرة على مدينة الجزائر بعد خلع حاكمها الموالي للأســبان ســنة 1516.[1]

ومن الجزائر امتد نفوذ الأخوان بربروسا حتى حدود المغرب الأقصى، ففي سنة 1517م، استولى عروج على تلمسان ومديا وملیانه، إلا أن تعاون بنو زيان مع الأسبان للقضاء على عروج، أدى إلى القبض عليه من قبل الأسبان، فأعدموه في سنة 1518.[2]

وبعد وفاة عروج آلت قيادة المقاومة إلى أخوه خير الدين، الذي اســتمر في مقاومة الوجود الأســبـاني في بلـدان المغرب، إلى أن تحرج موقفـه في مجـابهـة القوى الأوروبيـة، فـاتصـــل بالإمبراطوريــة العثمانيــة وطلب مساعدتها في حركته، فأمده "السلطــان سليم الأول" بألفي جندي ودعم تـصديه للهجمات الأوروبية ومنحه لقب "بيكلربك" وقيادة الأسطول العثماني في غرب البحر المتوسط.[3]

- التدخل العثماني وتأسيس الإيالات المغربية 1518 – 1574م:

---

[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص91.

[6] بسام العسلي، خيرالدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1475) دار النفائس (بيروت، 1980) ص91.

[1] أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره – 1800 – 1830، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الإسكندرية، 1998) ص10.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص37.

[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنـــة 1911، ترجمـــة وتقديم: خليفـــة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب (طرابلس – تونس، 1991) ص188.

في أوائل القرن السادس عشر، مكن التنسيق بين "خير الدين بربا روسا" والإمبراطورية العثمانية، من مدّ الأخيرة لسيطرتها على معظم سواحل البحر المتوسط، وذلك بعد ضمها لبلاد اليونان، ثم الشام سنة 1516م، ومصر سنة 1517م، وأخيراً الجزائر في سنة 1518م، كأول تواجد رسمي لها في الحوض الغربي للبحر المتوسط على ساحل شمال أفريقيا.

وبمؤازرة الإمبراطورية العثمانية تمكن "خير الدين بربا روسا" من التصدي لهجمات الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) على بلدان المغرب الإسلامي.

لقد استمرت الصبغة الدينية التي أعطاها الصليبيون للصراع، بداية من الحروب الصليبية والحركة الخاصة بإبعاد المسلمين عن الأندلس في القرن الحادي عشر. وكان ذلك سبباً "رئيسياً" في تبلور المعركة في شكل صراع ديني بين المسيحية والإسلام.[1] استمر إلى ما بعد سقوط القسطنطينية وغرناطة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مع الأخذ بالاعتبار نسبية العامل الاقتصادي في معظم الصراعات عبر التاريخ.

فبعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، واصل العثمانيون تقدمهم في أوروبا حتى أسوار فيينا سنة 1529م، ونظر الأوروبيون إلى الانتصارات العثمانية على أنها فتوحات إسلامية، ووقر في أذهانهم أن أي نصر عسكري يحققه العثمانيون، إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية "فباسم الإسلام فتح السلطان "محمد الثاني" عاصمة الدولة البيزنطية، واتخذها عاصمة لدولته، واستبدل اسمها بإستانبول ومعناه "دار الإسلام" وتداعت إلى أفئدة الأجيال الأوروبية المتعاقبة ذكريات الفتوحات الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام".[2]

وأمام هذا الزحف العثماني لم يكن من دول أوروبا من تهيأت لها الظروف المناسبة لمواجهته إلا أسبانيا التي توحدت عام 1481م، وتمكنت من كسر الحصار الإسلامي حول أوروبا والذي استمر حتى سقوط غرناطة سنة 1492.[3] وأكدت الملكة إيزابيلا Isabelle، في وصيتها على مواصلة غزو شمال أفريقيا وعدم الانقطاع عن محاربة المسلمين أعداء الدين.[4]

وكان الكاردينال "خيمنيس Ximenes" أسقف طليطلة ورئيس وزراء فرديناند الكاثوليكي قد جعل من نفسه داعية وملهماً للحملات التي اتخذت لون الحركة الصليبية على المغرب الإسلامي، وباشر بنفسه احتلال المرسى الكبير ووهران سنة 1505م،[5] وبعد احتلال الأسبان لطرابلس سنة 1510م، هلل الصليبيون في أوروبا، ونظم بروما موكب ديني، وتبودلت التهاني بين دوق البندقية وملك أسبانيا، ونائب الملك بصقلية، والمرشد الأكبر في رودس، الذي حث الملك على مواصلة حملاته على أفريقيا حتى مصر على أمل أن يتمكن من ضم قواته إليه "لخدمة الله في هذه المهمة السامية

---

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص97، 98.
[2] عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية...، ج1، المرجع السابق، ص14، 15.
[3] محمد شاكر مشعل، الشمال الأفريقي والعثمانيون – ليبيا، العصر العثماني الأول 1551 – 1711، دار النهضة العربية (القاهرة، 1985) ص6.
[4] عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10 (تونس، 1978) ص8.
[5] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص24.

"Yserviz a Dios en tan meritoria impressa".[1] وكان الأسبانيون يتباهون باحتلال طرابلس الغرب، باعتباره حدثاً سعيداً وانتصاراً لجميع المسيحيين.[2]

لقد أدّى الزحف الأسباني على بلدان المغرب الإسلامي إلى رد فعل مضاد، تمثل في ظهور حركة "جهاد بحري إسلامي" في الحوض الغربي للبحر المتوسط، اتحدت قيادتها فيما بعد بالإمبراطورية العثمانية، وابتدأ التواجد العثماني الرسمي في هذه المنطقة بضم الجزائر، كإيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية سنة 1518.[3]

ولقد شكل امتداد نفوذ الإمبراطورية العثمانية إلى شمال أفريقيا خطراً محدقاً بمخطط أسبانيا التوسعي فيها، وحداً لمشروعها الصليبي ضد الإسلام والمسلمين، فقد تمكن خير الدين بمساعدة الإمبراطورية العثمانية من التصدي للهجمات الأسبانية على بلدان المغرب، كما تمكن من خلال غاراته على السواحل الأسبانية من إنقاذ نحو 70.000[4] من المسلمين الأندلسيين الفارين من محاكم التفتيش في أسبانيا، والحد من نفوذ الأسطول الأسباني والأساطيل المسيحية في غرب البحر المتوسط، كما أخذ في توسيع نطاق سيطرته وتخليص الثغور المغربية الوسطى من الاحتلال الأسباني إلى أن تمكن ضمن نضاله ضد الوجود الأسباني من القضاء على حصن "البينون" في سنة 1529م، هذا الإنجاز الذي يعده بعض المؤرخين بداية تأسيس ما عرف بإيالة الجزائر.[5]

كانت أسبانيا هي أكثر الدول الأوروبية تأثراً بانتصارات خير الدين، وقد دخلت في ذلك الوقت ضمن الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) الكبيرة، والتي شملت ألمانيا وأجزاء من إيطاليا وأوروبا الشرقية، وأصبح شارل الخامس "المدافع عن كل أوروبا المسيحية ضد الزحف العثماني.[6]

وفي سنة 1534م، تمكن خير الدين من استرداد تونس، وأعلن تبعيتها للباب العالي العثماني، ولكن انتصارات خير الدين المتلاحقة جعلت الإمبراطور "شارل الخامس" يتحرك للحد منها، إيماناً منه بأن العثمانيين يشكلون تهديداً مباشراً لأمن الدول المسيحية، فبدأ بالإعداد لحملة صليبية للإطاحة بخير الدين، والقضاء على نشاطه في المنطقة، وبعد أن استكملت الاستعدادات للحملة في مختلف الترسانات الأوروبية، غادر أسطول الإمبراطور الخاص من ميناء برشلونة في 31 مايو سنة 1535م، وانضمت إليه الأساطيل التي أمدته بها الفلاندر البلجيكية، والبرتغال، وجنوه، وبوصوله إلى ميناء سردينيا، انضمت إليه قوات بحرية من إيطاليا ومالطا، وبهذا بلغ مجموع الأسطول الصليبي أربعمائة سفينة، وبلغ مجموع القوات المشاركة في الحملة حوالي 26.000 مجند،[1] وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على حلق الوادي في 14 يوليو 1535م، ثم على مدينة تونس بعد ستة

---

[1] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص176.
[2] عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية ...، ص9.
[3] صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية (القاهرة، 1963) ص39.
[4] عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541"، المجلة التاريخية المغربية، العدد3، (تونس، 1975) ص39.
[5] لقد أقام الأسبان هذا الحصن على أنقاض منار إسلامي قديم مقابل ميناء الجزائر، للإشراف والسيطرة على الميناء ومدينة الجزائر؛ وكلمة "بينون Penon" تطلق على الجزر الساحلية أو الرؤوس الداخلة في البحر، والتي اعتاد الأسبان بناء الحصون عليها في سواحل وجزر شمال أفريقيا، فمثلاً يسمون حجر باديس بـــ Penon de vales. انظر أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص127؛ صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة...، ص17.
[6] بسام العسلي، المرجع السابق، ص49.
[1] البارون ألفونس روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1992) ص88.

أيام.[2] ولقد أعاد الإمبراطور "شارل الخامس" الأمير الحفصي – "حسن" إلى عرش تونس، وفرض عليه وعلى خلفائه من بعده معاهدة باسم كل المسيحية نصت على: السماح للمسيحيين بالقدوم والعيش في مملكة تونس، والتأكيد على وفائهم لعقيدتهم المسيحية!، وعدم إزعاجهم وتأسيس الكنائس والعناية بها وترميمها، بالإضافة إلى ذلك عدم قبول اللاجئين الأندلسيين،[3] وأن تتعهد تونس بعدم مواصلة الجهاد البحري، وبالكف عن تزويد الغزاة البحريين بالمؤن والسلاح، وعدم استقبالهم بثغور المملكة، والتنازل عن "حلق الوادي" لأسبانيا، ودفع إتاوة سنوية تقدر باثنى عشر ألف ريال ذهبي لتغطية نفقات الحامية الأسبانية المتمركزة فيها، والتنازل للأسبانيين عن حق صيد المرجان في سواحل تونس ، وأخيراً الاعتراف بالسيادة المطلقة للإمبراطورية (المقدسة) على تونس، "وهي السيادة التي يجب أن تعبر عنها تونس بإهداء الإمبراطور اثنى عشر جواداً، واثنى عشر صقراً".[4]

وعلى كل حال، فإن هذه المعاهدة الجائرة، و هذا الانتصار الذي أدى إلى زيادة حماس الصليبيين، لم تُحسم بهما المعركة، وذلك كلما استمر عدم قبول الاحتلال، ولقد اعترف "شارل الخامس" بأنه ليس له ثقة كبيرة في المستقبل لأن الأمير الحفصي الذي أعاده إلى السلطة في تونس، كان مكروهاً من قبل رعيته، وإن احتقاره قد زاد بعد المجزرة الرهيبة التي حدثت عند عودته، ولم يكن في وسعه – أي شارل الخامس – فرض حاكم غير محبوب من قبل رعيته إلا بدعمه بقوات ضخمة، ومع ذلك فإن الإمبراطور قد اكتفى بوضع بعض القوات في قلعة حلق الوادي، وترك للحسن مهمة الدفاع عن نفسه.[5]

وفي الوقت الذي تابعت فيه منظمة محاكم التفتيش لإجراءاتها الإجرامية ضد المسلمين في أسبانيا، واستمر العدوان على سواحل المغرب الإسلامي، استمر خير الدين في جهاده المقاوم للتوسع الأسباني حتى وفاته سنة 1546م.

وبعد وفاة خير الدين استمرت الجزائر هي القاعدة الأولى لقوات الجهاد البحري في منطقة المغرب، والقاعدة الأولى للأسطول العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ومنها تواصل الجهاد ضد القوى المسيحية، وكان الأسطول الإسلامي، قد وصل إلى درجة كبيرة من القوة جعلته مرهوب الجانب في البحر المتوسط، واشتهرت أسماء العديد من قادته، من أمثال: درغوث ريّس، وسنان باشا، وصالح ريّس، وبيالي باشا، وكان في طليعتهم من حيث الشهرة في منطقة المغرب الإسلامي درغوث ريّس والذي خلف خير الدين في قيادة الأسطول والعمليات العسكرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.[1] وأصبح وجود درغوث حدثاً عظيماً ومرعباً للكثير من القوى الأوروبية في منطقة البحر المتوسط، فلقد كان له سجلاً حافلاً بالنجاحات البحرية والبرية، تحت قيادة سلفه خير الدين، حتى لقبه بعض أتباعه "بسيف الإسلام".[2]

---

[2] جلال يحيى، المرجع السابق، ص126؛ حلق الوادي: تسمية لمرفأ في خليج تونس يصل مدينة تونس بالبحر المتوسط. انظر صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة...، ص51.

[3] عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني...، ص11.

[4] البارون ألفونس روسو، المصدر السابق، ص90، 91.

[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص126؛ عن الأمير الحسن واستنجاده بشارل الخامس، ومجزرة "يوم الأربعاء"، انظر، أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص14 – 17؛ كذلك حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته...، ص283.

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص189.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص65.

ولقد تمكن هذا القائد في فترة قصـــيرة من قيادته لحركة الجهاد في الحوض الغربي للبحر المتوسط، من تحرير العديد من المراكز المحتلة على السواحل المغربية، فانتزع سوسة والمنستير وصفاقس من السيطرة الإسبانية،[3] بالإضافة لتصديه للسفن الأوروبية التي تشكل خطراً على سفن المسلمين في البحر المتوسط.[4]

وللحد من نشاط "درغوث ريّس" ضد التواجد المسيحي في غرب المتوسط، تتابعت أساطيل الإمبراطورية (المقدسة) على سواحل المغرب الإسلامي للقضاء على حركته، ففي أواخر سنة 1549، انطلقت حملة بقيادة أندريا دوريا إلى جزيرة جربة – التي اتخذها قاعدة تنطلق منها عملياته – اضطرته إلى الجلاء عنها بعد حصاره فيها استمر إلى فبراير 1550، فتوجه إلى المهدية واستولى عليها، وعلى إثر استيلاء درغوث على المهدية – بمساعدة مراد آغا – الذي أرسل إليه من تاجوراء "مئة من الرماة" توجهت إليها حملة بقيادة نائب الملك بصقلية "جيوفاني دي فيجا Giovanni de Vega" وبمساندة منظمة فرسان مالطا، وتمكنت الحملة في غياب درغوث من احتلال المهدية في سبتمبر 1550م.[5]

واستمر سجال درغوث مع القوى المسيحية، وبعودته إلى مركزه في جزيرة جربة، ومواصلة جهاده ضد القوى الأوروبية الصليبية، استدعى شارل الخامس، قائد الأسطول الأسباني – أندريا دوريا وألزمه بالقضاء على درغوث أو أسره، فأقلع "دوريا" إلى نابولي، وبعد شهر من الإعداد انطلقت الحملة من نابولي في مارس 1551م، باتجاه الشواطئ التونسية، وحاصر عدوه في جزيرته، وتمكن درغوث من أن يتفوق على أعدائه، فبعد أن حاصرت القوات المتحالفة من الأسبان والإيطاليين وفرسان مالطا – جزيرة جربة، استطاع "درغوث" - بعملية مدهشة جعلت شهرته عالمية[1] – أن يسحب سفنه عبر قناة، قام بحفرها ومن خلالها تمكن من الخروج إلى عرض البحر، وتمكن من الاستيلاء على سفينة قائد حملة الإمداد من صقلية إلى أسطول "أندريا دوريا" الذي حينئذ ما انفك يحاصر أسطول "درغوث ريس" في جزيرة جربة، بينما كان الأخير وأسطوله يتابع رحلته إلى أستانبول ، وانضم فيما بعد إلى الأسطول العثماني الذي جاء بعد ثلاثة أشهر لفتح طرابلس الغرب.[2]

- تأسيس إيالة طرابلس الغرب سنة 1551:

---

[3] كو ستانزيو برينا، طرابلس من 1510 إلى 1850، تعريب: خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 1985) ص39.

[4] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص65.

[5] كوستانزيوبرينا، المرجع السابق، ص39.

[1] جان كلود زليتر، طرابلس – ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا 1500 – 1795، ترجمة: جاد الله عزوز الطليحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 2001) ص175.

[2] آتوري روسي، المرجع السابق، ص207.

يعتبر ميناء طرابلس مركزاً تجارياً هاماً، يربط وسط أفريقيا بالبحر المتوسط؛ ولم يتأثر هذا المركز كثيراً بالاكتشافات الجغرافية، كما تأثر كل من طريق مصر والشام، إذ استمرت تجارة وسط أفريقيا تمر بطرابلس، وهي في طريقها إلى جنوب أوروبا وجنوبها الغربي.[3]

وعلى صعيد المواجهة البحرية يشكل موقع طرابلس أهمية كبيرة لا يمكن عدم اعتبارها لتأمين التجارة والتنقل في البحر المتوسط، كما أن مواجهتها وقربها من جزيرة مالطا وسواحل الدويلات الإيطالية، وجزر اليونان، كل ذلك يضفي عليها أهمية استراتيجية كبيرة.[4]

كان ميناء طرابلس قد سقط تحت الاحتلال الأسباني في سنة 1510، على إثر حملة "بيدرونا فارو" والتي قتل خلالها ما يقرب من 5.000 شخص وأسر 6.000 آخرين.[5]

وفي سنة 1513، أسند ملك أسبانيا إدارة طرابلس إلى نائبه في صقلية،[6] واستمر حكم الأسبان، الذين لم يستطيعوا أن يتجاوزوا أسوار المدينة – إلى سنة 1530.

وبسبب المقاومة المحلية للاحتلال الأسباني، وتحول تجارة المسلمين عن مدينة طرابلس إلى مناطق أخرى مثل مصراتة وتاجوراء. وفقدان ميناء طرابلس الواقع تحت سيطرة الأسبان لأهميته كمنفذ لتجارة وسط أفريقيا فاضمحل بذلك مصدراً من مصادر الثروة، وشعرت الإدارة الأسبانية أن احتلال طرابلس صار يشكل عبئاً ثقيلاً على خزينتها. كل ذلك – بالإضافة إلى انشغال شارل الخامس بعد أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية (المقدسة)، في حروبه مع فرنسا – جعل شارل الخامس يربط أمر تنازله عن جزيرة "مالطا" لمنظمة فرسان القديس يوحنا، بشرط قبول المنظمة لمهمة الدفاع عن قلعة طرابلس، وبقبول المنظمة بشرط "شارل الخامس"، وقّع الأخير في يوم 24 مارس 1530م المرسوم الذي تنازل فيه عن جزيرة مالطا وقوزو وطرابلس، لهذه المنظمة التي استمرت في محاربة المسلمين، وذلك منذ أن طردهم المسلمون من القدس سنة 1187م. ومن عكا سنة 1291، ومن جزيرة رودس سنة 1523.[1]

---

[3] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص25.

[4] عبد الجليل التميمي، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية – المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 29 – 30 (تونس، 1983) ص74.

[5] الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط3، دار الفتح – دار التراث العربي (ليبيا، 1969) ص365.

[6] صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، المرجع السابق، ص47، 48.

[1] يرجع تاريخ هذه المنظمة إلى سنة 1070، عندما سمح الفاطميون لجماعة من تجار مدينة "آمالفي" الإيطالية، بتأسيس دار لاستخدامها في تقديم المساعدة للحجاج القاصدين الأماكن المقدسة النصرانية بالقدس ولقد أهدى المؤسسون – رمزياً – مؤسستهم هذه إلى (القديس يوحنا المتصدق)، وهو أحد بطارقة الإسكندرية في القرن السابع الميلادي. وفي فترة الحروب الصليبية تحولت هذه المؤسسة إلى منظمة عسكرية، واتخذت الصليب الأبيض شعاراً لها، وأصبح يشار إلى فرقها العسكرية بالإسبتارية – Ospedaliri، وفي كتب المسلمين بفرق فرسان الداوية، نسبة إلى أعمال التطبيب التي اشتهرت بها منظمتهم، كما عرفوا أيضاً (باليوحانيين). وعندما طرد صلاح الدين بقايا الصليبيين من بيت المقدس سنة 1187 لجأوا إلى مدينة عكا، واستقروا فيها، واستمروا في مناصرة القوى الصليبية في حروبهم ضد المسلمين في بلاد الشام حتى سنة 1291م، عندما سقطت عكا على يد السلطان خليل بن قلاوون، فلجأوا إلى قبرص وظلوا بها حتى سنة 1310م، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودس، وثابروا على مواصلة الحرب مع المسلمين بتأييد وتشجيع من الباباوية، وتمويل معظم البلاد المسيحية، ومن جزيرة رودس اجتهدت هذه المنظمة في التعرض لسفن المسلمين في البحر المتوسط، ونتيجة للأعمال العدوانية تجاه الأسطول العثماني، أرسلت الدولة العثمانية عدة حملات للقضاء على هذه المنظمة الصليبية، كان آخرها التي أرسلها السلطان سليمان القانوني في 26 ديسمبر 1522م، وبعد حصار للجزيرة دام ستة أشهر، رضخ الفرسان لتسليم الجزيرة للعثمانيين في آواخر يناير 1523، وكان قد سمح لهم العثمانيون بالجلاء عنها ونقل ما يملكون، وتقديراً لأعمالهم العدوانية ضد المسلمين، استقبلهم البابا كلمنت السابع "في روما وأقاموا في شيفتافيكيا Civitavecchia ، ومنها استمر أسطول المنظمة يمارس عملياته ضد سفن المسلمين (أعداء الصليب) وأخيراً وبعد البحث عن مكان ملائم لأعمالهم البحرية العدوانية ضد المسلمين، طالبوا بمنحهم جزيرة "مالطا"، حيث يمكنهم منها مواصلة نشاطهم الصليبي، ففي سنة 1524 ،

ولتنازل الأسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا، أكثر من دلالة؛ فهو أولاً: يدل على المقاومة المحلية التي لقيها الأسبان وعدم استكانة السكان للاحتلال وهجرتهم من مدينة طرابلس الأمر الذي أدى إلى تحول تجارة وسط أفريقيا عن مينائها الخاضع للاحتلال، وبالتالي تدهور الموارد الاقتصادية للبلاد فأصبح الأسبان في موقف كان التنازل فيه عن طرابلس أفضل خياراتهم.[1] وثانياً: فإن التنازل لهذه المنظمة يتمشى مع الرؤية التي كان يتبناها الملك فرديناند FERDINAND الكاثوليكي، ورئيس وزراءه الكاردينال "خيمنس XIMENES" لضمان الحفاظ على الوجود المسيحي في شمال أفريقيا "فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس؛ وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة، يتوجب علينا أن نعمر ها برمتها بالنصارى"[2]. وهذا ما جعل وريث فرديناند الكاثوليكي يصّر على تسلم فرسان القديس يوحنا لقلعة طرابلس، والحفاظ عليها كقاعدة أمامية للقوى المسيحية في شمال أفريقيا والبحر المتوسط، والاستفادة من مجهودات هذه المنظمة بتأكيد الوجود الصليبي في المنطقة وتمكينها من القيام بمثل الدور الذي كانت تقوم به في جزيرة رودس.[3]

فعندما أبعد العثمانيون هذه المنظمة من جزيرة رودس سنة 1523، لجأ أعضاؤها إلى البابا الذي أنزلهم في ضيافته، وظلوا يبحثون عن مكان يأويهم ويمكنهم منه ممارسة نشاطهم الصليبي ضد الإسلام والمسلمين فلم "يكن هذا الركود الذي اتسمت به أعمال المنظمة، أثناء إقامتها بإيطاليا، ليتلاءم مع تاريخها الطويل الحافل بالصراع ضد أعداء الصليب".[4] وفي سنة 1524 أرسل المرشد الأكبر للمنظمة، وفداً إلى الإمبراطور شارل الخامس يطلب منحهم جزيرة مالطا، وطالت المفاوضات بين الجانبين، إذ أصرَّ الإمبراطور على أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس ومدينتها، كشرط أساسي لإقطاعهم مالطا، وقد ترددت المنظمة في قبول هذا الشرط لأنه ليس هناك ما يشجع على احتلال طرابلس، لضعف مواردها وتدهور تحصينات القلعة والميناء، وكل ذلك نتيجة للهجوم الذي شنّته القوات الأسبانية ضد طرابلس سنة 1510، وقد أوردت هذه المعلومات في تقريرٍ وافٍ قام بإعداده وفد من قبل المنظمة، كانوا قد أُوفدوا إلى طرابلس للاطلاع

أرسل رئيس المنظمة وفداً إلى شارل الخامس بطلب منحهم جزيرة مالطا، فأبدى الإمبراطور ترحيبه بشرط أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس، وبقبولهم لشرط الإمبراطور تم تنازله لهم عن الجزيرة، وجاء في مرسوم التسليم: "رغبة منّا في تدعيم الدير والمنظمة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس يوحنا، وتوفير إمكانية الاستقرار لها... وانطلاقاً من محبتنا ومن العطف الذي نحمله لهذه الهيئة، فقد قررنا عن طيب خاطر التنازل للمرشد الأكبر والمنظمة عن مقر ثابت دائم... كلاً من المدينة والقلعة والجزر التابعة إلينا في طرابلس ومالطا وغوزو، مع جميع البقاع التابعة لها. وإقراراً منهم بإقطاعنا عليهم أن يقدموا صقراً في كل عام عند الاحتفال بعيد جميع القديسين". ومن مالطا أسهمت هذه المنظمة إسهاماً حربياً مباشراً في التحالفات والحملات الصليبية الأوروبية ضد المسلمين، وظلت هذه المنظمة فعالة في جهات البحر المتوسط من قاعدتها الأخيرة في جزيرة مالطا حتى سنة 1798 عندما احتلها نابليون في طريق حملته على مصر، ثم خضعت الجزيرة لسيطرة الإنجليز سنة 1800، فاتخذوها مركزاً للبحرية الإنجليزية، التي كانت قبل ذلك قد استولت على جبل طارق، فاستكملت إنجلترا بذلك سيادتها في البحر المتوسط. انظر ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، عني بتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، ط2، مكتبة النور (طرابلس، 1967) ص115-117. آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ص189-192؛ الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا... ، ص378 – 380؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1195؛ محمد صالح منصور، أثر العامل الديني...، ص279.

[1] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص27.

[2] رسالة الملك "فرديناند" إلى الكونت "بيدرو نافارو" بتاريخ مايو سنة 1510، نقلاً عن: شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1994) ص74.

[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص190.

[4] المرجع نفسه، ص191.

على أوضاعها.[5] واستمرت المفاوضات بين منظمة الفرسان والأسبان إلى أن تم للبابا إقناع الإمبراطور باستمرار تحمل الخزينة الأسبانية دفع المبالغ التي كانت تتحملها، لتغطية نفقات الاحتلال، وذلك في شكل معونة سنوية للمنظمة، وهكذا تخلى الأسبان عن جزيرة مالطا وقوزو وطرابلس، واتخذ مرشدهم جزيرة مالطا مركزاً لهذه المنظمة الرهبانية!، ومن ثم أصبح يطلق عليهم إسم "فرسان مالطا" وتم تعيين"غاسبارد دي سانجسّ" GASPARD DE SANGUESSE، لشهرة عدائه للمسلمين وبسالته في صد العثمانيين أثناء حصارهم لجزيرة رودس، كأول حاكم من قبل المنظمة على طرابلس.[1]

وما أن تسلّم فرسان مالطا مدينة طرابلس حتى قوبلوا بعداء المواطنين وكراهيتهم ووجدوا مقاومة كبيرة من قبل المجاهدين الذين تجمعوا في بلدتي تاجوراء وجنزور اللتان نزحت إليهما المقاومة المحلية منذ الاحتلال الأسباني سنة 1510، واشتدت المقاومة بظهور شخصية "خيرالدين كرمان" وهو أحد رجال خيرالدين بربروسا كان قد ولاه قيادة المقاومة بعد مشاركته لبربروسا في أول هجوم ضد قوات فرسان مالطا في طرابلس سنة 1531.[2] وقد تمركز "خيرالدين كرمان" في تاجوراء، وأخذ في تشديد الضغط والهجوم على قلعة طرابلس، وقام بتشييد قلعة محصنة – فوق هضبة المنشية- بالقرب من طرابلس سميِّت ببرج القائد تمكّنه من مراقبة ميناء طرابلس.[3] وفي سنة 1536 حاول أن يفاجئ حامية طرابلس أثناء الليل إلا أن جواسيس الحامية تنبّهوا إلى محاولته، فاتخذت القلعة استعداداتها، وبالرغم من استعدادات الحامية، أوشك الهجوم على تحقيق النصر، لو لم يتلق "خيرالدين كرمان" جرحاً بليغاً جعله غير قادر على مواصلة القتال.[4]

وعلى إثر ذلك عملت منظمة فرسان مالطا، بكل قوة على طرد "خيرالدين كرمان" من تاجوراء، فأعادت تحصين المدينة، وسيَّرت حملة من مالطا بقيادة الأسقف "أورليو بوتيجلا" BOTIGELLA، تمكّنت من تدمير (برج القائد) وبعد هذا الانتصار، رجع الأسقف بوتيجلا إلى مالطا، واستولى في طريقه على سفينة عثمانية، كانت عائدة من مصر وعليها حمولة ثمينة.[5]

وعلى الرغم من هذا الانتصار، فقد استمرت مقاومة الشعب الليبي بإمكانياته البسيطة للاحتلال وإذا كان على فرسان مالطا في السنوات العشر الأولى من حكمهم لطرابلس، أن يحتاطوا لهجمات "خيرالدين بربروسا"، ونائبه على تاجوراء "خيرالدين كرمان"، فقد كان عليهم فيما بعد أن يحذروا جاراً بغيضاً إليهم، تمثّل في شخص "مراد آغا" الذي تولى قيادة المقاومة بعد استشهاد "خيرالدين كرمان".[6]

وما أن تولى "مراد آغا" قيادة المقاومة في تاجوراء، حتى سار على نفس المنهج الذي سار عليه سلفه "خيرالدين كرمان"، وتجمعت حوله المقاومة، واستمر في محاولات استرجاع مدينة

---

[5] انظر " A.P.VELLA ،"The Relatations between the order of MALTA and TRIPOLI مقال ضمن أعمال مؤتمر "ليبيا في التاريخ" (بنغازي 16-23 مارس 1968) ص380.

[1] شارل فيرو، المصدر السابق، ص87.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص56؛ كوستانيزيوبرينيا، المرجع السابق، ص34.

[3] شارل فيرو، المصدر السابق، ص87.

[4] كوستانيزيوبرينيا، المرجع السابق، ص35.

[5] شارل فيرو، المصدر السابق، ص88.

[6] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص60،61.

طرابلس، وصد محاولات فرسان مالطا للتوسع خارج القلعة، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الليبي ابن غلبون: "... ولم يزل مراد آغا يواصل الغزو على طرابلس ويضيِّق على من بها من الروم، ومن ظهر منهم اختطفه المسلمون..."[1]

ولقد أدّت عمليات المقاومة إلى إدراك فرسان مالطا، أنه ليس في استطاعتهم الحفاظ على مدينة طرابلس، بسبب تضييق الخناق عليهم من قبل "مراد آغا" المتطلع لتدخل الأسطول العثماني، إذ كان اهتمام البحرية العثمانية في ذلك الوقت موجهاً للقضاء على قوة فرسان مالطا بسبب نشاطهم الصليبي في البحر المتوسط، ومشاركتهم الفاعلة في الحملات الصليبية على بلدان المغرب الإسلامي.

وبناءاً على مخاوف حاكم القلعة في طرابلس، أوفد المرشد الأكبر للمنظمة في الثامن من يناير 1547، مبعوثاً إلى البابا في روما لشرح الأوضاع التي تمر بها قواته في طرابلس، وطلب المعونة منه لتدعيم القلعة وتزويدها بالجنود للدفاع عنها، مشيراً إلى أن إمكانيات المنظمة ليست كافية لمواجهة خطر تضامن "مراد آغا" والأهالي مع بربروسا ونائبه درغوث ريس"الذين يعتقد أنهم يعدون العدة للاستيلاء على المدينة وطرد الفرسان من القلعة، ويضيف "...وأنه لو حدث هذا – لا قدر الله- فسوف تكون خسارة فادحة لا لمملكة صقلية وكالابريا، ولكنها خسارة للمسيحية بصفة عامة، وستكون وكراً للقراصنة الذين ستمتلئ بهم هذه البحار".[2] ولقد ضمّن المرشد في رسالته للبابا طلب إرسال أربعة أو خمسة ألف جندي لطرد "مراد آغا" من أراضي طرابلس والقضاء على المقاومة.

ورغم إيضاح رسالة المرشد للبابا للوضع الذي تمر به حكومة المنظمة في طرابلس، وحاجتهم الماسة للمساعدات، واستعداد منظمته للدفاع عن طرابلس في حال دعمها ووصول المساعدات، إلا أن هذه المساعدات لم تأت لا من الإمبراطور ولا من البابا القلب المحرك لهذه المنظمة الحربية ومحرضها ضد الإسلام والمسلمين.[3]

وفي نفس هذه السنة 1547، توفى "خير الدين بربروسا" الذي أفزع الصليبيين في مياه وسواحل البحر المتوسط مدة طويلة، غير أن وفاة " بربروسا" لم تترك فراغاً كبيراً في المنطقة؛ إذ سرعان ما خلفه نائبه "درغوث ريس" الذي أصبح كابوساً لأسبانيا والإمبراطورية، فكان يظهر دون توقع على سواحل إيطاليا وأسبانيا و سواحل المغرب الإسلامي، ولكن هدفه الرئيسي بقي القضاء على قوة فرسان مالطا، وطردهم من طرابلس وكان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على "مراد آغا" في تاجوراء لتحقيق هذا الهدف.[1]

وكنا قد تركنا "درغوث ريّس" عندما تمكن الأسبان بمؤازرة فرسان مالطا، من إعادة احتلال سوسة والمنستير، ثم المهدية سنة 1550، وكان قد غادر بعد اختراق حصار أسطول "أندريا دوريا" له في جزيرة جربة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بأستانبول، وأحاط حكومة الباب

---

[1] ابن غلبون، التذكار...، ص137.
[2] نقلاً عن: آنوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة خليفة التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية (طرابلس،1969) ص67.
[3] محمد الهادى أبوعجيلة، المرجع السابق، ص63.
[1] جان كلود زليتر، المرجع السابق، ص153،154.

العالي بما أسفر عنه صراعه مع القوى الصليبية في منطقة المغرب الإسلامي والبحر المتوسط، وأوضح للسلطان إن إستيلاء أسبانيا على وهران وبجاية وتونس، وتمركز منظمة فرسان القديس يوحنا في مالطا، وسيطرتها على قلعة طرابلس، من شأن كل ذلك أن يجعل السيادة للقوى المسيحية على أغلب سواحل البحر المتوسط، وتهديد سلامة تنقل الأسطول العثماني في هذه المنطقة، واحتمال تحالف في المستقبل بين القوى الصليبية، يجدد إمكانية عودتهم إلى الشرق، واستعادة رودس وجزر اليونان وسواحل فلسطين.[2] ويبدو أن فكرة استرجاع طرابلس والمهدية كانت خطة عسكرية قد درست بالباب العالي على ضوء تقارير "درغوث ريّس" و"مراد آغا"، وأن الدولة العثمانية كانت مدركة تماماً للأوضاع الداخلية لبلدان المغرب، ولمرامي السياسة الصليبية في المنطقة، وأنه بناءاً على ذلك تقررت الحملة العثمانية على طرابلس.[3]

ظهر الأسطول العثماني أمام مالطا يوم 8 يوليو سنة 1551،[4] ثم أبحر إلى طرابلس التي وصلها في الخامس من أغسطس، وبدأت عملية الغزو في الثامن من أغسطس سنة 1551. وقد كان الأسطول العثماني مكوناً من حوالي 150 سفينة بقيادة "سنان باشا"،[5] بالإضافة إلى سفن "درغوث ريّس"، التي تقدرها بعض المصادر بخمسين سفينة،[6] وبعد أن تمت عملية إنزال الجنود في تاجوراء حيث مركز المقاومة المحلية بقيادة "مراد آغا" توجه "سنان باشا" و"درغوث ريّس" بالأسطول نحو مدينة طرابلس وأبرم الحصار عليها، ثم بعث "سنان باشا" برسالته إلى قائد الحامية المالطية "جيسبارد دي فالييرGaspard de Vallier "، يأمره بالتسليم، وقد كتب إليهم يقول: "استسلموا لرحمة السلطان الذي أمرني بإخضاع هذه البقعة تحت طاعته، ولسوف أمنحكم الحرية والحياة والممتلكات العائدة إليكم، وإلا فإنني سأمرركم جميعاً تحت حد السيف" وكان رد فاليير: "لقد عهد إلي بحراسة هذه البقعة من قبل منظمتي الدينية، ولست أملك أمر التخلي عنها إلا إلى ما يأمرني به المرشد الأكبر، وهذا هو السبب في أنني سأدافع عنها ضد الجميع حتى الموت".[1]

كانت خطة (سنان باشا) تقتضي التريث والاستعداد ومناوشة العدو من تاجوراء، وعدم تمكين مدافع القلعة من سفن الأسطول المحاصر لطرابلس، وبدأ تأثير الحصار البري والبحري يؤثر على معنويات جنود الاحتلال في القلعة، ووجد الحاكم (دي فالييرـ) – في اليوم السادس من الحصار- نفسه وقد خانه الحظ وتخلى عنه جنوده، فما كان منه إلا أن رفع راية المفاوضات[2]، وفي هذه الأثناء وصل السفير الفرنسي، دارمونت DARMONT إلى تاجوراء، وقد كان ماراً بجزيرة مالطا وهو في طريقه إلى قنصليته في أستانبول، حيث طلب إليه مرشد منظمة فرسان مالطا التدخل والقيام بدور الوسيط في إنقاذ فرسان الحامية بطرابلس، وانتهت المفاوضات إلى استسلام فرسان الحامية وخروجهم من طرابلس، بعد أن أذن لهم (سنان باشا) بالرحيل على ظهر سفينة تحمل العلم الفرنسي، في الثامن عشر من أغسطس سنة 1551.[3]. وفتحت القلعة والمدينة للجنود العثمانيين ومناصريهم

---

[2] كوستا نزيوبرنيا، المرجع السابق، ص40،41.
[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[4] ابن غلبون، المصدر السابق، ص127.
[5] المصدر نفسه، ص127.
[6] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[1] شارل فيرو، المصدر السابق، ص92؛ كوستانيزيو برينيا، المرجع السابق، ص43.
[2] عبدالجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[3] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص68.

الليبيين الذين طال نضالهم ضد الاحتلال الأسباني ومن بعدهم فرسان مالطا، واعتبر ذلك أول نجاح عسكري منظم قام به العثمانيون على الساحة المغربية، ثم أبحر الأسطول العثماني إلى الأستانة، بعد أن حقق هذا النصر الكبير، وبعد أن عهد (سنان باشا) بحكم إيالة طرابلس لـــ(مراد آغا)، تمكن العثمانيون من تأسيس القاعدة الثانية بعد إيالة الجزائر، على ساحل شمال أفريقيا الغربي، والتي منها سيستمر التصدي للقوات الأوروبية في هذه المنطقة، والتضييق على الوجود الأسباني في تونس حتى يتم استخلاصها، وتأسيس الإيالة المغربية الثالثة، وهذا ما سيتم استعراضه فيما يلي:-

- مراحل تأسيس إيالة تونس حتى سنة 1574:

كالجزائر وطرابلس، ونظراً لموقعها المهم، اكتسبت تونس أهمية خاصة في الصراع الأسباني العثماني بغرب البحر المتوسط، فتنازعت القوتان احتلال سواحلها أكثر من مرة.

ولقد سبقت الإشارة إلى استيلاء (خيرالدين بربروسا) على تونس سنة 1534، وما ترتب على ضمها للدولة العثمانية عندئذ من رد فعل سريع من قبل أوروبا تمثل في قيام الإمبراطور شارل الخامس بنفسه بقيادة الحملة التي أعاد بها الحسن الحفصي إلى عرش تونس، وفرض شروطه المذلة عليه سنة 1535.[4]

وما أن غادر الإمبراطور مدينة تونس حتى اندلعت الثورات ضد الحسن الذي لم يرتض الشعب التونسي حكمه تحت الحماية الأوروبية، فثارت عليه عدة مدن تونسية من بينها مدينة سوسة والقيروان، واستنجد "الحسن" مرة أخرى بشارل الخامس الذي كلف في سنة 1537 نائبه في صقلية بإرسال حملة لقمع المتمردين في مدينة سوسة وإخضاعها، إلا أن الأسبان فشلوا في حملتهم واضطروا إلى العودة بعد تكبد خسائر فادحة.[1]

وفي سنة 1539، تمكن أندريا دوريا من إخضاع مدن قليبية وسوسة وصفاقس لسلطة الحسن الحفصي، وعسكر حامية أسبانية في المنستير، بينما توجه الحسن بنفسه لقمع انتفاضة الشابيين في القيروان، فضم الحسن إلى قواته قوات الحامية الأسبانية، إلا أن معظم جنوده المسلمين انحازوا إلى الثوار مع بداية المعركة الأمر الذي اضطره إلى التقهقر إلى مدينة تونس، ومعه جنود حامية المنستير الذين صدوا عنه هجمات الثوار وغطوا انسحابه، وترتب على هذه الهزيمة تصاعد الثورة مما اضطر الأسبان إلى سحب حاميتهم من المنستير التي ثارت مجدداً ومعها مدن سوسة وصفاقس وقليبية وهذه المرة بمساندة الغازي الشهير "درغوث ريس" الذي أخذ في هذه الفترة بتركيز هجماته على السواحل التونسية.[2]

ومجمل القول فإن الأوضاع في تونس كانت في منتهى الصعوبة بالنسبة للحسن الحفصي، فبالرغم من تعدد الحملات الأوروبية لتأكيد سلطته على تونس وقمع الثورات المناهضة لحكمه، فإن أمره انتهى إلى تنحيته عن الحكم وأسره من قبل ابنه "أبي العباس أحمد" سنة 1542.[3]

---

[4] راجع ص (26) من هذا البحث.
[1] روسو، المصدر السابق، ص91،92.
[2] المصدر نفسه، ص92.
[3] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص15.

وبتولي (أبي العباس أحمد)، أخذ الوجود العثماني يتسرب شيئاً فشيئاً إلى مداخل البلاد التونسية، وذلك على إثر تعاون "درغوث ريس" معه ضد الحاميات الأسبانية، إذ أنه انطلاقاً من سنة 1544، تمكن درغوث من تحرير معظم السواحل التونسية، هذا فضلاً على نجاح محاولاته لعرقلة حركة الأساطيل الأوروبية وضرب الموانئ الأسبانية والإيطالية، وهذا ما جعل شارل الخامس يعده أكثر خطورة من "خيرالدين بربروسا" والعمل على استرجاع المهدية ومحاصرته في جربة سنة 1551.

وباحتلال (أندريا دوريا) للمهدية واستفعال تقدم الأسبان بالأراضي التونسية وسواحل المغرب الإسلامي، تحتم على العثمانيين الرد السريع والذي تمثل في توجيه الأسطول العثماني لاسترجاع المهدية، ووضع حداً لوجود فرسان مالطا بطرابلس الغرب سنة 1551.[4]

وبعد تحرير طرابلس من سيطرة فرسان مالطا سنة 1551، استمرت القوى الصليبية في اختبار القوى المحلية والعثمانية المرابطة على سواحل بلدان المغرب، وخاصة في طرابلس، وكانت محاولاتهم بهدف الاستيلاء على بعض النقاط الهامة، وعرقلة الأسطول العثماني في المنطقة، ففي سنة 1552، حاول فرسان مالطا الاستيلاء على زوارة – غرب طرابلس- إلا أن قوات مراد آغا انقضَّت على قوات الفرسان الذين تشتتوا واضطروا لترك 1500 أسير من مواطني زوارة، بل إن القوات المحلية استطاعت أن تأسر عدداً من جنود فرسان مالطا، بينما هرب الباقين، وبعد أن غرق الكثير منهم قبل وصولهم إلى سفنهم، غادر الأسطول الغازي بمن بقي منهم على قيد الحياة.[1]

ومن خلال هذه التجربة أدرك فرسان مالطا أنهم لا قدرة لهم بمفردهم على إعادة احتلال طرابلس مرة ثانية، وفي الوقت نفسه تنبّه "مراد آغا" إلى الخطر الذي يحيق بطرابلس نتيجة وجود النفوذ الأسباني في تونس؛ إذ يستدعي استقرار الأوضاع في طرابلس وجود وضع مستقر في جارتها تونس، وكذلك يعني تحرير تونس امتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر على ساحل شمال أفريقيا، ودحر القوى المسيحية المتربِّصة بطرابلس إلى الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط من جديد، وهذا ما عمل على تحقيقه "درغوث باشا" بعدما تولى الحكم في إيالة طرابلس الغرب.

وبتولي (درغوث باشا) حكم طرابلس سنة 1553، بدأ من فوره في مباشرة مسئوليات الحكم في همة ونشاط، فداخلياً بدأ باستكمال تحصينات المدينة،[2] وخارجياً أتاح له المنصب الجديد أن يلعب دوراً في السياسة الدولية كالدور الذي لعبه "خيرالدين بربروسا" من قبل حين كان والياً على الجزائر، فتحولت طرابلس في عهده إلى قاعدة بحرية لصد الأطماع والاعتداءات الأوروبية على المغرب الإسلامي، وكانت تونس من ضمن اهتماماته منذ بداية ولايته، ولهذا فقد جمع بطرابلس بعض الأعيان والشيوخ من جربة وقفصة للعمل على وضع خطة لاحتواء المنطقة وضمِّها إلى طرابلس وإعلانها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

بدأ "درغوث باشا" مشروع ضم تونس بالزحف على مدينة قفصة في 20 سبتمبر 1556، فاستقبله أهاليها كمحرر لها، ولتأكيد الوجود السياسي العثماني قام بضرب أول عملة عثمانية بها

---

[4] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص76.
[1] ابن غلبون، التذكار...، ص131.
[2] الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، ط1، دار الفتح للنشر (بيروت، 1970) ص156-157.

كانت تحمل على أحد وجهيها اسم السلطان العثماني "سليمان القانوني" والوجه الآخر عبارة "ضُرب بقفصة" ثم توجه بعد ذلك إلى جربة فاستولى عليها وأقام بها البرج الكبير للدفاع عنها، وترك على قيادته "قلج علي".[3]

وانطلاقاً من هذين الموقعين، أصبح من السهل على درغوث دخول صفاقس وبدأ بحصار الشابيين في القيروان إلى أن تم له القضاء على حكمهم سنة 1557.[4]

وهكذا تمكن درغوث باشا من مدِّ نفوذه في كامل الجنوب التونسي، وتقوية الحزام البري حول طرابلس وعلى السواحل التونسية، الأمر الذي جعل تحركه البحري في اتجاه السواحل الأوروبية، أكثر نجاحاً، إذ تُشير بعض المصادر إلى أنه في سنة (967هـ / 1559م) قد تمكنت البحرية الطرابلسية من إنقاذ حوالي 2500 مسلم من أسبانيا،[1] وكانت هذه الإنجازات بمؤازرة زيارات الأسطول العثماني الدورية للمنطقة، والتي كان الغرض منها تدعيم نشاط أساطيل الجهاد المغربية، والرفع من معنوياتها، والدفاع عن سلامة الأراضي الداخلة ضمن نفوذ الإمبراطورية العثمانية. فماذا كان موقف أوروبا من هذه النجاحات؟.[2]

- الحملة الصليبية على جربة 1560:

على إثر توقيع معاهدة "كاتوكمبريسيس Cateaucombresis"[3] - والتي حدت من التناقضات السياسية بين أسبانيا وفرنسا وإنجلترا بتاريخ 2 – 3 أبريل سنة 1559م - أصبح لهذه الدول غايات موحدة تقريباً. وأصبح باستطاعة أسبانيا تحويل اهتمامها إلى خطر التوسع العثماني والنشاط البحري المغربي. ففي رسالته إلى دوق فلورنسا يعبّر فيليب الثاني ملك أسبانيا عن ارتياحه لهذا الوفاق فيقول: "... برضاء من الله تمت هذه المعاهدة وإقامة السلم مع المسيحي الغيور الملك الفرنسي. فقد بدا لي أنه طاعة لله وخدمة للدين المسيحي، وحتى لا تبقى جميع السفن التي تحت إمرتي بإيطاليا عاطلة عن التحرك خلال هذا الصيف، فإننا سنستعملها للقضاء على القراصنة لنضمن الحرية البحرية... وعلى هذا الأساس فقد أذنت بالحملة على طرابلس الغرب...".[4]

إذن فالحملة التي احتلت جربة كانت موجهة أساساً إلى طرابلس، وهذا ما تعكسه الفقرة الأخيرة من الاقتباس السابق لرسالة فيليب الثاني، إلا أن قوة طرابلس في عهد درغوث باشا، فيما يبدو – أنها كانت من ضمن الأسباب التي حالت دون تمكن الحملة من غزوها، وتشير بعض

---

[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية....، ص79.
[4] أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني (طرابلس، د.ت) ص224.
[1] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخازنجي (القاهرة، د.ت) ص388.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص80، 81.
[3] تعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة أوروبية في تاريخ أوروبا الحديث، وقد وضعت نهاية لما يعرف بمصطلح "الحروب الإيطالية Les Guerresd'italie" وهي حروب متقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة امتدت خمسة و ستين عاماً (1494 – 1559) وكانت هذه الحروب مظهراً من مظاهر التنافس الدولي بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ في أوروبا والرغبة في التوسع الإقليمي داخل القارة، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التي تطورت بعد ذلك واتسع نطاقها إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية. انظر، عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986) ص155، وكذلك ص183.
[4] نقلاً عن: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الأسباني العثماني...، ص13.

المصادر إلى تعرض أسطول الحملة لعواصف بحرية قرب سواحل طرابلس – بالقرب من زوارة – فاضطرت الحملة إلى التوجه نحو جربة.[5]

وتورد بعض المصادر الأوروبية أن سعي كلٌ من نائب الملك بصقلية، ومرشد منظمة فرسان مالطا لدى فيليب الثاني هو الذي كان وراء إقناع الأخير بتنظيم حملة بحرية مشتركة على طرابلس، وللقضاء على درغوث باشا، لمعرفتهم بقدراته العسكرية والبحرية والخطر الذي يشكله في المنطقة.

ومن غير الدخول في تفاصيل الحملة وتجهيزات السفن وذكر المراسلات التي تمت بين الملك الأسباني والقيادات الأوروبية المشاركة فيها، نقتصر على أن التحالف الأوروبي قد سخر إمكانيات كبيرة للقيام بهذه الحملة، وكان الجنود خليطاً من الدول المسيحية، ويقدرون بـ 12.000 إلى 14.000 ألف جندي نقلتهم حوالي 80 إلى 113 سفينة.[1]

وعلى كل حال استولت الحملة على جربة، وبعد شهرين تقريباً وصل الأسطول العثماني بقيادة "بيالي باشا" ومعه "قلج علي" الذي كان درغوث قد بعث به لطلب الدعم من الأسطول العثماني في الوقت الذي توجه فيه درغوث باشا إلى جزيرة جربة، وبوصول الأسطول العثماني تم فرض الحصار على أسطول دوريا وعلى الجزيرة في آن واحد.[2] وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسطول الصليبي وفرار "جين دوريا Gian Andrea Doria" بما نجا من سفن أسطوله، تاركاً "ألفارودي ساندي Don Alvaro Desande" قائد الجيش البري في قلعة الجزيرة تحت رحمة العثمانيين والذي ضل متحصناً بها على أمل أن تصل إليه النجدة من مالطا أو صقلية، ولما يئس من ذلك أجرى عدة محاولات للهروب ولكن دون جدوى فوقع في الأسر واضطر رجاله للاستسلام فدخل العثمانيون القلعة في يوم 1 أغسطس 1560م.[3]

وهكذا أدت الحملة الصليبية على جربة إلى عكس المطلوب منها، لقد قصد بالحملة استعادة مدينة طرابلس، وكسر شوكة درغوث باشا ووقف المد العثماني في الشمال الأفريقي وتقوية مركز فرسان مالطا وإعطائهم مظهراً مشرفاً أمام أوروبا المسيحية، إلا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق، ونتج عن الحملة نتائج مخالفة؛ فقد أضافت إلى أمجاد درغوث مجداً جديداً، فقد كان حذراً واعياً لما يدور حوله واستفاد من موقعه أكبر فائدة يمكن أن يحصل عليها قائداً في مثل موقعه، واستفاد من المعلومات التي كانت تصله عن طريق عملائه في تونس وحول قلعة حلق الوادي، واستعملها الاستعمال الأمثل، فأعادت الحملة إلى الأذهان انتصار درغوث على دوريا الكبير "حين أفلت من حصاره في جربة".[4] ومن ناحية أخرى فإن فشل الحملة والهزيمة التي حلت بالقوى المسيحية قد أدت إلى ازدياد النشاط العثماني سواء عن طريق طرابلس أو عن طريق الأسطول العثماني، وهو أمر سوف يظهر أثره في الحملة العثمانية على مالطا سنة 1565م، وهي الحملة التي شارك فيها درغوث باشا وشهدت عظمته العسكرية واستشهد فيها.

---

[5] روسو، المصدر السابق، ص95.
[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص82؛ روسو، المصدر السابق، ص94.
[2] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص59.
[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص225.
[4] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص60، 61.

- الحملة العثمانية على مالطا 1565م:

كان فرســـان "القديس يوحنا" قد تمركزوا في مالطا نهائياً بعد أن فقدوا الأمل – بعد العديد من المحاولات – في العودة إلى طرابلس أو أي نقطة على ساحل شمال أفريقيا ومن ثم فقد اشتغلوا بالغارات الخاطفة على السـواحل المغربية، أو بالهجمات على سـفن المسـلمين في البحر. وفي هذه الفترة تشير بعض المصـادر إلى استيلاء البحرية المالطية فيما استولوا عليه على "مركب" خاص بالسلطان القانوني نفسه، يعرف باسم "بيرام أو غلو" وعلى متنه ثروة كبيرة، وعدد من الشخصيات الهامة، كذلك تمكنت بحرية المنظمة من الاسـتيلاء على سـبع سـفن عثمانية من بينها مركب تعود ملكيته إلى "رستم باشا" صهر السلطان.[1]

وإذا ما أضفنا ما سبق إلى أهمية جزيرة مالطا كقاعدة بحرية ذات تأثير مباشر على حرية التنقل في البحر المتوسط، وإشرافها على ساحله الجنوبي واعتداءات المنظمة على السفن والسواحل المغربية، وتحريض درغوث باشا للحد من عدوان هذه المنظمة المهدد للاستقرار في طرابلس، ينتج عن كل ذلك التحرك العثماني وقرار الحملة العثمانية على مالطا.

عهد الباب العالي بمهمة قيادة أسطول الحملة إلى "مصطفى بيالي باشا" وتقرر أن يلحق به درغوث باشا من طرابلس وحسن باشا من الجزائر بما لديها من سفن وجنود بالإضافة إلى فرقة من الإسكندرية بقيادة "قلج علي باشا"، واختلفت المصادر حول عدد السفن المتراوح بين 150 و 200 قطعة بحرية، أما عدد جنودها فيتراوح بين 30 و 50 ألف، وقد وصـــلت الحملة إلى جزيرة مالطا يوم 18 مايو 1565م.[2]

كان لجزيرة مالطا عدة قلاع محصـنة وهي: حصـن (سـان المو)، و(سـان ميكال)، و(سـان أنجلو)، و(برقو)، وكان يدافع عنها حوالي 9.000 جندي بقيادة "لافاليت" وكان يحيط بهذه القلاع عدة تلال، تعيّن على القوات العثمانية السيطرة عليها حتى يتم السيطرة على كامل الجزيرة، وهذا ما لم يتم لاســـتماتة قوات الجزيرة في مقاومة الهجمات العثمانية المشـــتتة، فلم يكن للعثمانيين خطة هجومية موحدة حيث اختلف القادة على أولويات المعركة، ففي حين كان درغوث يطالب باحتلال التلال المشرفة على الحصون، كان قائد الأسطول "مصطفى باشا" قد ركزّ هجومه على (سان المو) لضمان مرور الأسطول العثماني إلى الميناء الرئيسي.[1]

وأخذ الأسطول العثماني بقذف الحصون، وكان المقاومون يردون على القصف بالمثل، ولأكثر من شهر استمات الفرسان في الدفاع عن أهم حصن مسيحي في البحر المتوسط.

ولما كان الهجوم مركّزاً على حصن (سان المو) لاحظ "درغوث باشا" كيف كان "لافاليت" يجد الفرصـة لإرسـال الدعم إلى الحصـن عقب كل هجمة عثمانية، وكان من الضـروري أن يقطع عليه الطريق، ودون تردد أنزل "درغوث باشا" بحّارته وجنوده في الجبهة المقابلة للحصن، وسيطر

---

[1] كوستانيزيوبرينا، المرجع السابق، ص68.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص87.
[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص88.

على الموقع، وبالمقابل أدرك "لافاليت" أهمية هذه الحركة من قبل درغوث فقام بإرسال قوة تتكون من 700 جندي، لاسترداد هذا الموقع المهم، وفي اليوم التالي وبينما كان "ردرغوث باشا" يقود جنوده، تحت نيران مدافع القلاع ويراقب بنفسه سير المعركة، أصابته شظية مدفعية أدت إلى استشهاده.[2] وفقدت البحرية العثمانية"في شخص والي طرابلس أعظم رجل حربي، يمكن أن تعده بين رجالها الذين ظهروا خلال قرنين، أو كثر".[3]

ومن دون جدوى استمر حصار العثمانيين لحصون الجزيرة، وازداد وضع العثمانيين سوءًا خاصة بعد وصول النجدات المسيحية للجزيرة، والتي ترتب عليها إنعاش المقاومة الداخلية من جديد ضد الغزاة العثمانيين الذين فضلوا الانسحاب في اليوم السابع من شهر سبتمبر 1565.[4]

ولقد تكبدت القوات العثمانية في حصارها للجزيرة خسائر فادحة،[5] أدت إلى اعتبار نتيجة المعركة نصر عسكري مسيحي هز الدوائر السياسية والدينية في كل أوروبا، فقد استعصت جزيرة مالطا على العثمانيين وبقيت حتى سنة 1798 إحدى أهم المراكز الرئيسية في البحر المتوسط التي تنطلق منه هجمات فرسان مالطا وغيرهم من الصليبيين على سواحل شمال أفريقيا والسفن الإسلامية في البحر المتوسط.[6]

وبعد هزيمة العثمانيين في مالطا، استمرت تونس مسرحاً للصراع الأسباني العثماني واستمر سكان تونس وزعماتها المتمثلة في قيادات الطرق الصوفية وشيوخ القبائل في كفاحهم للوجود الأسباني.[1]

وإذا كان "درغوث باشا" لم يحقق سوى نجاح جزئي في تونس، فإن إيالة الجزائر بقيادة "قلج علي باشا" أتمت ما بدأته طرابلس في سبيل تخليص تلك البقعة من السيطرة الأجنبية، ففي سنة 1569 توفر "لقلج علي" فرصتين لا يمكن تفويتها لضم شمال تونس تحت المظلة العثمانية، تمثلت الأولى: في انشغال أسبانيا بأحداث ثورة مسلمي غرناطة التي اندلعت مع نهاية سنة 1568 واستمرت حتى سنة 1570؛[2] والثانية في لجوء الوزير التونسي "أبي الطيب الخضار" إلى الجزائر والذي سهل علي "قلج علي" أمر الاستيلاء على تونس بما وفرّه له من معلومات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية وعن قوات الحامية الأسبانية في قلعة حلق الوادي.[3]

---

[2] عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية (بيروت، 1989) ص218.

[3] كوستانزيوبرينا، المرجع السابق، ص72.

[4] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص89.

[5] وصلت خسائر العثمانيين – حسب بعض المصادر – إلى 20.000 قتيل، ويوصل "برينيا" خسائرهم إلى 35.000 من غير ما قدمته الإيالات المغربية، ووصلت خسائر المنظمة إلى 600 قتيل من الفرسان، وأسر العثمانيون 9.000 من الإيطاليين والمتطوعين المحليين. انظر كوستانزيوبرينا،المرجع السابق، ص73، كذلك عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص89.

[6] ن. إ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة وتقديم: عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1991) ص36.

[1] ن. إ. بروشين، المرجع السابق، ص36، 37.

[2] عن هذه الثورة وعلاقات مسلمي الأندلس بإيالات المغرب والدولة العثمانية في هذه الفترة، انظر، محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 – 17، مطابع أفريقيا الشرق (الدار البيضاء، 1989) ص80 – 92؛ جلال يحيى، المرجع السابق، ص166؛ عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541" المجلة التاريخية المغربية، العدد 30 (تونس، 1975).

[3] أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص18.

وبناءًا على ذلك تحرك "قلج علي باشا" من الجزائر إلى تونس في ستة آلاف مقاتل أنضم إليهم في طريق الحملة خمسة آلاف من بادية الجزائر والسكان المحليين الذين يرون النجاة في نصرة إخوانهم المسلمين من سيطرة الأسبان، وخرج السلطان "أبي العباس أحمد الحفصي" في 30.000 لملاقاة جيوش "قلج علي"، وبعد أول اشتباك عند سهول "باجة" انحاز الجنود التونسيون الذين برفقة "أحمد الحفصي" إلى صف "قلج علي باشا" وأسفرت المعركة عن هزيمة الأول والذي اضطر إلى اللجوء إلى قلعة "حلق الوادي" الأسبانية، ودخل "قلج علي باشا"، حاضرة تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة (977هـ - 1569م).[4]

وبعد أخذ البيعة للسلطان العثماني في تونس، خلفّ "قلج علي" أحد قواته ويدعى "رمضان" مع 800 تركي وحوالي ألف من قوات بادية زواوة الجزائريين.[5] وقفل عائداً إلى الجزائر بهدف تنظيم الأسطول وإعداده لمهاجمة قلعة حلق الوادي، إذ أن الاستيلاء على هذا الحصن المتحكم في الميناء، بدون دعم من البحر كان فيما يبدو أمراً مستحيلاً.[1] وضلت سيطرة الأسبان على الميناء من قلعة حلق الوادي دائماً تهدد سلامة البلاد.

إلا أن عودة "قلج علي باشا" إلى تونس لاستكمال مشروع تحريرها من الأسبان. أرجئت إلى وقت لاحق، إذ بمجرد وصول قلج علي إلى الجزائر تم استدعاؤه من قبل الباب العالي، للتنسيق مع الإدارة العثمانية ووضع التدابير للوقوف في وجه التكتل الصليبي ضد العثمانيين.

- الحلفاء ومعركة ليبانتي سنة 1571م:

وقد شكلت هذه الرابطة الصليبية سنة 1570، بمبادرة من البابا "بيوس الخامس" الذي لجأ إليه دوق البندقية، على إثر استيلاء الدولة العثمانية على جزيرة "قبرص" – التابعة لجمهورية البندقية – وكان استيلاء العثمانيين على الجزيرة، في 9 سبتمبر 1570م، بسبب انتهاكاتها المتكررة لحدود الدولة العثمانية. وهجمات بحّارتها على السفن العثمانية "فالقبارصة بدأوا يتصرفون مثل فرسان مالطا"[2] وعلى إثر ذلك أعلنت حكومة البندقية الاستنفار وبدأت بتسليح سفنها التجارية وأطلقت حملة سياسية "لإثارة المسيحية المهددة".[3]

ولقد وجدت حكومة البندقية في البابا "بيوس الخامس"، الموحد الروحي للمسيحيين، الشخصية المناسبة، فقد كان هذا "البابا" يؤمن بأن للمسيحية عدوان اثنان، إحداهما: المروق عن الدين، وثانيهما: خطر العثمانيين المسلمين، وبالرغم من التناقضات وتضارب المصالح الذي كان يسود علاقات الدول الأوروبية – وخاصة بين أسبانيا وفرنسا والبندقية، فقد وفق "البابا" خلال أسابيع في أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ وقاعدة مشتركة للعمل ضد العثمانيين، وتوصلوا في النهاية إلى عقد ذلك التحالف وهو تحالف هجومي - دفاعي وموجه بالدرجة الأولى

---

[4] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص19؛ روسو، المصدر السابق، ص96؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص173.
[5] روسو، المصدر السابق، ص96.
[1] ن. إ. بروشين، المرجع السابق، ص37.
[2] عزيز سامح، المرجع السابق، ص226.
[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص97.

ضد الإمبراطورية العثمانية، وأصرت أسبانيا على ضرورة النص فيه على أنه موجه كذلك ضد إيالات المغرب في شمال أفريقيا.[4]

ونصت بنود الحلف على ضرورة توفير أسطول بحري يتكون من 200 سفينة حربية و 100 سفينة نقل لحمل 50.000 جندي و 4.500 من الفرسان، وأن تستمر فاعلية هذا الحلف (المقدس) لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ولا يحق لأحد من الأطراف الأوروبية التفاوض بشكل منفرد مع الدولة العثمانية، وعلى ذلك أُعلن عن وجود الحلف رسمياً يوم 25 مايو 1571م من شرفة كنيسة (القديس بطرس) في روما.[1]

وأخذت الدول المتحالفة في الاستعداد وفي تجميع سفن أسطولها، ومن طرف الدولة العثمانية دخل الباب العالي في دوامة الاستعداد للمواجهة بإعداد السفن والتنسيق مع الولايات وتجمع الأستانبول العثماني من أستانبول ومن قبرص، ومن المغرب الإسلامي، وتراوح عدد قطعة ما بين 180 و 200 سفينة حسب المؤرخون العثمانيون، خلافاً للمصادر الغربية التي ذكرت أنه يتكون من 230 إلى 300 قطعة بحرية،[2] وقد انطلق الأسطول العثماني من ميناء أستانبول في ربيع سنة 979هـ / 1571م،[3] ليجوب خلال عدة أشهر السواحل الشرقية وليعيث في بعضها، وقد أدى خروج الأسطول المبكر إلى استنفاذ طاقة الجيش بسبب الملل والإعياء بعد طول انتظار وتحرك مستمر وتوقع هجوم أسطول الحلفاء. وهذا بينما تحرك الأخير متأخراً من ميناء "مسينا" في إيطاليا بتاريخ 16 سبتمبر بقيادة "الدوق خوان النمساوي"[4] ومتكوناً من 208 سفينة.[5] وفي يوم 17 أكتوبر 1571، فاجأ أسطول الحلفاء الأسطول العثماني عند خليج ليبانتي (LEPANTE غربي اليونان) وتمكن من قطع الطريق عليه ومن إلحاق هزيمة كبيرة بالأسطول العثماني، فلم ينجُ من الأسطول العثماني إلا الثلاثون سفينة التي كانت تحت قيادة "قلج علي باشا"، وبلغت خسائر العثمانيين - حسب بعض المصادر – 30.000 قتيل و 3.000 أسير، كما تمكن الحلفاء من تحرير 15.000 من الأسرى الأوروبيون الذين جندوا للتجديف على سفن الأسطول العثماني؛ أما خسائر قوات التحالف فوصلت إلى 8.000 قتيل و 21.000 جريح وفقدوا عشرة سفن من أسطولهم.[6] والسؤال هنا ماذا ترتب على هزيمة العثمانيين في موقعة ليبانتي البحرية ؟

لقد تضاربت الدراسات، وآراء المؤرخون في أمر تقيّم موقعة ليبانتي، فذكر البعض أنها لم تؤدّ إلى نتائج حاسمة، بينما ذكر البعض الآخر أنها أدت إلى نتائج ضخمة، وعلى أي حال، فإن الصراع في البحر المتوسط لم يحسم في موقعة ليبانتي، ولعل أهم ما أدت إليه هزيمة الأسطول العثماني، عدم تمكنه من تقديم المساعدة لبقايا المسلمين المضطهدين في أسبانيا.[1] ومن جهة أخرى

---

[4] جلال يحيى، المرجع السابق، ص175.
[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص173، 174.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص99.
[3] عزيز سامح، المرجع السابق، ص230.
[4] يرد في بعض المصادر باسم "دوان جون درتريش" (D. Juand' Autriche) وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل الخامس، ولد سنة 1545، أراد أخوه الملك فيليب الثاني، أن يدخله سلك الرهبنة، فرفض، فعينه قائد أعلى أحد جيوشه، وفي سنة 1570، أوكل إليه مهمة قمع ثورة مسلمي غرناطة (1568 – 1570). روسو، المصدر السابق، ص97.
[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص175.
[6] المرجع نفسه، ص176.
[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص176.

وعلى المدى البعيد، فإن نكسة الأسطول العثماني في ليبانتي كانت ذات تأثير محدود من الناحية الاستراتيجية العسكرية، فلم يتم القضاء تماماً على قوات الإمبراطورية العثمانية ذات الإشراف الواسع على أوسع منطقة جغرافية بامتدادتها القارية البحرية والبرية، فقد كان لديها القدرة – مع أقاليمها وولايتها العديدة – على تجديد أسطولها،[2] و سيؤيد تخليص تونس – من السيطرة الإسبانية نهائياً – ذلك كما سنرى.

بعد انهيار رابطة الحلفاء إثر موت "البابا بيوس الخامس" سنة 1572، وإبرام البندقية معاهدة سنة 1573 مع الدولة العثمانية، والتي دفعت فيها نضير ما أقدمت عليه،[3] استمرت أسبانيا في حربها مع الدولة العثمانية بعودتها إلى سياستها التقليدية تجاه الإيالات المغربية.

ففي يوم 7 أكتوبر 1573 – وهو تاريخ الذكرى الثانية لموقعة ليبانتي – انطلق الأسطول الأسباني بقيادة "دون جوان" من ميناء مسينا – في صقلية – ووصل مساء اليوم التالي أمام قلعة حلق الوادي، وتكونت قوات الحملة من 13.000 إيطالي و 9.000 أسباني، و 5.000 ألماني على متن 107 سفينة حربية، بالإضافة إلى 30 سفينة نقل ذخائر وعدد من سفن التموين، وفي يوم 9 أكتوبر، بدأت عملية إنزال القوات في حلق الوادي، وفي اليوم التالي بدأ الزحف على مدينة تونس، وتم احتلالها دون مقاومة، إذ انسحبت قوات الحامية العثمانية إلى القيروان بانتظار الإمدادات،[4] وبعد أن عاثت الجيوش المسيحية بالبلاد التي هجرها أهلها إلى الضواحي،[5] عقد "دون جوان" المجلس العسكري للحملة، وتقرر حكم المدينة باسم الملك الأسباني، وأختير لحكم تونس "الكونت دي سير باللون"، وهو أحد كبار ضباط الحملة، وذلك بمشاركة محمد بن الحسن المسعود الحفصي – وهو أخو أبو العباس أحمد الحفصي، الذي عاد إلى تونس مع الحملة الأسبانية ولكنه رفض الحكم بحسب الشروط الأسبانية.[6] وبعد ذلك ترك "دون جوان" في حامية مدينة تونس (8000) جندي، بالإضافة إلى (1000) جندي في قلعة "حلق الوادي" وغادر إلى "بنزرت" حيث تم الاستيلاء عليها في 25 أكتوبر، ليغادرها في يوم 2 نوفمبر متوجهاً إلى صقلية.[1]

وبعد انقضاء خريف 1573م، وشتاء 1574م وقرب فصل الربيع – وهو فصل إبحار الأسطول العثماني إلى البحر المتوسط – تواترت الأنباء بقرب وصول العثمانيين لاسترجاع تونس،[2] إذ أن الباب العالي كان قد بدأ بالتنسيق لهذه الحملة ذات الأبعاد الخطيرة على مستقبل وحدة الإيالات المغربية العثمانية الإسلامية، ذلك أن بقاء الحاميات الأسبانية في تونس سوف يمكنهم

---

[2] المرجع نفسه، ص177.

[3] المرجع نفسه، ص178.

[4] روسو، المصدر السابق، ص97.

[5] عن تعدّيات جيوش الحملة في مدينة تونس يقول ابن أبي دينار: "وأهين المسجد الأعظم (جامع الزيتونة) ونهبت خزائن الكتب التي به، ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع بها من دواوين العلوم ... وربط النصارى خيولهم بالجامع الأعظم..."؛ المؤنس، ص175، 176. ويقول الوزير السراج:" وألقيت تصانيف الدين بالأزقة تدوسها حوافر الخيل والرجال... وضُربت النواقيس وربطوا الخيل بالجامع الأعظم...". الحلل السندسية، ص1104، 1105. ويعقّب، ابن أبي الضياف، على إتلاف مكتبة جامع الزيتونة، قائلاً: "وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فإنها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة". إتحاف أهل الزمان...، ج2، ص21. انظر روسو، المصدر السابق، ص98.

[6] أحمد بن أبي الضيّاف، المصدر السابق، ج2، ص21؛ روسو، المصدر السابق، ص98.

[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص104.

[2] عزيز سامح، المرجع السابق، ص245، 246.

شـيئاً فشـيئاً من ضـرب نفوذ العثمانيين في المنطقة، وإحلالهم محلهم، أما إذا وفق العثمانيون في القضـاء وبشـكل نهائي على الحاميات الأسـبانية في تونس، فسـيؤدي ذلك إلى تثبيت أركان الإيالات المغربية والحفاظ على مميزاتها الخاصـة ضـمن تبعيتها للإمبراطورية العثمانية وهذا ما سـوف يتم بالفعل.[3]

- الحملة العثمانية وتخليص تونس من الاحتلال الأسباني سنة 1574م:

كانت الأوامر قد صـدرت من الباب العالي إلى الحكّام العثمانيين في أقاليم البحر المتوسـط، تطالبهم بالاستعداد والتهيؤ للحملة المقررة على تونس مع بداية موسم الإبحار أوائل محرم من سنة 982هـ.[4]

وأُحيط حيدر باشا في القيروان وكذلك حكّام إيالتي طرابلس والجزائر بقرار السلطان سليم الثاني: "لقد جهزنا لفتح حلق الوادي اللعينة، التي سببت الاحتكاك والفساد في الولاية والتابعة حالياً لأسـبانيا، جهزنا لتسـخيرها 300 من المراكب، شـبيهة بالكواكب... وعدداً وافراً من الجنود، وسيتوجهون في أوائل محرم من السنة المقبلة، وحالما يصلكم أسطولي المنصور، تكونون ورمضان باشـا الذي هو أمير أمراء جزائر الغرب، ومصـطفى باشـا أمير أمراء طرابلس، وأحمد عرب باشـا أمير أمراء جزائر الغرب سـابقاً وأنت على قلب واتجاه واحد فترجعون وتنظرون أيها أنسـب، محاصرة حلق الوادي أو حصار البستون...".[5]

وتشـير بعض المصـادر إلى أن الأسـطول العثماني الموجه لاسـتعادة تونس كان يتكون من 300 سفينة تحمل حوالي 40.000 مقاتل ولقد كان هذا الأسطول الضخم بقيادة الوزير (سنان باشا) و(قلج علي باشا) الذي تولى القيادة البرية فور وصول الأسطول إلى سواحل تونس في يوم 11 – 7 – 1574م، وبعد قتال عنيف دام حوالي 6 أسـابيع تم القضـاء نهائياً على قلعة حلق الوادي الأسـبانية التي سـقطت بتاريخ 25 – 8 – 1574م.[1] ثم تحول العثمانيون إلى مدينة تونس، التي كانت في الوقت نفسه قد تم محاصرتها من قبل جيش طرابلس بقيادة والي طرابلس (مصطفى باشا) وجيش القيروان بقيادة حيدر باشـا، وانضـم إلى الجيشـين كذلك جيش مصـري تحت قيادة (إبراهيم بك)، وجيش عثماني من قبرص تحت قيادة (محمود بك) وأحكمت هذه الجيوش حصـار ها مع الأسطول على قلعة تونس التي سقطت في يوم 13 – 9 – 1574م.[2]

---

[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص105.

[4] عزيز سامح، المرجع السابق، ص246.

[5] نقلاً عن عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص105؛ البستيون: القلعة الثانية التي أنشأها الأسبان مؤخراً في مدينة تونس.

[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص106.

[2] عزيز سـامح، المرجع السـابق، ص246؛ وأما أحمد بن أبي الضـياف، فذكر أن تاريخ خروج الأسـطول من أسـتانبول في: "غرة أشـرف الربيعيين سنة أحد وثمانين وتسعمائة (981هـ - 1573م)" ووصـوله إلى تونس "في الرابع والعشـرين من الشـهر" [ربيع الثاني] وسـقوط قلعة حلق الوادي "لست خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (981هـ - 1573م)" وسقوط حصن البسيتون في مدينة تونس في "يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الأولى سـنة إحدى وثمانين وتسـعمائة (981هـ - 1573م)". أحمد بن أبي الضـياف، المصـدر السـابق، ج2، ص23، 24.

وهكذا أدخل هذا النصـــر إقليم تونس في نطاق الدولة الإســـلامية الموحدة، تحت قيادة الإمبراطورية العثمانية، وفي خضم هذه الكارثة التي حلت بالنصارى في تونس، أُسر الأمير محمد بن الحسن المسعود، وانتهت بأسره الدولة الحفصية (603هـ - 981هـ)[3] وكذلك وقع في الأسر (الكونت سير بالليون) والذي تم افتداؤه من قبل بلاط روما بعدد من الأسرى المسلمين المعتقلين بروما، وكان من بينهم ابن (قلج علي باشا) الذي أُسر في معركة ليبانتي.[4]

وقبل عودة سنان باشا إلى الإستانة، عمل على تنظيم إدارة البلاد وحكومتها، على نمط ما تم إجراؤه في إيالات مصـــر والجزائر وطرابلس، فتم الإبقاء على قوة عثمانية بلغ تعداد ها 4000 جندي، مقســـمين إلى 40 فرقة وعُين على رأس كل منها قائداً منح لقب "داي"، وتم تعيين قاضٍ لإجراء الأحكام الشـــرعية بين الناس، وأُنشـــئ الديوان وقد اقتبس نظامه من ديوان مصـــر وديوان الجزائر، وتم تعيين "أمير لواء" لضـــبط الأوطان وتقرير رعاياها واســـتجلاب جباياها"[5] ووقع اختيار (سنان باشا) على عامل القيروان سابقاً (حيدر باشا) لشغل هذا المنصب.[6] وبهذا أصبحت تونس باشـــوية وانجلى عليها الاحتلال الأســـباني، واضـــطر (فيليب الثاني) - الذي تمر خزينته بصعوبات مالية، وانشغلت حكومته بثورات الأراضي المنخفضة، وتحركات الإنجليز والفرنسيين في إيطاليا - إلى أن يصرف النظر عن محاولة الانتقام لما حدث في تونس، ثم ليوافق بعد ذلك على عقد هدنة مع الدولة العثمانية سنة 1581، واحتفظت أسبانيا بمواقعها في "مليلة والمرسى الكبير ووهران" وخرج المغرب العربي من هذا الصراع وقد أخذ شكله الحديث، والذي يشتمل على ثلاث وحدات وهي طرابلس وتونس والجزائر؛ علاوة على المغرب الأقصى في أقصى الغرب.[1]

وهكذا تأسس في شمال أفريقيا ما أطلق عليه العثمانيون في البداية اسم (أوجاقات الغرب)[2] ثم الإيالات المغربية. وهي حسب تاريخ تأسيسها الجزائر (1518)، فطرابلس الغرب (1551)، فتونس (73-1574).

وبدخول إقليم تونس في نطاق الإمبراطورية العثمانية، امتدت هذه الأخيرة، فشـــملت جميع أنحاء الوطن العربي عدا مراكش في أقصى المغرب، وكان لهذا الامتداد أثره السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فقد قســـم العثمانيون البلاد العربية إلى مجموعة من الإيلات بلغ عددها "أربعة عشـــر إيالة" ضمنها إيالات المغرب الثلاثة، وقد تشابهت هذه الإيالات في أنظمة حكمها، فقد كان يحكم كلٌ

---

[3] أحمد بن أبي الضيّاف، المصدر السابق، ج2، ص25.

[4] روسو، المصدر السابق، ص104.

[5] حسين خوجة، نيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس، 1975) ص88، 89.

[6] روسو، المصدر السابق، ص105.

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص182.

[2] حســـب المؤرخ التركي أرجمند كوران: رأى الباب العالي أنه من المناســـب لتأمين وحدة الإمبراطورية العثمانية! أن يفصـــل بين إدارة أوجاقات الغرب بتعيين ولاة مستقلين لكل من الأوجاقات الثلاث لمدة ثلاث سنوات. وكان ذلك بعد وفاة قلج علي باشا سنة 1587، الذي تقلد بعد معركة ليبانتي حتى تاريخ وفاته منصـــب "القائد العام للأسـطول العثماني"، وكانت الأوجاقات الثلاث تابعة لوزير البحرية أو (القائد العام للأسـطول العثماني). وبذا منع الباب العالي أن تكون إدارة الأوجاقات الثلاث بيد شـخص واحد ولمدة طويلة. إلا أن النتيجة جاءت عكسـية، إذ ضـعفت روابط الأوجاقات بالدولة العثمانية، ذلك أن الباشـوات المولّين لمدة ثلاث سـنوات لم يكن همهم إلا جمع الثروات خلال هذه المدة قبل عودتهم إلى اسـتنبول. وترتب على فسـادهم أن انتقلت إدارة الإيالات إلى جند الانكشـارية الذين اكتسـب ديوانهم قوة ونفوذاً، وصـار الباشـاوات موظفين فقط برئاسـة الاحتفالات الرسـمية وبعقد المعاهدات. انظر: أرجمند كوران، السـياسـة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسـي للجزائر (1827-1847)، ترجمة: عبدالجليل التميمي، ط2، الشركة التونسية لفنون الرسم، (تونس، 1974) ص14.

منها والٍ "باشا" يتم تعينه لمدة ثلاث سنوات بمرسوم من قبل السلطان العثماني.[3] ولقد جرت العادة أيضاً بالإضافة إلى مرسوم تعيين الوالي في الإيالات العثمانية، أن يصدر الباب العالي "فرماناً" بتعيين كبار الموظفين في المناصب القيادية في الإيالة، مثل "قاضي القضاة"، والدفتر دار[4] وقادة الفرق العسكرية التي ترابط في الإيالة، ويشكل هؤلاء مع الباشا وكبار العلماء والوجهاء ديواناً استشارياً يساعد الباشا في شؤون الحكم والإدارة.[5] وكان الباب العالي يحرص على الاعتراف بالسيادة العثمانية على الإيالات، وعلى أن ترسل له الجبايا السنوية، وعلى أن يذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على المنابر، وعلى أن تسك العملة باسمه، وعلى أن ترابط في الإيالات بعض الفرق العسكرية العثمانية (يُطلق عليها اسم الأوجاقات) وهي حاميات عسكرية مهمتها التصدي للأخطار الخارجية، والحفاظ على الأمن الداخلي.[1]

غير أن هذا النظام لم يستمر طويلاً في الإيالات المغربية، فقد أخذ أفراد الحاميات العسكرية (فرق الانكشارية[2]) يستبدون بالوالي، حتى أصبح لا يعقد أمراً إلا من خلال هذه الفئة، إلى أن انتهى الأمر إلى سيطرتها الكاملة، باختيار أحد أفرادها لحكم البلاد، وتبع هذا النظام العسكري الاستبداد والظلم وإرهاق الشعب، الذي يعاني في الوقت نفسه، فتك الفقر والجهل والأوبئة. وقد كانت هذه المساوئ هي الهموم المشتركة للإيلات المغربية بصورة عامة آنئذٍ، فما يقع في طرابلس يعاد مثله في تونس أو الجزائر.[3]

ولقد كانت الجزائر في عهد (البايلربايات)[4]، شبه عاصمه للإيلات المغربية، ولذلك كان ممثل الدولة العثمانية في الجزائر يحمل لقب (بايلرباي - أي رئيس البايات)، ولكن هذا الإ شراف لم يستمر طويلاً، فقد انفصلت تونس عن تبعيتها للجزائر سنة 1590 على إثر ثورة عسكرية فرضت

---

[3] حسين خوجه، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس) ص23.

[4] رئيس إحدى المؤسسات العثمانية الهامة التي تعنى بالشؤون المالية (حساب واردات ومصروفات الدولة) تسمى (الدفترداراية).

[5] عبدالعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ....، ج2 ، ص945 .

[1] عبدالعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ....، ج2، ص945.

[2] الإنكشارية أو النيكشايرية أو الإنكشايرية: وهي كلمات محرفة عن أصلها التركي "يني كشاري = YENICERY" ومعناها "الجيش الجديد" وهو جيش أنشئ في عهد السلطان العثماني أورخان عام (1326) إلى أن أصبح عماد الدولة في غزواتها وفتوحاتها العديدة في البر والبحر، واستمر على ذلك إلى أن ظهر فيه العسف والجور، وخرج أكثر ضباطه وقادته عن حدود اللباقة والأدب، فكان له نفس الدور في الانتصارات التي أحرزها العثمانيون وكذلك في تخريب الدولة وانهيارها بعد تدخلات قادته و ضباطه في شؤون الدولة، واستطاع السلطان محمود الثاني القضاء عليهم وحل هذا الجيش سنة 1826. انظر: عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية...، ج1، ص471-558. وكذلك: عبدالرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية (الجزائر، 1955)، ص284.

[3] أمحمد سعيد الطويل، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832) دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت، 2002) ص45، 46.

[4] مر الحكم العثماني في الجزائر بأربعة مراحل متتالية طبقاً لعهود أنظمة الحكم:

- المرحلة الأولى، وتعرف بعصر البايلربايات أو البكوبكوات، وتمتد من عام 1518 حتى عام 1587.
- المرحلة الثانية، وتعرف بعصر الباشوات، وتمتد من عام 1587 حتى عام 1659.
- المرحلة الثالثة، وتعرف بعصر الأغاوات، وتمتد من عام 1659 حتى عام 1671.
- المرحلة الرابعة، وتعرف بعصر الدايات، وتمتد من عام 1671 حتى عام 1830. انظر يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر، د.ت) ص261؛ صلاح العقاد، دراسات في تاريخ المغرب الحديث...، ص33.

أحد أفراد الانكشارية حاكماً للإيالة أطلق عليه اسم "الداي"،[1] وكذلك انفصلت طرابلس الغرب سنة 1603،[2] وأصبح يحكم كلٌ منهما حاكماً يتصل بالآستانة مباشرةً.

على أن تبعية هذه الإيالات المغربية لحكومة الأستانة لم تكن تبعية مباشرة بالمعنى الدقيق، فقد تمتع حكام الإيالات بصلاحيات واسعة داخل إيلاتهم، وحتى على صعيد العلاقات الخارجية إذ أن عدم تدخل حكومة الباب العالي في شئون الإيالات كان ظاهرة عامة في نظام الدولة العثمانية آنذاك،[3] لاسيما بعد تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة العثمانية، وظهور بعض الأسر الحاكمة ذات النزعة الاستقلالية، كالزيديون في اليمن، والشهابيون في لبنان وآل العظم في الشام[4] والأسرة الحسينية في تونس سنة (117هـ / 1705م) والأسرة القرمانلية في طرابلس سنة 1711 م.

الخاتمة :

وأخيرا يمكنا القول أن معركة تونس كانت آخر حلقة هامة في تاريخ الصراع الأسباني العثماني في الحوض الغربي من البحر المتوسط في القرن السادس عشر، ونخلص من خلال تتبعنا لمراحل هذا الصراع إلى نتيجة استدعاء الهجمات الصليبية لتأسيس الايالات المغربية تباعا – الجزائر 1518- طرابلس الغرب 1551-تونس 1574-و تحتم تبعيتها للدولة العثمانية وذلك بسبب الضعف و التفكك الذي كان يعانيه المغرب الإسلامي وقيام عدة دويلات ضعيفة ابتداء من دويلات الطوائف بالأندلس مرورا بالمغرب الأقصى والأوسط و الأدنى و هذا في طور الضعف العام و التفكك الذي كانت تعايشه الدولة الإسلامية وقتذاك و في الوقت نفسه الذي كان فيه الغرب الأوربي يستجمع قواه تحت راية الصليب ليتمكن من إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس ومتابعة تقدمه في بلاد المغرب .لقد استمرت الصبغة الدينية لهذا للصراع، بداية من الحروب الصليبية والحركة الخاصة بإبعاد المسلمين عن الأندلس في القرن الحادي عشر. وكان ذلك سبباً "رئيسياً" في تبلور المعركة في شكل صراع ديني بين المسيحية والإسلام استمر إلى ما بعد سقوط القسطنطينية وغرناطة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مع الأخذ بالاعتبار نسبية العامل الاقتصادي في معظم الصراعات عبر التاريخ. . فبعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، واصل العثمانيون تقدمهم في أوروبا حتى أسوار فيينا سنة 1529م، ونظر الأوروبيون إلى الانتصارات العثمانية على أنها فتوحات إسلامية، ووقر في أذهانهم أن أي نصر عسكري يحققه العثمانيون، إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية "فباسم الإسلام فتح السلطان "محمد الثاني" عاصمة الدولة البيزنطية، واتخذها عاصمة لدولته، واستبدل اسمها بإستانبول ومعناه "دار الإسلام" وتداعت إلى أفئدة الأوروبيين ذكريات الفتوحات الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام".

وأمام هذا الزحف العثماني لم يكن من دول أوروبا من تهيأت لها الظروف لمواجهته إلا أسبانيا التي توحدت عام 1481م، وتمكنت من كسر الحصار الإسلامي حول أوروبا والذي استمر

---

[1] كلمة "داي" تعني (العم) بلهجة رياس البحر المغاربة، انظر، العقاد، المرجع السابق، ص29.
[2] بروشين، المرجع السابق، ص59.
[3] المرجع نفسه، ص37 .
[4] عبد الكريم رافن، المرجع السابق، ص230، 231، محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ج2، ص3.

حتى سقوط غرناطة سنة 1492, و مواصلة غزو شمال أفريقيا ,كما اكدت الملكة إيزابيلا Isabelle، في وصيتها على عدم الانقطاع عن محاربة المسلمين أعداء الدين.

لقد حاولت بعض القيادات المغربية التصدي للهجمات الأوروبية، ولكنها فشلت في ذلك لضعف إمكانياتهم العسكرية والاقتصادية، وافتقادهم للوحدة السياسية، وعدم والاهتمام بالأوضاع الداخلية، وبالتالي عدم إمكانية مواجهة العدو الخارجي، ومثال ذلك "بنو زيان" الذين حاولوا التصدي للاحتلال الأسباني في وهران عام 1509م. إلا أن الأمر انتهى بهم إلى عقد صلح مع الأسبانيين سنة 1512، اعترفوا فيه بالاحتلال الأسباني لعدة موانئ في غرب الجزائر. فأدى هذا الاعتراف إلى الحد من الخطر الخارجي بالنسبة "لأمراء بنو زيان"، ولكنه أظهرهم بمظهر المتخاذلين في ظروف حرب دينية معلنة مع الأسبان وتزايد نزوح المسلمين المضطهدين من الأندلس، وبالتالي أدى هذا إلى انفصال القيادة عن قاعدتها، ومهد كذلك لاتجاه الرأي العام للبحث عن قيادة بديلة.

وفي هذه الظروف ظهرت على ساحة الصراع في غرب البحر المتوسط قوة جديدة، غيرت مجرى الأحداث تمثلت في الأخوين (عروج وخير الدين بربروسا) اللذان تمكنا وبمؤازرة الإمبراطورية العثمانية من التصدي لهجمات الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) على بلدان المغرب الإسلامي، وابتدأ التواجد العثماني الرسمي في هذه المنطقة بضم الجزائر، كأول إيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية سنة 1518 تلاها بعد ذلك تأسيس إيالاتي تونس وطرابلس الغرب.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: المصادر:

1- **ابن أبي الضياف**، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: عمر شمام، ج1، الدار التونسية للنشر (تونس، 1989).

2- **ابن أبي دينار**، (أبوعبدالله محمد أبوالقاسم القيرواني) المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، تحقيق، محمد شمام، ط3، المكتبة العتيقة (تونس، 1387هـ).

3- **ابن غلبون**، (أبي عبدالله محمد بن خليل) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، عني بتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، ط2، مكتبة النور (طرابلس، 1967).

4- **الأنصاري**، (أحمد بيك النائب) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، الناشرون دارف المحدودة (طرابلس – لندن، 1984).

5- **الوزير السراج**، (محمد بن محمد الأندلس ت. 1149هـ / 1736م) الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة (تونس، 1970).

6- **خوجه**، حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس).

7- **روسو**، البارون ألفونص، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1992).

8- **فيـــــــــرو**، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالكريم الوافي، ط3، منشـــورات جـامعـة قـاريونس (بنغـازي، 1994).

ثانياً: المراجع:

1- **أبوعجيلـــــــة**، محمد الهادي، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711هـــــ - 1835م، وأثره على علاقتها بالدول الأجنبية، منشـورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1997).

2- **الجيلالـــــــي**، عبدالرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية (الجزائر، 1955).

3- **الـــــــــزاوي**، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط3، دار الفتح – دار التراث العربي (ليبيا، 1969).

4- **ـــــ**، الطاهر, أحمد، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، ط1، دار الفتح للنشر (بيروت، 1970).

5- **الشنـــــــــاوي**، عبدالعزيز، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986).

6- **ـــــــــ** ، عبدالعزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 4 أجزاء، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986).

7- **الطويـــــــل**، أمحمد سعيد، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832) دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت، 2002).

8- **العسلـــــــــي**، بسام، خيرالدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1475) دار النفائس (بيروت، 1980).

9- **العقـــاد**، صلاح، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1962).

10- **ـــــــــ** ، صلاح، المغرب في بداية العصور الحديثة، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية (القاهرة، 1963).

11- **المدنـــــــــي**، أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا "1492 – 792"، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، 1976).

12 **بروشيـــــــن**، ن. أ.، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة وتقديم/ عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1991).

14- **برينيـــــــــا**، كوستانزيو، طرابلس من 1510 إلى 1580، تعريب: خليفة التليسي الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 1985).

15- **بشتـــــاوي**، عادل سعيد، الأندلسيون والموراكة، مطابع International Press (القاهرة، 1983).

16- **بـــــــوزورث**، وشاخت، تراث الإسلام، ترجمة: محمد زهير وأخرون، ج1، ط2، سلسلة كتب شـهرية يصـدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (ضـمن مجلة عالم المعرفة) (الكويت، 1988).

17- **بوعزيـــــــز**، يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر، د.ت).

18- **رافـــــــــق**، عبدالكريم، العرب والعثمانيون (1516-1916)، مطابع ألف با – الأديب (دمشق، 1974).

19- **رزوق** ، محمد، الأندلســيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، دار أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء، 1989).

20- **روســـــــي**، أتوري، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة: خليفة التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية، (طرابلس، 1969).

21- ـــــــــ ، أتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب (طرابلس – تونس، 1991).

22- **ريـــــــاض**، زاهر، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1981).

23- **سامـــــح**، عزيز، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية (بيروت، 1989).

24- **عنـــــــان**، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مطبعة التأليف للنشر والترجمة (القاهرة، 1970).

25- ـــــــــ ، محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة انجاز بنجي (القاهرة، د.ت).

26- **كـــــــــوران**، أرجمند، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1847)، ترجمة: عبدالجليل التميمي، ط2، الشـركة التونسـية لفنون الرسـم (تونس، 1974).

27- **مؤنـــــــــس**، حسين، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط2، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1993).

28- **--------** ، حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، المجلد الثاني، الجزأن الثاني والثالث، دار العصر الحديث (بيروت، 1992).

30- **مشعـــــل**، محمد شاكر، الشمال الأفريقي والعثمانيون – ليبيا، العصر العثماني الأول 1551 – 1711 دار النهضة العربية (القاهرة، 1985).

31- **منصـــور**، محمد صالح، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1996).

32- **هيـــس**، أندرو، افتراق العالمين الإسلامي المسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة: أحمد عبدالرحيم مصطفى، منشورات ذات السلاسل (الكويت، 1986).

33- **يحيـــــى**، جلال، المغرب العربي – الحديث والمعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الإسكندرية، 1983).

ثالثاً: الدوريات:

1- **أميـــن**، محمد محمد، "شمال أفريقيا والحركة الصليبية 1189 – 1390م"، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد1 (القاهرة، 1974).

2- **التميمـــي**، عبدالجليل، "الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن الســـادس عشـــر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10 (تونس، 1978).

3- **ـــــــ** ، عبدالجليل، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 29 – 30 (تونس، 1983).

4- **ـــــــ** ، عبدالجليل، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541" المجلة التاريخية المغربية، عدد 30 (تونس، 1975).

5- **الشريـــف**، م. هـ، الاتجاهات الجديدة في المغرب العربي – الجزائر – وتونس – وليبيا، تاريخ أفريقيا العام – القرن التاســـع عشـــر في أفريقيا حتى ثمانينياته، المجلد الســـادس، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونســـكو، 1996).

6- **جحيـــدر**، عمار، "الجهاد البحري في العصر الحديث، ملاحظات ومصادر"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الخامس، (طرابلس، 1985).

7- **حسيـــــن**، ممدوح، "جربة والهجمات الصليبية على أفريقيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر" مجلة قاريونس العلمية، السنة الثامنة، العدد الأول والثاني، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1995).

8- **شريـــــف**، محمد الهادي، "الجزائر وتونس وليبيا: العثمانيون وورثتهم"، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الخامس، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو، 1996).

9- A.P.VELLA, "The Relatations between the order of MALTA and TRIPOLI", مقال ضمن أعمال مؤتمر "ليبيا في التاريخ" (بنغازي 16-23 مارس 1968).

رابعاً: الرسائل العلمية:

1- **شويتـــــــام**، أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800 – 1830، رسالة غير منشورة (جامعة الإسكندرية، 1998).

2- **عبدالخالـــق**، مصطفى محمد، علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة القاهرة، 1987).

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

اختبار قابلية المواد الناعمة من السلت والطين لامتصاص الماء في بلطة الرملة الغربية

* أ. د. محمد الغازي الحنفي ** د. محمود الصديق التواتي.

(قسم الجغرافيا – كلية الآداب – البيضاء - جامعة عمر المختار - ليبيا)

العدد السادس – مارس 2016

اختبار قابلية المواد الناعمة من السلت والطين لامتصاص الماء في بلطة الرملة الغربية

ملخص:

إن بلطة الرملة واحدة من حوالي عشر بلطات توجد في السهول الجنوبية للجبل الأخضر، هذه البلطة تصب فيها مياه السيول العكرة التي تنتهي في البلطة مكونةً بحيرات مؤقتة تخلف بعد جفافها رواسب العكورة المتمثلة في المعلقات الغروية من السلت والطين، هذه المواد الناعمة التي تتخلى عنها المياه بعد جفافها شكلت خلال الحقب الرابع أرضية بلطة الرملة بسماكة حوالي 4 متر، ومساحة تقدر بنحو 25 كم^2، إن جفاف مواد الطين الورقية سداسية الشكل تتميز بشراهتها للمياه، لذلك فهي تمتصها وتنتفخ بما يقارب حجمها الجاف، إن مياه البحيرات المؤقتة في بلطة الرملة تجمع في أحسن حالاتها حوالي 25 مليون م^3 لا تدوم في أحسن الحالات لأكثر من ستة أشهر إذا لم تتجدد مياهها، بسبب انتشار المياه على مساحة أرضية البلطة الواسعة وتعرضها للجفاف، هذا ما يبدو لعين الناظر لكن الواقع المائي يبدو غير ذلك فيما لو أخذنا خواص طين وسلت أرضية البلطة الجافة قبل وصول الجريان بعين الاعتبار، لاستنتجنا علمياً أن الطين يمتص قسم كبير من المياه تؤكده هذه الدراسة بأنه يعادل 92.32 % من حجم العينتين الجافتين غير المتشققتين اللتين تم عليهما الاختبار في تزويدهما بالماء نقطة بنقطة بوساطة سيرنك واستخدام ميزان حساس استعمل لغرض معرفة وزن الماء الممتص وحجمه في كل من العينتين المأخوذتين من أرضية البلطة, كما استفيد منه في تقدير التبخر من سطح الطين المبلل والمشبع بالماء والذي يؤدي لتناقص وزن الطين بدلالة الزمن، حيث تبين أن قيمة التبخر من سطح الطين المشبع يساوي 2 ملم/يوم في جو الغرفة في مدينة البيضاء.

إن ما يعتري مواد الطين الجافة في أرضية البلطة من تشقق كلما طال الزمن وازداد الجفاف زادت الشقوق اتساعاً وتطوراً على كامل مساحة أرضية البلطة وسماكتها بسبب فقدان الطين للرطوبة, مما يجعل مياه الجريان الواصل للبلطة تتسرب تحت تأثير الجاذبية الأرضية في شبكة الشقوق المعقدة واللامتناهية والمتصلة ببعضها في كامل حجم رسوبيات البلطة والتي تؤمن سرعة اتصال هيدروليكي في كامل الشبكة، هذا يؤدي لاختفاء حجم من المياه عن عين الناظر في باطن المواد الطينية المكونة لأرضية البلطة مما يجعل بحيرة المياه السطحية ضحلة وقليلة الحجم بالنسبة لما تسوقه السيول من مياه إلى البلطة، في هذه الدراسة تبين أن حجم الماء الذي تخفيه مواد الطين الناعمة في أرضية بلطة الرملة الغربية يساوي تقريبا 6.3 مرة/يوم حجم المياه المفقودة من بحيرة مياه البلطة السطحية عن طريق التبخر، لذلك يهدف هذا البحث لتوجيه الأنظار نحو حجم المياه الممكن استثمارها قبل أو في حين وصولها للبلطة, ويقترح وضع خطة استثمار مائية تنموية تؤدي لتطوير موارد البيئة المحلية, وتأمين المياه الكافية للمجتمع الرعوي المحلي, ولإقامة مشاريع تنموية تؤمن الغذاء والأعلاف في منطقة الدراسة ومحيطها.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

The Ability Test Of Soft Material From Silt And Clay To Absorb The Water In The Western Baltah Al- Ramla

Ph. Dr. Mohammed Ghazi Al- Hanafi [1] Dr. Mahmoud Sadiq Al tawti [2]

[1] Associate Professor, in the Department of Geography, hydrologist. Omar al Mokhtar University- Libya

[2] lecturer, geography in the Department of Geography, Omar al Mokhtar University- Libya Altawty@gmail.com

Abstract:

The baltah (dry lake) of Ramle is one of ten temporary lakes found in the southern plains of Al-Jabal AL Akhdar - libya, this baltah in which the turbid water of the floods is following in to it, at the end it forms in temporary lakes, leaving after drying turbidity of colloidal pendants of silt and clay deposits, these soft materials that left after drying of water formed during Quaternary, the floor baltah of Ramla's thickness is about 4 meters, with the area of 25 km^2, the shape of dry clay is hexagonal materials characterized by absorption of water, so the clay is swelled and the size of it will be equal to the amount of absorbed water, the temporary lake in baltah of Al-Ramla stores about 25 million m^3 of water in best cases, not last for more than six months if not renewed its waters, because of spreading of water on the floor of an area of vast baltah and its exposure to dry, we conclude the clay absorbs a large amount of the water which is confirmed by this study that is equivalent to 92.32% of the size of the two dry samples, during the test under the test we add the water drop by drop with using syringe. We remark that the evaporation from the surface of the wet and saturated mud, that the mud weight decreases in terms of time it was found that the value of evaporation from the surface of the mud saturated equal to 2 mm / day in the atmosphere of a room in the al- Beida City. This study shows that the volume of water that hide mud and soft materials in the floor of the Western baltah Ramla is approximately equal to 6.3 times on day the volume of water lost from the water surface of Lake baltah by evaporation.

تم في هذا البحث اختبار طين أرضية بلطة الرملة الغربية لامتصاص المياه باستخدام ميزان حساس, وباختيار عينتين أخذتا من مواد أرضية القض لقديم الشمالي الجافة والسليمة من التشقق؛ العينة الأولى بلغت مساميتها نحو 42.39% وامتصت مياه زودت إليها نقطة بنقطة بما يقارب 96.27% من حجمها الجاف, العينة الثانية بلغت مساميتها 46.53% وامتصت مياه تعادل نحو 88.37% من حجمها الجاف, وتم خلال الاختبار حساب كل من حجم العينتين جافتين ومبللتين حتى الإشباع بالماء, وأوزانهما النوعية في الحالتين, كما تم اختبار معدل التبخر من سطح العينة الثانية عن طريق تناقص وزنها بدلالة الزمن, والذي بلغ نحو 2ملم/يوم في شهر أبريل في جو الغرفة بمدينة البيضاء, من هذه الاختبارات تبين أن وحدة حجم من طين أرضية بلطة الرملة الغربية قادرة على امتصاص نحو 92.32% من حجمها من مياه السيول التي تصل للبلطة وتغذيها بمياه الجريان السطحي المؤقت الذي يكون في حالات كثيرة بحيرة مائية مؤقتة تحوي في أفضل الحالات نحو 25 مليون م^3؛ لا تدوم في أحسن حالاتها لخمسة أشهر تخدم خلالها الثروة الحيوانية, إن مراقبتنا لغزارة مياه السيول وتكرار حدوثها في أعقاب أكثر من عاصفة مطرية تدل على أن ما يصل للبلطة من مياه السيول قد يزيد عن حجم بحيرتها المؤقتة بأكثر من أربعة أضعاف يمتصها طين أرضية البلطة وتبتلعه الشقوق الطينية في أرضية البلطة المقدر حجم رسوبياتها من المواد الناعمة الرباعية من السلت والطين بنحو 100 مليون م^3, والتي تخفي في بطنها حوالي 92.32 مليون م^3 من المياه الواجب التدخل للاستفادة من القسم الأكبر منها قبل أو حين وصول مياه السيول للبلطة, لكي يستفاد من تلك المياه في تنمية مستدامة, على طول الزمن, للأنظمة البيئية شبه الصحراوية الجافة على الهامش الشمالي للصحراء الكبرى التي تلتقي مع الحدود الجنوبية الخيِّرة لحوض الجبل الأخضر الداخلي.

مقدمة:

إن بلطة الرملة واحدة من حوالي عشر بلطات توجد في السهول الجنوبية للجبل الأخضر, صورة (1)، هذه البلطة تصب فيها مياه السيول العكرة التي تنتهي في البلطة مكونةً بحيرات مؤقتة تخلف بعد جفافها رواسب العكورة المتمثلة في المعلقات الغروية من السلت والطين، هذه المواد الناعمة التي تتخلى عنها المياه بعد جفافها شكلت خلال الحقب الرابع أرضية بلطة الرملة بسماكة حوالي 4 متر، ومساحة تقدر بنحو 25 كم^2، إن جفاف مواد الطين الورقية سداسية الشكل يجعلها تتميز بشراهتها للمياه، لذلك فهي تمتصها وتنتفخ بما يقارب حجمها الجاف، إن مياه البحيرات المؤقتة في بلطة الرملة تجمع في أحسن حالاتها حوالي 25 مليون م^3 لا تدوم في أحسن الحالات لأكثر من ستة أشهر إذا لم تتجدد مياهها، بسبب انتشار المياه على مساحة أرضية البلطة الواسعة وتعرضها للجفاف، هذا ما يبدو لعين الناظر لكن الواقع المائي يبدو غير ذلك فيما لو أخذنا خواص طين وسلت أرضية البلطة الجافة قبل وصول الجريان بعين الاعتبار، لاستنتجنا علمياً أن الطين يمتص قسم كبير من المياه تؤكده هذه الدراسة بأنه يعادل 92.32% من حجم العينتين الجافتين غير المتشققتين اللتين تم عليهما الاختبار في تزويدهما بالماء نقطة بنقطة بوساطة سيرنك واستخدام ميزان حساس استعمل لغرض معرفة وزن الماء الممتص وحجمه في كل من العينتين المأخوذتين من أرضية البلطة, كما

استفيد منه في تقدير التبخر من سطح الطين المبلل والمشبع بالماء والذي يؤدي لتناقص وزن الطين بدلالة الزمن، حيث تبين أن قيمة التبخر من سطح الطين المشبع يساوي 2 ملم/يوم في جو الغرفة في مدينة البيضاء.

إن ما يعتري مواد الطين الجافة في أرضية البلطة من تشقق كلما طال الزمن وازداد الجفاف زادت الشقوق اتساعاً وتطوراً على كامل مساحة أرضية البلطة وسماكتها بسبب فقدان الطين للرطوبة, مما يجعل مياه الجريان الواصل للبلطة تتسرب بسرعة تحت تأثير الجابية الأرضية في شبكة الشقوق المعقدة واللامتناهية والمتصلة ببعضها في كامل حجم رسوبيات البلطة والتي تؤمن سرعة اتصال هيدروليكي في كامل الشبكة, صورة (8)، هذا يؤدي لاختفاء حجم من المياه عن عين الناظر في باطن المواد الطينية المكونة لأرضية البلطة, مما يجعل بحيرة المياه السطحية ضحلة وقليلة الحجم بالنسبة لما تسوقه السيول من مياه إلى البلطة، في هذه الدراسة تبين أن حجم الماء الذي تخفيه مواد الطين الناعمة في أرضية بلطة الرملة الغربية يساوي تقريبا 6.3 مرة/يوم حجم المياه المفقودة من بحيرة مياه البلطة السطحية عن طريق التبخر, لذلك يهدف هذا البحث لتوجيه الأنظار نحو حجم المياه الممكن استثمارها قبل أو في حين وصولها للبلطة, ويقترح وضع خطة استثمار مائية تنموية تؤدي لتطوير موارد البيئة المحلية, وتأمين المياه الكافية للمجتمع الرعوي المحلي, ولإقامة مشاريع تنموية تؤمن الغذاء والأعلاف في منطقة الدراسة ومحيطها على طول الزمن.

نظراً لتعقد الموضوع وصعوبته وأهميته العلمية والتنموية وما يكتنف موارد مياه البلط من غموض, فقد خرج هذا البحث مركباً نتيجة تعقد وتركب المشكلة التي عالجها, إذ اتبع في هذا البحث المنهج العلمي الوصفي والمنهج الكمي والمنهج التجريبي التطبيقي باستخدام الخرائط الطبوغرافية والجيولوجية للمنطقة المحيطة ببلطة الرملة, وتوثيق كثير من حالات جريان سيول بعض الروافد الفرعية وسيول الأودية الرئيسية المغذية للبلطة, ومتابعة بعضها حتى وصولها للبلطة, ومتابعة كيفية انتشار المياه على أرضيتها, ثم متابعة بعض حالات جفاف مياه وبحيرات أرضية البلطة, وهبوط مناسيب مياه بحيرات القضوض في فترات متباعدة والمأخوذة من الواقع الميداني من الباحثين أو من بعض الأصدقاء المحليين, ذلك الواقع الظاهر والمألوف مشهده من الكثيرين يجده القارئ للبحث متابع بالصور الرقمية لعدة مواسم تبدأ من عام 2007 وحتى اليوم, كما يكتشف, من خلال الاختبار الذي أنجزه هذا البحث في تبيان دور طين أرضية بلطة الرملة الغربية في سبر عمقه المبلل نتيجة امتصاص وكنز الكميات الهائلة من المياه التي تصله وتخفيه عن عين الناظر, بوضوح و بصورة جلية أن ما يراه من مياه في بحيرة البلطة مهما بلغت كميتها فهي لا تساوي سوى ربع ما تخبؤه البلطة في طين أرضيتها أو في بطنها من مياه ثارت سيول الأودية بغزارة لتوضع في حسبان خطة تنموية تخدم المجتمع وموارد البيئة المحلية عند وقبل وصولها للبلطة, وليس من أجل تركها فريسة يمتصها ويهضمها طين البلطة ليبددها بهدوء فيما بعد عن طريق التبخر غير المباشر.

مشكلة البحث:

إن أرضية البلط الناتجة والمكونة من مواد رسوبية ناعمة سلتية وطينية سماكاتها تزيد عن 4 م, ومساحاتها المنبسطة التي تزيد في أغلبها عن 20 كم^2 للبلطة الواحدة, والتي تكون في أغلب أوقات السنة جافة ومشققة أحياناً حتى كعب سماكاتها قادرة على شرب وامتصاص قدر من الماء قد يساوي أو يفوق حجم تلك الرسوبيات الطينية, و هي قادرة على إخفاء ذلك الحجم من الماء وبسرعة

عن عين الناظر , لذلك أهملت مياه البلط من الخبراء والقائمين على خطط التنمية المائية في حوض إقليم الجبل الأخضر, إذ لم تساهم المياه الواصلة للبلط, بشكل جدي وفعّال, في خطط التنمية حتى الآن رغم الحاجة الضرورية والماسة للمياه في كل الأماكن والأنظمة البيئية المحلية شبه الصحراوية الجافة المحيطة بالبلط.

إن مساحة كم^2 واحد من أرضية البلطة يعادل 1000000 م^2 وإذا اعتبرنا أن سماكة الرسوبيات الجافة المتشققة تساوي 4م فإن وصول مياه السيول للبلطة سوف يختفي منه في بطن السلت والطين نحو 4 ملايين متر مكعب في أول يوم من مكوث المياه في ذلك الكيلومتر المربع من البلطة, وعليه فعندما تؤخذ بلطة الرملة كحالة للتطبيق فيجب الأخذ بالحسبان أن ما يصل للبلطة قد يساوي 3 أو 4 أضعاف حجم البحيرة المائية التي تبدو على سطح الأرض واضحة للعيان, يدعم ذلك تكوين بحيرة مائية على كامل أرضية بلطة الرملة الغربية عقب جريانين متعاقبين في شهر 2015/11 بلغت سماكة مياهها 31 سم وحجمها بلغ نحو 7750000 م^3 نضبت في 19 يوم فيما بلغ حجم الماء الواصل للبلطة نحو 22077200 م^3 أي ما يفوق حجم البحيرة بنحو 2.85 مرة, من المفترض أن امتصاص الطين السطحي للمياه في البداية يجعل منه في الأسفل طبقة عجينية كتيمة توقف عملية استمرار امتصاص الماء في المستويات السفلى من الطين, لكن الدراسة والقياسات الميدانية لهبوط منسوب مياه برك الخنادق الجانبية للقضوض في بلطة الرملة تؤكد استمرار عملية امتصاص الطين السفلي الناعم وغير المشقق والمطحون بجنازير البلدوزرات للمياه حتى بلوغ درجة إشباعه بالرطوبة, صورة (3), كما أن وجود التشققات المهمة على كامل سماكة الرواسب الطينية في أرضية البلطة قد يسمح بوصول المياه المتسربة نحو أعماق تلك الرسوبيات, لسلوكها عبر شبكة الشقوق المعقدة والمتصلة ببعضها أفقياً ورأسياً في كامل مساحة وحجم أرضية البلطة, صور (من 4 إلى 8, صورة 34), والتي تؤمن اتصال هيدروليكي سريع يوصل المياه لمستويات عميقة نسبياً ضمن الرواسب الطينية؛ وبذلك يلتغي تماماً فرض عمل الطبقة الطينية السطحية العجينية على توقف الرشح أو توقف امتصاص الماء من جهة السطح فقط, ثم إن سرعة انتشار المياه على سطح أرضية البلطة, عند وصولها, وفق الاتجاهات الأربعة في مستوي أفقي من البديهي أن تكون أبطأ بكثير من سرعة جريان المياه الرأسية المتسربة ضمن الشبكة اللامتناهية من الشقوق, المفتوحة والمتسعة نسبياً, والتي تلعب دور الغربال في تهريب المياه تحت تأثير الجاذبية الأرضية نحو الأعماق, صورتين (44 و46), وبناءً على هذا ننوه إلى كل من يهمه الأمر أن من الواجب العمل على استغلال كميات هائلة من المياه قبل أو حين وصولها للبلط الذي لا تساهم مياهه إلا في شرب الحيوانات خلال فترات لا تتجاوز ستة أشهر في أحسن الحالات, صورة (2), إن كميات المياه الواصلة للبلط من السيول في جنوب الجبل الأخضر لو أديرت بحكمة توفر ما لا يقل عن 200 مليون م^3 من المياه في بلطة الرملة لوحدها, فيما لو جمعت في خزانات لشكلت مسطحات مائية دائمة على الهامش الشمالي للصحراء الكبرى, ولخففت من وطأة المناخ المحلي شبه الصحراوي الجاف, ولدفعت عجلة التنمية المستدامة المحلية نحو الأمام, ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث والهدف منه..

هدف البحث:

إلغاء دور طين أرضية بلطة الرملة المتكرر في شرب وامتصاص الماء عن طريق تكوين مسطح مائي دائم فوقه يمنعه من الجفاف والتشقق وتضييع المياه عن طريق التبخر غير المباشر المتكرر لتوفير أكثر من 100 مليون م^3 من المياه تساهم في التنمية المستدامة.

أهمية البحث:

جمعت مياه السيول التي تغسل المواد الناعمة من أحواض أودية السفح الجنوبي للجبل الأخضر, على طول الحقب الرابع, كميات رسوبية من مواد السلت والطين تتجاوز سماكتها 4م فشكلت بذلك أرضية بحيرات البلط المؤقتة التي تنتهي إليها جريانات تلك السيول, هذه الرسوبيات تزداد تشققاً كلما زاد جفافها, والشقوق تتعمق في أرضية البلط بشكل ملحوظ لدرجة أن مياه السيل الجديد تحفر خنادق في أرضيات البلط يصل عمها أحياناً لأكثر من 1م, وقد يتعمق الجريان تحت قشرة رواسب سطحية جافة تبقى تغطيه لفترة, وهذه الظواهر تبدو مشاهدتها سهلة في أعقاب الجريان على جوانب القضوض, القنوات, المحفورة في البلط, صور (من 5 إلى 8).

يتجمع على أرضية بلطة الرملة الغربية البالغة مساحتها حوالي 25 كم^2 أحياناً بحيرة مائية مؤقتة تجف مياهها قبل انتهاء 5 أشهر, صورة (1), ذلك يعني أن نحو 25 مليون م^3 من مياه سيول الرملة والحصيِّص والقوس وبالعطر والخريف وبعض فروع القرنة الشرقية تتبخر وتذهب هباءً دون أن يستفاد منها باعتبار أن هذه المياه الواصلة للبلطة قليلة ولا تستحق العناء والاستثمار في التنمية, دون الأخذ في الحسبان الكفاءة العالية على امتصاص وكنز كميات كبيرة من المياه في مواد أرضيتها الناعمة من السلت والطين قد تبلغ على الأقل أكثر من 4 أضعاف حجم مياه البحيرة الظاهرة على سطح أرضية البلطة, صورة (25), لذلك يمكن طرح التساؤلات التي تتبناها فروض هذه الدراسة.

فروض الدراسة:

1. هل كميات المياه التي تجلبها كل أودية السفح الجنوبي للجبل الأخضر وتنتهي في حوالي 10 بلطات قليلة ولا يتجاوز معدلها 40 مليون متر مكعب في السنة؟ كما هو سائد في الثقافة المتداولة بين الخبراء والعاملين في مجال المياه في الجبل الأخضر.
2. هل إن حجم المياه الذي يتجمع في بحيرات البلط هو الحجم الفعلي لما تقذفه السيول الخيِّرة في نهاية مطافها في البلط؟
3. هل أخذ في الحسبان دور الرواسب الناعمة من السلت والطين المكونة لأرضيات البلط بسماكة نحو 4م, في شرب القسم الأكبر من المياه الواصلة للبلطة وامتصاصه وإخفائه بسرعة عن أعين الناظرين في شبكة الشقوق اللامتناهية والمعقدة المشابهة في دورها في ابتلاع وتهريب المياه للغربال؟
4. هل تدل البلطة من نفسها عن أهمية ذاتها المائية, أشكال (1, 2, 3)؟ من حيث كبر مساحتها وانبساط أرضها وتكوين السراب الذي يتوه بسببه الزائر لها, واتساع البحيرات المائية المؤقته التي تتكون بها الشبيهة إلى حد ما بالبحار التي لا ترى شواطئها المقابلة, صورة (1), وهذا يترتب عليه سؤالين:

السؤال الأول: إذا كانت البلطة تدل على نفسها من ذاتها, فلماذا أهملت واستبعدت من الخطط التنموية المحلية المائية؟

السؤال الثاني: إذا كانت البلطة لا تدل على نفسها ولا على أهميتها المائية من الناظر والمتأمل لها, أفلا يتبادر إلى ذهن السامع والمتأمل للسيول المتكررة التي تحدث في كل الأودية التابعة لحوض البلطة, والتي تنحدر على كامل طول المنحدر الجنوبي للجبل الأخضر, من الشمال نحو الجنوب, وتداول أحاديث الناس عن أنها تجرف بمياهها كل ما تستطيع وتملأ بمياهها العبارات وتفيض على الطريق الرئيسية المخيلي-الخروبة وتنتشر في منطقة السروال وفي سهول أعالي البلط على مساحات تعد بمئآت الكيلومترات المربعة, مكونةً البرك المائية الضخمة, أن هذه المياه لا تجد في منتهى رحلتها سوى البلطة التي تضمها وتوقف ثورة سيلانها؟ صور (من 10 إلى 24 ومن 35 إلى 42), للإجابة على هذه الأسئلة سعى الباحثان إلى توضيح دور مواد أرضية بلطة الرملة من السلت والطين على قابلية إخفاء كميات كبيرة من المياه في طياتها بفعل ما تمتلكه من خواص فيزيائية وكيميائية تؤهلها لأن تحظى بهذه الدراسة التطبيقية, شكل (2), صور (من 3 إلى 8 ومن 30 إلى 32, 57).

صعوبات تعترض البحث:

1- تبعد بلطة الرملة عن البيضاء بنحو 140 كم, يجتازها الباحثان بسياراتهما الخاصة وبتكلفة ذاتية.

2- لا توجد في البلطة ولا في الأحواض المائية المغذية لها أية أجهزة رصد هيدرومترية أو مطرية.

3- ضرورة متابعة حالات الطقس التي تولد أمطار عاصفية في الجبل والتي تحدث جريانات فجائية.

4- صعوبة متابعة الجريان السطحي في الأودية الرئيسية والفرعية لانتشارها على مساحة 1836كم^2.

5- ضرورة الاعتماد على أفراد مساعدين يصطحبون في الميدان لأخذ القياسات الضرورية.

6- ضرورة الاتصال الهاتفي بأصدقاء محليين في الميدان لتتبع أماكن حدوث الجريان وتوثيقه بحال صعوبة وصول الباحثان لتلك الأماكن في الوقت المناسب.

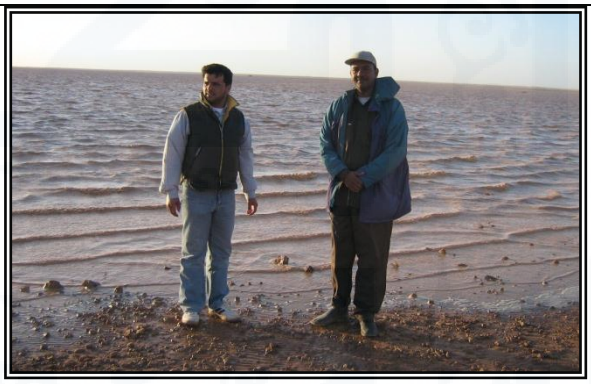

صورة (1): بلطة الرملة متخمة بالمياه في يوم الاثنين الموافق 22.10.2007, بحيرة مياه, شبيهة بالبحر, يزيد

حجم مياهها عن أكثر من 25 مليون م^3 من المياه تبخرت وضاعت في حوالي 150 يوم, وما تخفيه أرضية البحيرة الطينية في بطنها من مياه أعظم بكثير.	صورة (2): ورود الإبل القادمة من طبرق على مياه بحيرة القض القديم الجنوبي في جنوب بلطة الرملة الغربية, الساعة 11:44 يوم الأحد 25.10.2015.

موقع بلطة الرملة الجغرافي والفلكي:

أ- **الموقع الجغرافي:** توجد بلطة الرملة جنوب قرية المخيلي بنحو 14 كم, وهي تعد مصب مياه السفح الجنوبي الشرقي للجبل الأخضر التي تقودها سيول أودية الرملة, القوس, بلعطر, الخريِّف وبعض الفروع الشرقية لوادي القرنة, شكلين (1 و 2), وتتكون أرضيتها من مواد سلت وطين الومينوسيليكاتية رباعية تتوضع فوق صخور جيرية كريتاسية, شكل (3).

ب- **الموقع الفلكي:** تمتد بلطة الرملة ما بين خطي طول ″22°13′55 و ″22°20′53 شرقاً, و بين دائرتي عرض ″31°59′36 و ″32°02′56 شمالاً, شكل (3).

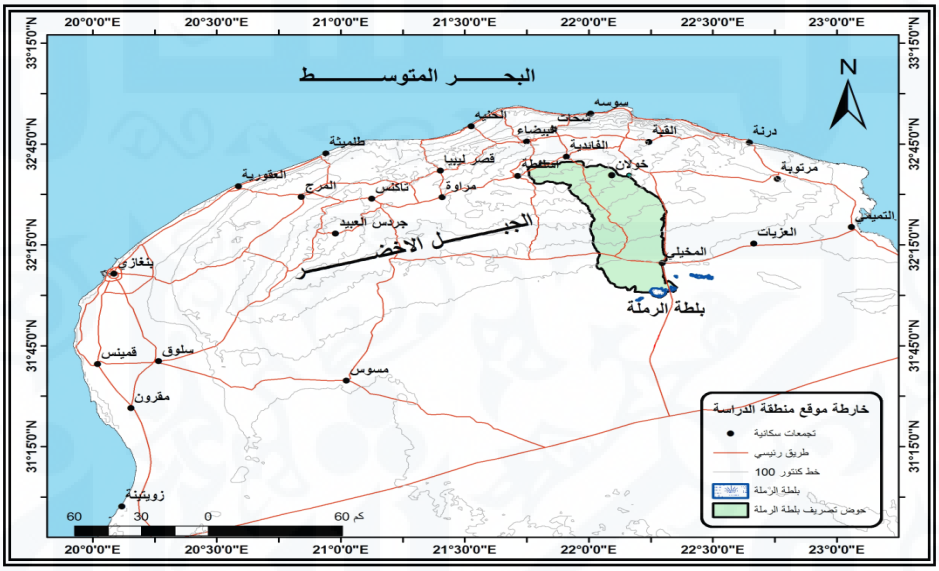

شكل (1): خارطة موقع بلطة الرملة وحوض تصريفها المائي في جنوب الجبل الأخضر.

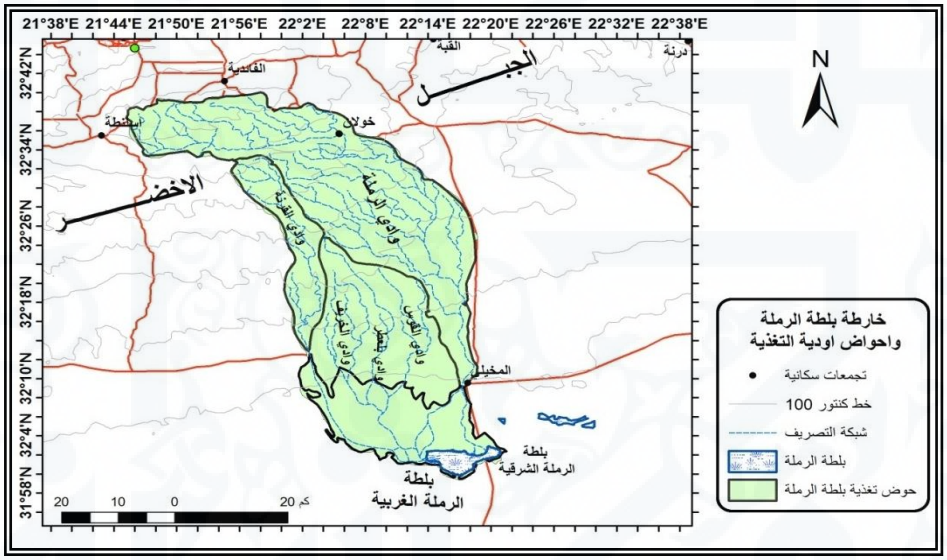

شكل (2): خارطة بلطة الرملة الغربية, 25 كم^2, وحوض الأودية الرئيسية المغذية لها, 1836 كم^2.

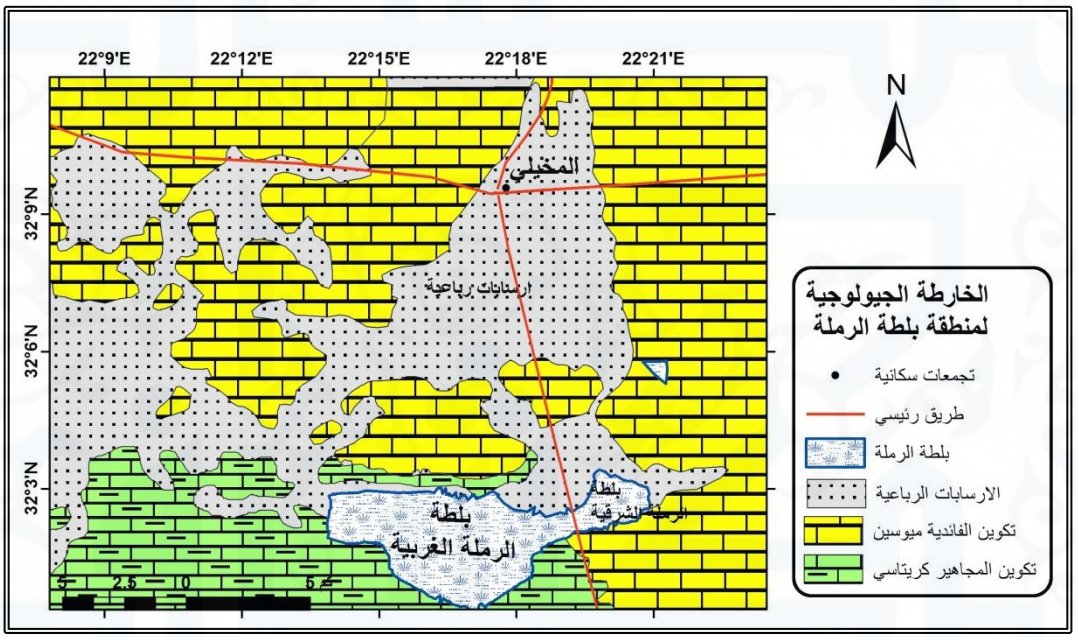

شكل (3): الخارطة الجيولوجية لمنطقة بلطة الرملة, الحدود الفلكية لبلطة الرملة من خط الطول شمالاً. $32^0 02' 56''$ و $31^0 59' 36''$ شرقاً, و بين دائرتي عرض $22^0 20' 53''$ إلى $22^0 13' 55''$

أهم مشاكل طين أرضية بلطة الرملة الغربية:

1- تشقق الطين نتيجة جفافه وتقلص حجمه بفعل تبخر المياه منه, مما يؤدي لشرب المياه الواصلة إليه من جديد من الشقوق تحت تأثير الجاذبية الأرضية, صور (4, 5, 6, 7, 8, 46).

2- امتصاص الطين حجم من المياه يقارب حجمه الجاف, صور (3, 25, 30, 31, 32, 57, 58).

3- إخفاء الحجم الأكبر من مياه السيول الواصلة للبلطة, بسبب شرب الشقوق الطينية للمياه وامتصاص الطين لها, عن عين الناظر وبسرعة فائقة في بطن أرضية البلطة.

4- تبخر المياه من الطين فيما بعد رويداً وببطء كلما تطاول الزمن وزاد الجفاف.

5- بفعل ما تقدم لا يبقى على سطح أرضية البلطة سوى كمية قليلة من المياه تكون بحيرة مائية مؤقتة تنضب في غضون أيام قليلة؛ وقد تدوم في أحسن حالاتها لخمسة أشهر فقط.

صورة (3): هبوط منسوب مياه بحيرات الخنادق الجانبية للقضوض بمقدار 26 سم خلال 7 أيام من وصول الجريان للبلطة,هذا الجريان أعقب أعمال الحفر والتنظيف والتسوية بالآلات الهندسية التي طحنت الطين بجنازيرها وألغت الشقوق, القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية, الاثنين 10.02.2014.

صورة (4): مظهر شبكة الشقوق في أرضية بلطة الرملة الغربية بعد جفاف مياه الأمطار التي سقطت عليها قبل 7 أيام فقط من تاريخ الصورة, الاثنين 10.02.2014.

صورة (5): فعالية التشققات الطينية في تنشيط النحت الأخدودي وفعاليته في تعميق المجاري نتيجة تسرب المياه في مواد طين أرضية البلطة من جراء جريان 02.02.2014 على الجانب الغربي للطرف الشمالي للقض الجديد الثاني في وسط بلطة الرملة الغربية, الاثنين 21.04.2014.

صورة (6): كيفية تطور الخنادق منذ نشأتها, نتيجة تغلغل المياه في الشقوق الطينية في العمق, عند حدوث أول جريان, نشأ عن سقوط أمطار يوم 02.02.2014 على أرضية البلطة والذي قدر بنحو 8 ملم,ودعمه جريان بعض السيول, بعد حفر القض الجديد الثاني في وسط بلطة الرملة الغربية, الاثنين 10.02.2014.

صورة (7): أثر الشقوق في التوصيل الهيدروليكي ما بين منسوبي بحيرتي البلطة والقض الجديد الأول في بلطة الرملة الغربية, سطح جوانب الخندق جافة مع أن المياه وصلت حديثاً للبلطة في يوم الاثنين, الأربعاء 10.06.2015.

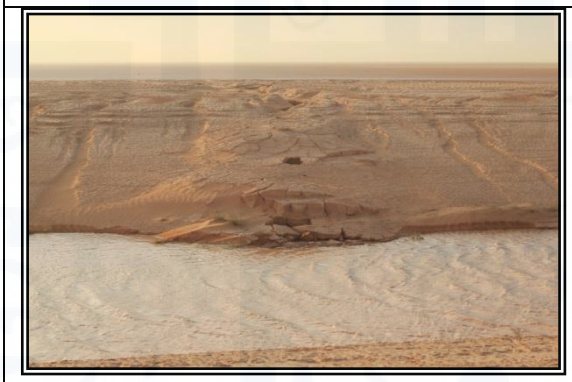

صورة (8): دور شقوق طين أرضية البلطة في تحقيق توصيل هيدروليكي بعمق يبلغ نحو 3م ما بين منسوبي بحيرتي البلطة والقض الجديد الأول في بلطة الرملة الغربية, الأربعاء 10.06.2015.

حالات طقس تؤدي لعواصف مطرية تحدث جريان في أودية الأحواض المغذية لبلطة الرملة بالمياه:

تناولت هذه الدراسة حالتين لجريان السيول الفجائي الحادث بعد العواصف المطرية الغزيرة:

أولاً- حالة حدوث جريانات مهمة لا تصل مياهها لبلطة الرملة الغربية رغم غزارتها:

وذلك بسبب تكوين البرك الضخمة والانتشار الواسع للمياه في السهل الفسيح الجاف الرسوبي الرباعي الممتد, على مسافة حوالي 14 كم, ما بين قدم الجبل الأخضر الجنوبي وبلطة الرملة الغربية, صور (من 9 إلى 24).

صورة (9): حالة طقس كهذه في جنوب مدينة البيضاء تبشر بعاصفة تسقط أمطار غزيرة تحدث سيول أو جريانات مؤقتة مهمة جداً في أودية السفح الجنوبي للجبل الأخضر والتي تصب في البلط, الساعة 14:46 يوم الاثنين الموافق 09.06.2014.

صورة (10): مياه سيل وادي الرملة الناتجة عن حالة الطقس والعاصفة المطرية في الصورة السابقة في أعالي المخيلي متجهة نحو بلطة الرملة, الغزارة حوالي 80 م^3/ثا, الساعة 18.44 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (11): مياه سيل وادي الرملة في عبارة المخيلي متجهة نحو بلطة الرملة, عرض العبارة 50 م, الساعة 18:49 يوم الاثنين 09.06.2014.

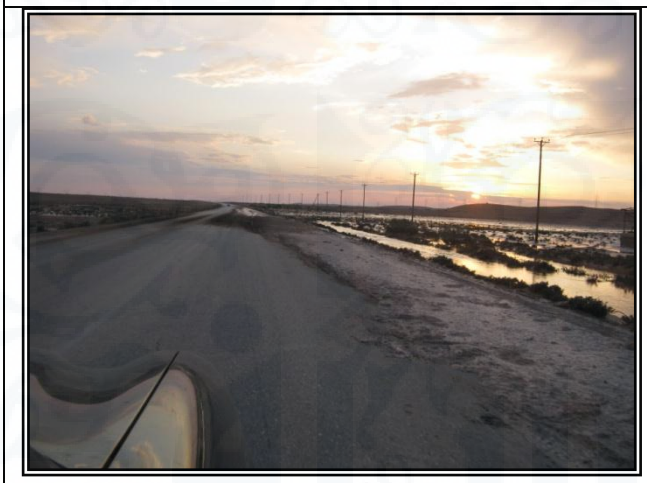

صورة (12): برك مياه وادي الحصيِّص الصغير المحلي غرب المخيلي تغمر الطريق العام عند فيضانها, الساعة 17:08 يوم الاثنين 09.06.2014.

فيضان مياه سيول الأودية الرئيسية والأودية الصغيرة المحلية على طريق المخيلي-الخروبة من وادي حنيش الواقع غرب المخيلي مباشرةً وحتى وادي الثعبان الواقع غرب وادي القرنة, لعدم

استيعاب العبارات لغزارة المياه مابين الساعة 14:15 والساعة 16:00 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (13): زبد مياه بركة وادي حنيش الصغير المحلي في أعالي الطريق العام المخيلي-الخروبة غرب المخيلي,
الساعة, 19:02 الاثنين 09.06.2014.

صورة (14): عبارة وادي حنيش الصغير المحلي تفرغ مياه بركة الوادي غرب المخيلي, على طريق المخيلي-الخروبة, الساعة 19:06 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (15): مياه سيل وادي القوس في العبارة الشرقية, الساعة 19:12, الاثنين 09.06.2014.

صورة (16): مياه سيل وادي القوس في العبارة الغربية متجهة نحو بلطة الرملة, الساعة 19:17 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (17): واحدة من عشرات البرك التي تتكون على يمين طريق المخيلي-الخروبة وتفيض مياهها على الطريق لعدم استيعاب العبارات لمياه سيول الأودية الصغيرة الغزيرة في غرب المخيلي, وادي محلي صغير بين وادي القوس ووادي بالعطر, الساعة 19:25 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (18): 19:27عبارة وادي محلي صغير يقع بين القوس وبالعطر تفرغ مياه بركة الوادي على طريق المخيلي-الخروبة, الساعة 19:27 الاثنين 09.06.2014.

صورة (19): مياه سيل وادي الخريِّف متجهة نحو بلطة الرملة, الساعة 19:41 يوم الاثنين 09.06.2014.

صورة (20): مياه سيل وادي القرنة متجهة نحو بلطتي أبو رقيص والرملة, الساعة 19:49 الاثنين 09.06.2014.

صورة (21): امتداد البرك التي كونتها مياه سيل وادي الحصيِّص على يمين طريق المخيلي-الخروبة غرب المخيلي، الساعة 17:02 الاثنين 09.06.2014.

صورة (22): بعض من عشرات البرك التي تتكون في السهل الرسوبي الرباعي في منطقة المخيلي, مياه سيل وادي القوس, عن وليد عبد الرازق, الساعة 18:15 الاثنين 09.06.2014.

صورة (23): مياه سيل وادي المحجة في عبارة خولان ترفد وادي الرملة المغذي لبلطة الرملة, التصريف نحو 20م^3/ثا, عن عبد الكريم الحنفي, الساعة 14:15الثلاثاء10.06.2014.

صورة (24): مياه سيل وادي المحجة تفيض على الطريق العام وتغمر عبارة خولان بأكثر من 60سم لتغمر الحديد الواقي الجانبي للطريق, التصريف نحو 100 م^3/ثا, هذه المياه ترفد سيل وادي الرملة المتجه نحو بلطة الرملة, عن عبد السلام المدفع, الساعة 16:00 يوم الثلاثاء 10.06.2014.

مياه هذه السيول الصيفية رغم غزارتها, وحجمها المقدر بنحو 20 مليون م^3 لم يصل منها شيء لبلطة الرملة الغربية, مع أن جريان سيل وادي الرملة تجدد وبغزارة كبيرة في اليوم التالي الموافق 10.06.2014, صورتين (23 و 24).

بلطة الرملة الغربية و دواعي ومبررات البحث:

توجد بلطة الرملة في سهول جنوب الجبل الأخضر, شكل (1), وهي تقع جنوب بلدة المخيلي بنحو 14 كم, تبلغ مساحة البلطة كاملةً حوالي 33 كم^2, إن طريق المخيلي- بوابة المئتين, العابر للبلطة من الشمال نحو الجنوب, قسم البلطة إلى قسمين: القسم الشرقي هو الأصغر إذ تبلغ مساحته نحو 8 كم^2 لذلك أطلقنا عليه اسم بلطة الرملة الشرقية, والقسم الغربي, موضوع الدراسة, هو الأكبر إذ تقارب مساحته ما يزيد عن 25 كم^2 أطلقنا عليه اسم بلطة الرملة الغربية, طول البلطة من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي يبلغ 6200 م, ومتوسط عرض البلطة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي يقارب 4300, تصب في البلطة سيول أودية الرملة, الحصيِّص, القوس, بالعطر, الخريِّف وبعض الفروع الشرقية لوادي القرنة, شكل (2), وتتشكل في أعقاب وصول مياه السيول إلى بلطة الرملة الغربية بحيرة مائية عذبة عكرة تستديم في البلطة, بحسب سماكة مياه البحيرة, مابين فترة أسبوع واحد, وخمسة أشهر في أحسن الحالات إذا لم تتجدد مياهها, صور (1, 25, 30, 31, 43, 44, 45, 46, 48, 49, 50, 53, 54, 55, 56, 57, 58), عند جفاف مياه البحيرة المؤقتة تترسب عكورة المياه المكونة من المعلقات الغروية الطينية على أرضية البلطة, صورة (58), مساهمة بذلك في زيادة سماكة رسوبيات أرضية البلطة, صور (من 5 إلى 8, 29, 33, 34, 47, 52, 53), مما نتج عنه أرضية رسوبية ناعمه قوامها من السلت والطين يرتفع منسوبها عن البحر بمقدار 133م, هذه الأرضية منبسطة سهلية تحدها من جهة الجنوب تلال ترتفع عن أرضية البلطة لنحو 20م, لذلك تهدأ وتسكن فيها المياه في نهاية رحلة جريانها على السفح الجنوبي والسهول الجنوبية للجبل الأخضر موضعةً كل حمولتها من السلت والطين والأملاح الذائبة, إن جفاف المياه يجعل المواد الطينية معرضة لأشعة الشمس مما يؤدي لتشققها, وكلما زادت فترة الجفاف طولاً كلما تطورت شبكة الشقوق اتساعاً بفعل استمرار فقدان الرطوبة من الطين وتقلص حجمه سواءً على السطح أو في أعماق الرسوبيات, صورة (34), مما يجعل أرضية البلطة بكامل سماكتها تحوي حجم كبير جداً من التجاويف مكون من شبكة معقدة جداً من الشقوق المتصلة ببعضها في كل الاتجاهات وعلى كامل حجم الرسوبيات المكونة لأرضية البلطة, مما يجعل المياه الواصلة بعد ذلك لبلطة الرملة يختفي القدر الأكبر منها بسرعة في تلك التجاويف الواصلة لقاع الرسوبيات الطينية تحت تأثير الجاذبية الأرضية, حيث يمتصها الطين على كامل سماكته, ولا يتبقى على السطح إلا القدر الأقل من المياه الذي يشكل البحيرة الضحلة المؤقتة التي تشغل أرضية البلطة. إن الطين بمعادنه المختلفة ذات البنية السداسية الورقية شره جداً لامتصاص الماء وقادرة بعض معادنه كالمونتموريونيت أن تمتص من الماء ما يعادل حجمها أو يزيد, لوحات (من 1 إلى 5), مما يؤكد أن هناك مشكلة أخرى تؤدي لعدم توفر مياه كافية على سطح أرضية بلطة الرملة توفر وتتيح فرصة دوام بحيرة مياه تخدم المجتمع الرعوي المحلي على طول السنة, لمعالجة هذا الأمر تم اختيار عينتين سليمتين من التشقق وجافتين من المواد الناعمة السلتية والطينية من قاع أرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية, صورة (34), وحسبت قابليتهما لامتصاص الماء عن طريق تزويدهما نقطة بنقطة من سيرنك وباستخدام ميزان حساس, لوحات (من 1 إلى5), تبن من خلالها أن إحدى العينتين امتصت مياه بما يعادل 96.27 % من حجمها, والعينة الأخرى امتصت 88.37 % من حجمها ماء حتى وصلت لمرحلة التشبع والميوعة, ولو أخذنا معدل امتصاص الماء في العينتين لبلغ نحو 92.32%, أي أنه في حال تكوين طبقة غروية عجينية كتيمة في الرسوبيات السطحية تمنع تسرب الماء نحو الأسفل في الرسوبيات الأعمق من أرضية البلطة سماكتها 25 سم يعني ذلك أن نحو 5770000 م^3 من الماء امتصتها هذه السماكة من الطين فاختفت عن أعين الناظر في بلطة الرملة الغربية وهي في طور امتلائها, وبالفعل

تبين دراساتنا أنه في موسم 2013-2014 تجمع على أرضية البلطة بحيرة مائية سماكتها 22 سم في يوم الجمعة الموافق 08.11.2013 ساهمت الرياح في تجوالها في كل الاتجاهات على الأرضية السهلية الجافة للبلطة ومحيطها مما جعلها تنضب وتجف يوم الخميس الموافق 14.11.2013, صورة (25) وصورة (48), أي خلال 6 أيام فقط, أي بمعدل فاقد مائي يومي يقارب 916000 م^3/يوم, أي ما يعادل هبوط لمنسوب مياه البحيرة يقارب **3.667** سم/يوم, هذه المياه ضاعت عن طريق التبخر المباشر من سطح المياه الحر وعن طريق امتصاص الطين لها والتبخر غير المباشر منه فيما بعد, وما يؤكد هذه النتيجة أن هبوط منسوب مياه بحيرة صغيرة منعزلة في أحد الخنادق المجاورة للقض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية الذي امتلأ يوم 03.02.2014 والمقاس يوم 10.02.2014 خلال 7 أيام هبط بمقدار 26 سم أي بمعدل **3.714** سم/يوم, صورة (3), مما يدل على أن الطين السفلي استمر في امتصاص الماء على طول هذه الفترة, وبحسب معدل الامتصاص هذا فإنه يلزم مكوث المياه في البحيرة لمدة 125 يوم حتى تشبع الرطوبة كامل سماكة طين البلطة فيما لو يكن مشققاً. إن مراقبتنا لهبوط مناسيب بحيرات القضوض القديمة المحفورة في عام 1992 في بلط الرملة والتي تعتبر أرضياتها كتيمه ولا رشح ولا تهريب يذكر منها نحو الأسفل في الصخور الجيرية القديمة العائدة للكريتاسي, شكل (3), فلا يتعدى معدل التبخر المباشر مع ما تشربه حيوانات الرعي منها 0.5سم/يوم, صورة (27), كما إن قياسنا لهبوط منسوب بحيرة بلطة أبو رقيص في موسم 2007-2008 كان يساوي 58سم/169يوم تمتد ما بين شهر 2007/10 و شهر 2008/04, أي بمعدل 0.343 سم/يوم, صورة (26).

فلو اعتبرنا أن التبخر كان يساوي طبقة مائية سمكها 0.5 سم/يوم؛ لبلغ امتصاص طين أرضية البلطة طبقة مائية سمكها نحو 3.167 سم/يوم والذي يعادل نحو 791750 م^3/يوم, والذي يفوق ما يفقده التبخر من سطح الماء الحر بمقدار 6.3 مرات, لأن التبخر يساهم بفقدان نحو 125000 م^3/يوم, مما أدى لنضوب مياه بحيرة البلطة بسرعة واختفاء مياهها عن عين الناظر لها بسرعة فائقة, هذا يبين أن نسبة معدل الفاقد من مياه البحيرة بالامتصاص يبلغ ما نسبته 86.4% في حين تمثل نسبة الفاقد بالتبخر من سطح المياه الحر, والذي لا يمكن تفاديه والتغلب عليه, نحو 13.6% فقط, هذا في حال عدم أخذ تأثير الشقوق والفجوات, التي يحتويها الطين في بلع حجم كبير من المياه عند وصولها مباشرةً للبلطة وامتصاص مواد الطين لها في أسفل أرضية البلطة, في الاعتبار, مما يؤكد أن حجم المياه الواصلة لبلطة الرملة قد يفوق حجم مياه البحيرة المؤقتة الظاهر على سطح أرضية البلطة بمقدار 3 أو 4 أضعاف على الأقل. ثم إن مراقباتنا لهبوط مناسيب مياه بحيرات القضوض الحديثة التي حفرت في موسم 2013-2014 في بلطة الرملة الغربية تثبت أن طين أرضية البلطة لا يؤمن تكتيم جيد للمياه التي يبتلعها ويمتصها, صورتين (28 و 29), لوجود اتصال هيدروليكي مؤكد بين مياه البلطة والخزان الجوفي العميق المالح, حيث أن المياه ترشح من تحت رسوبيات طين أرضية البلطة الرباعية وتغذي الخزان الجوفي المالح للصخور الجيرية الكريتاسية القديمة, ويبدو برهان هذا واضحاً من خلال هبوط منسوب بحيرة مياه القض الجديد الأول المحفور في جنوب شرق بلطة الرملة الغربية بمقدار 145 سم خلال فترة 120 يوم, من تاريخ امتلائه, بمعدل يساوي **1.208** سم/يوم, وأكد ذلك الاتصال الهيدروليكي ما بين مياه المواد الطينية للبلطة والخزان الجوفي العميق المالح هبوط منسوب مياه بحيرة القض الجديد الثاني المحفور في وسط بلطة الرملة الغربية بمقدار 152 سم خلال مدة 113 يوم تمتد من تاريخ امتلائها الجزئي في 03.02.2014 وحتى 27.05.2014, بمعدل 1.345 سم/يوم, ارتفاع هذه الفواقد المائية يتمثل بنحو 0.5 سم/يوم تتبخر

من سطح الماء الحر, لبحيرة البلطة, كما هو حال القضوض القديمة, والباقي المتراوح بين 0.708 سم/يوم في القض الجديد الأول, و 0.854 سم/يوم في القض الجديد الثاني يرشح باتجاه الخزان الجوفي المالح؛ أي أن معدل رشح يتم من أسفل أرضية البلطة في حال امتلائها يقدر بنحو 0.781 سم/يوم, وذلك يعادل نحو 195250 م^3/يوم من مياه طين أرضية البلطة يغذي الخزان المالح بالمياه ما دامت البحيرة المائية المؤقته في البلطة؛ إن الواقع الفعلي للبلطة يدل على ذلك من حيث عدم ملاحظة أية مياه مالحة في البلطة, والتي من المفترض أن الأملاح تتزهر على سطح أرضية البلطة بفعل صعودها لسطح البلطة بالخاصة الشعرية التي يتميز بها الطين, لكن يبدو أن عملية غسل الأملاح من مواد الطين تتم على كامل سماكة الرسوبيات الطينية لأرضية البلطة لتتركز في الخزان الجوفي المالح تحت البلطة.

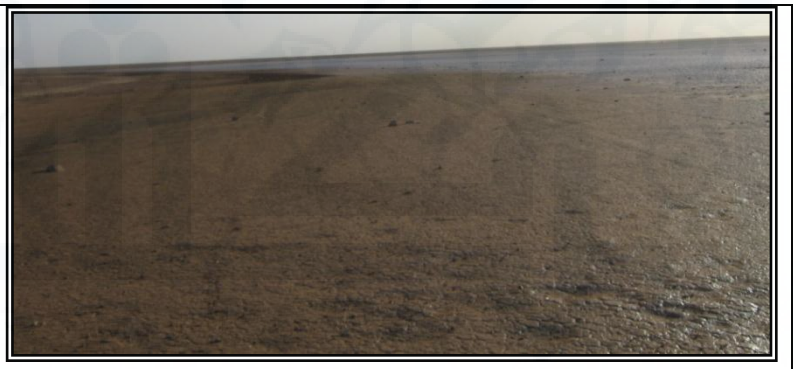

صورة (25): آثار الرطوبة المتبقية من جريان 08.11.2013, على سطح أرضية بلطة الرملة الغربية, لاحظ غياب ظاهرة التشققات الطينية بسبب إشباع طين أرضية البلطة بالرطوبة, الخميس 14.11.2013.

صورة (26): بلطة أبو رقيص تظهر فيها أشجار الطرفاء على أطراف القض في وسط البلطة, التي امتلأت بالمياه في 06.06.2007 وفي 14 و15.10.2007, يوم غرقت بلدة قندولة, وفي 22.10.2007, منسوبها انخفض بمقدار 58 سم بحسب قياسنا بوساطة الشقلة المائية, حتى تاريخ الصورة في 09.04.2008, أي خلال 169 يوم, بمعدل

صورة (27): قياس منسوب مياه القض القديم الجنوبي باتجاه شرق – غرب في جنوب بلطة الرملة الغربية بمقدار 60 سم خلال 120 يوم, 15.03.2014.

3.43 ملم/يوم, والذي أصبحت يومها أرضية بلطة الرملة الغربية جافة تماماً.	
	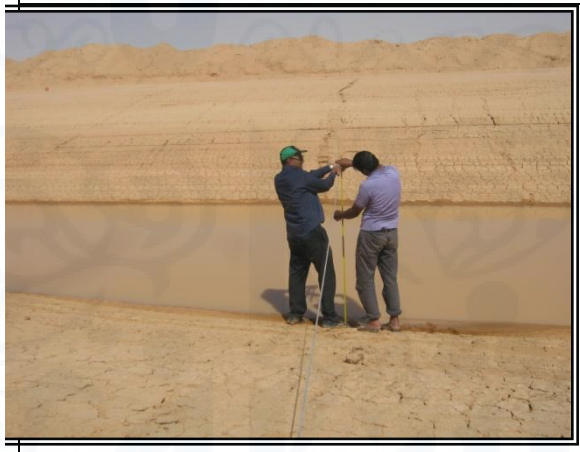
صورة (28): قياس هبوط منسوب مياه القض الجديد الأول في بلطة الرملة الغربية بمقدار 145 سم خلال 120 يوم من تاريخ امتلاءه, بمعدل 1.208 سم/يوم, يوم وتاريخ القياس السبت 15.03.2014.	صورة (29): هبوط منسوب مياه بحيرة القض الجديد الثاني في وسط بلطة الرملة الغربية بمقدار 152 سم خلال فترة 113 يوم تمتد من 03.02.2014 وحتى 27.05.2014, بمعدل 1.345 سم/يوم، لاحظ في الجهة المقابلة منسوب أرضية البلطة, وآثار منسوب الامتلاء الجزئي للقض. ومنسوب المياه في 27.05.2014.

اختبار قابلية المواد الناعمة من السلت والطين لامتصاص الماء في أرضية بلطة الرملة الغربية:

صور (من 30 إلى 34) ولوحات (من 1 إلى 5)

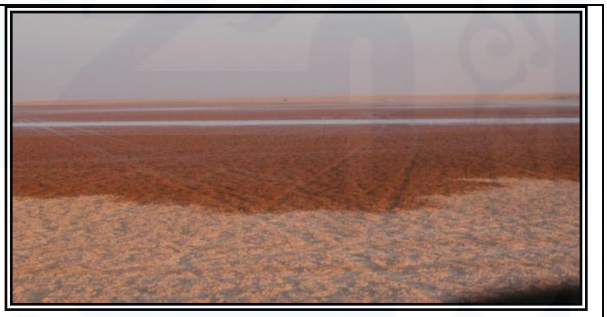	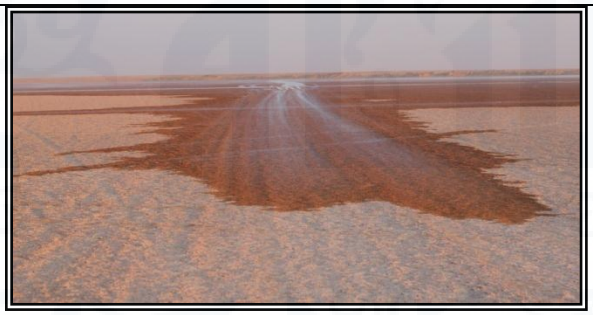
صورة (30): امتصاص طين أرضية بلطة الرملة الغربية لمياه جريان الصيف ليوم الاثنين, الأربعاء 10.06.2015.	صورة (31): ضياع مياه الجريان الصيفي ليوم الاثنين 08.06.2015 بالانتشار الأفقي على أرضية بلطة الرملة الغربية وبالامتصاص من الطين , الأربعاء 10.06.2015

صورة (32): صورة لأرضية بلطة الرملة الغربية تبدو فيها تربة البلطة نصفها الجنوبي رطب ونصفها الشمالي جاف, لأن مياه الجريان الذي بلغها في شهر 6, كان غير كافياً لإشباع طين أرضية البلطة التي امتصت كل ما وصلها من مياه, وبذلك لم تسمح بتكوين بحيرة مائية, لاحظ التشققات الطينية في الجزء الجاف الظاهر من أرضية البلطة, الثلاثاء 05.06.2007.

صورة (33): مظهر القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية والخنادق المتصلة به في 05.12.2009 أي قبل أعمال التسوية, القضوض بقيت جافة على مدى أكثر من أربع سنوات, أي منذ تاريخ الصورة وحتى موسم 2013-2014 , عدد لا بأس به من جريانات السيول حدثت خلال تلك الفترة لكن المياه كانت تضيع بالرشح والتبخر على الطريق قبل أن تصل للبلطة.

الطين المكون لأرضية القض القديم الشمالي

الشقوق بين الكتل الطينية لأرضية القض القديم الشمالي

صورة مزدوجة (34): المسامات والشقوق في الكتل الطينية المكونة لأرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية عندما تكون جافة, اختيار عينات الطين للاختبار, السبت 05.12.2009.

1

2

3

4

5	6

لوحة (1): ستة صور تبين مراحل تهيئة عينة جافة على هيئة متوازي مستطيلات من المواد الطينية و السلتية الجافة, مأخوذة من قاع أو من أرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية بتاريخ 05.12.2009 حجمها 25.9674سم^3, متوسط أبعادها:

1.7سم× 4.3028 سم×3.55سم, من أجل معرفة قابليتها لامتصاص المياه بتاريخ 10.04.2014.

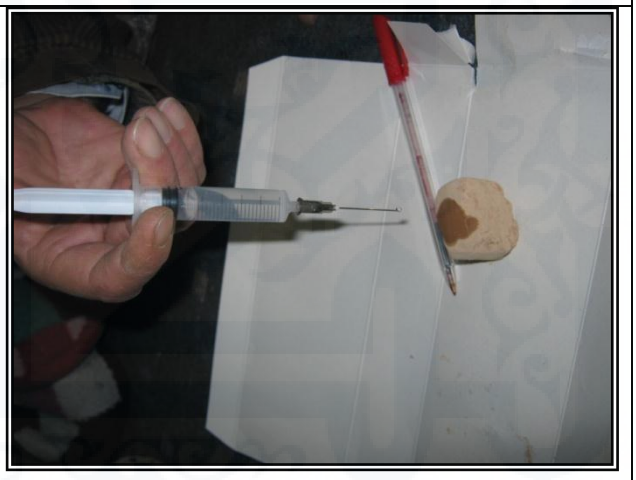

7

8

9

10

11

12

لوحة (2): من ستة صور تبين قابلية العينة الأولى من المواد الناعمة الطينية والسلتية الخالية من التشقق والمكونة لأرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية لامتصاص قدر من الماء يساوي حجمها تقريباً, الخميس 10.04.2014, لاحظ زيادة سمك العينة من 1.7 سم عندما كانت العينة جافة إلى 2.4 سم عندما أصبحت مبللة, صورة (10), وما زالت تتقبل مزيد من الماء, صورتين (11 و12).

13

14

لوحة (3): صورتان تبينان إشباع عينة الطين والسلت السليمة من التشقق بالماء بعد امتصاصها 25 سم^3, ماع نصفها اليساري فقط في حين بقي نصفها اليميني يتطلب المزيد من الماء ليصل للإشباع, حجم العينة جافة كان 25.9674 سم^3 وبعد أن امتصت 25 سم^3 أصبح حجمها **39.96 سم^3 = 2.4 سم×4.5 سم×3.7 سم**, حجم الطين الجاف في العينة هو 39.96 سم^3- 25 سم^3=14.96سم^3, حجم الفراغ المسامي في العينة الجافة=11.0074سم^3, المسامية=42.39 %,

العينة الأولى امتصت مياه بما يعادل 96.27 % من حجمها.

أهم ميزات العينة الأولى المختبرة من طين وسلت بلطة الرملة الغربية في امتصاص الماء:

1- حجم العينة جافة يبلغ **25.9674 سم^3**, متوسطات أبعادها: **1.7سم**×**4.3028 سم**×**3.55سم**.

2- حجم المياه التي امتصتها العينة عند إشباعها يساوي **25 سم^3**.

3- حجم العينة متشبعة بالمياه يساوي **39.96 سم^3** أبعادها: **2.4 سم**×**4.5 سم**×**3.7 سم.**

4- حجم الطين الجاف الفعلي في العينة = حجم العينة المشبعة بالماء - حجم الماء الممتص

14.96 سم^3 = 39.96 سم^3- 25 سم^3

5- حجم الفراغ المسامي في العينة الجافة = حجم العينة الجافة- حجم الطين الجاف الفعلي في العينة

11.0074سم^3 = 25.9674 سم^3- 14.96 سم^3

6- المسامية في العينة الجافة = حجم الفراغ المسامي في العينة الجافة ÷ حجم العينة الجافة × 100

11.0074سم^3 ÷ 25.9674 سم^3 × 100 = %42.39

7- نسبة قابلية امتصاص العينة للماء (معامل امتصاص) =

حجم الماء الممتص ÷ حجم العينة الجافة × 100

25 سم^3 ÷ 25.9674 سم^3 × 100 = % 96.27

إن النتيجة الأخيرة تثبت أن 1 م^3 من طين أرضية البلطة الجاف والسليم من التشقق قادر على امتصاص 962.7 لتر من الماء, أو بمعنى أن 1 م^3 من الماء يمتصه 1.0387 م^3 من طين أرضية البلطة السليم من التشقق, وعلى وجه التقريب يمكن القول أن 1 م^3 من طين أرضية البلطة غير المشقق يمتص 1م^3 من مياه البلطة.

15

16

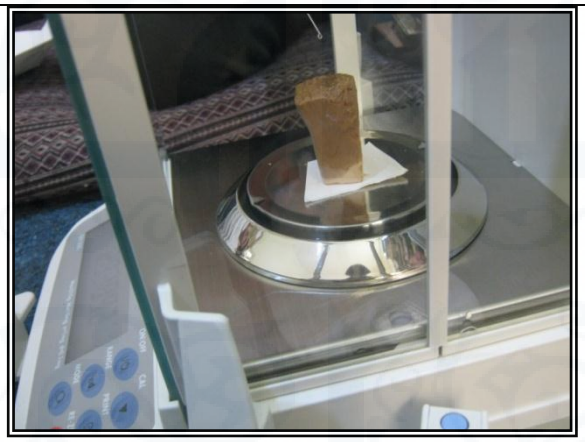

17

18

19

20

لوحة (4): ستة صور تبين مراحل اختبار للعينة الثانية الخالية من التشقق من طين وسلت أرضية القض الشمالي من بلطة الرملة الغربية لامتصاص المياه, أبعاد و حجم العينة جافة: متوسطات الأبعاد: 3.7625سم

2.2875سم×1.775سم=15.277سم^3, الوزن=21.865غ, الوزن النوعي=1.4312 غ/سم^3, العينة امتصت مياه بمقدار 13.501غ أو 13.501 سم^3 ثم وقعت نتيجة ميوعتها صورة (20), أبعاد وحجم العينة مبللة: 4.1سم×2.6سم×2.1سم=22.386سم^3, وزن العينة مبللة 35.366غ, الوزن النوعي 1.58 غ/سم^3, حجم الطين الجاف في العينة= 7.109 سم^3, حجم الفراغ المسامي في العينة=8.168سم^3, المسامية للطين الجاف = 46.53%,

العينة الثانية امتصت 88.37 % من حجمها ماء.

أهم ميزات العينة الثانية المختبرة من طين وسلت بلطة الرملة الغربية في امتصاص الماء:

1- حجم العينة جافة يبلغ **15.277سم^3**, متوسطات أبعادها: **3.7625 سم×2.2875 سم× 1.775 سم**

2- وزن العينة جافة **21.865 غ**.

3- الوزن النوعي للعينة الجافة (**غ/سم^3**) = وزن العينة ÷ حجم العينة

1.4312 غ/سم^3 = 21.865 غ ÷ 15.277سم^3

4- وزن وحجم المياه الممتصة من العينة حتى إشباعها ووقوعها بسبب ميوعتها يساوي **13.501غ** ماء

أي ما يعادل حجم ماء ممتص يساوي = **13.501 مل = 13.501 سم^3**

5- حجم العينة مبللة حتى الإشباع = **22.386 سم^3**, **أبعادها: 4.1سم×2.6سم×2.1سم**

6- وزن العينة مبللة ومشبعة بالمياه بلغ **35.366 غ**

7- الوزن النوعي للعينة المبللة المشبعة = وزن العينة مبللة ÷ حجم العينة المبللة المشبعة

1.58 غ/سم^3 = 35.366 غ ÷ 22.386 سم^3

8- حجم الطين الجاف الفعلي في العينة = حجم العينة المشبعة بالماء - حجم الماء الممتص

7.109 سم^3 = 22.386 سم^3- 15.277 سم^3

9- حجم الفراغ المسامي في العينة = حجم العينة الجافة- حجم الطين الجاف الفعلي في العينة

8.168 سم^3 = 15.277سم^3- 7.109 سم^3

10- المسامية في العينة الجافة = حجم الفراغ المسامي في العينة الجافة ÷ حجم العينة الجافة × 100

46.53% = 7.109 سم^3÷ 15.277سم^3× 100

11- نسبة قابلية امتصاص العينة للماء (معامل الامتصاص) =

حجم الماء الممتص ÷ حجم العينة الجافة × 100

13.501 سم^3 ÷ 15.277سم^3× 100 = %88.37

في هذه العينة الثانية من الطين الجاف السليم من التشقق ذو المسامية 46.53% يمتص وفقها 1م^3 نحو 883.7 لتر من الماء أو بمعنى أن 1م^3 يمتصه 1.13 م^3 من طين أرضية البلطة السليم من التشقق, وعلى أساس متوسط ما امتصته العينة الأولى والثانية فإنه يمكن القول أن نسبة معدل امتصاص المياه من طين بلطة الرملة الغربية يقارب معدل معامل امتصاص قدره 92.32% من حجم الطين الجاف غير المشقق في أرضية البلطة.

تقدير معدل التبخر من المواد الناعمة السلتية والطينية المكونة لأرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية:

1

2

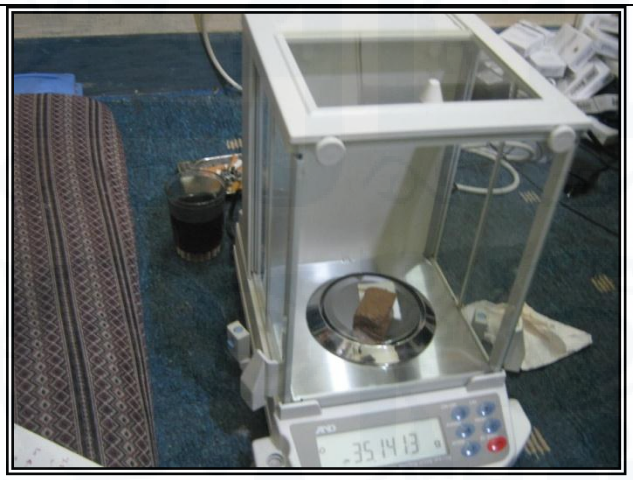

3	4

لوحة (5): أربع صور تبين مرحلة إشباع العينة السلتية الطينية السليمة من التشقق لأرضية القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية بالمياه, ثم مرحلتين لحساب معدل التبخر منها؛ عن طريق تناقص الوزن الناتج عن التبخر بدلالة الزمن

يوم وتاريخ الاختبار الجمعة الموافق 12.04.2014

أبعاد العينة منتفخة بالمياه:4.1سم, 2.6سم, 2.1سم, المساحة الجانبية لخمس أسطح من العينة معرضة للهواء=38.8سم^2,

معدل وزن التبخر من أسطح العينة الخمسة ما بين الساعة 17:53 والساعة 18:04 يبلغ 35.366 غ-35.32 غ= 0.046غ/38.8سم^2=0.00118غ/سم^2/11دقيقة بما يعادل 0.000107غ/سم^2/دقيقة.

معدل وزن التبخر من أسطح العينة الخمسة ما بين الساعة 18:04 والساعة 18:43 يبلغ 35.32غ-35.1413 غ=0.1787غ/38.8سم^2/30 دقيقة بما يعادل 0.00596غ/سم^2/دقيقة.

معدل وزن التبخر من أسطح العينة الخمسة ما بين الساعة 17:53 والساعة 18:34 يبلغ 35.366غ-35.1413غ=0.2247غ/38.8سم^2/41 دقيقة, بما يعادل 0.00548غ/38.8سم^2/دقيقة

0.00548×60=0.3288غ/38.8سم^2/الساعة×24=7.8912غ/مياه متبخرة/38.8سم^2/يوم

بما أن 1 غ مياه= 1مل=1سم^3 فإن 7.8912سم^3÷38.8سم^2=0.2034سم/يوم أي ما يعادل 2.034 ملم/يوم مياه متبخرة

في أجواء الغرفة في مدينة البيضاء, يوم وتاريخ الاختبار الجمعة 12.04.2014.

نتائج البحث الأولية:

1- إن المواد الناعمة الجافة والمكونة لأرضية بلطة الرملة الغربية من السلت والطين السليمة من التشقق ذات المسامية المتراوحة بين **42.39**% و **46.53**% والمختبرة في هذا البحث تمتص حجم من مياه السيول الواصلة للبلطة يقارب **92.32**% من حجمها الجاف.

2- إن التشققات الطينية الجافة المنتشرة على هيئة شبكة معقدة جداً من التجاويف المتصلة ببعضها في كامل سطح وسماكة المواد الطينية الناعمة الجافة المكونة لأرضية بلطة الرملة الغربية تشرب كميات كبيرة جداً من مياه السيول فور وصولها للبلطة من السفح الجنوبي للجبل الأخضر, وذلك عن طريق نفاذ المياه وسلوكها بالتسرب نحو أعماق الرسوبيات في الشقوق المفتوحة تحت تأثير الجاذبية الأرضية.

3- إن سماكة الرسوبيات الرباعية الناعمة من السلت والطين تقدر بنحو 4م.

4- إن مساحة أرضية بلطة الرملة الغربية السهلية والمنبسطة المكونة من السلت والطين تعادل نحو 25كم^2.

5- إن حجم المواد الناعمة المكونة لبلطة الرملة الغربية يقارب إذن **100** مليون م^3.

6- من النتائج الخمسة السابقة تظهر بديهة أنه في حال امتص الطين السفلي مياه الشقوق في الأعماق دون أن يرشح قسم منها في الخزان الجوفي المالح فإن مواد أرضية البلطة تمتص نحو **92.32** مليون م^3 من مياه السيول وتخفيها في بطنها عن الأنظار.

7- وبناءً على ما سبق فإن حجم بحيرات المياه المؤقتة التي تتكون في البلط لا تعكس بأي حال من الأحوال حجم الجريان الذي تقذفه مياه السيول الخيِّرة في البلط والقادمة من أحواض أودية السفح الجنوبي للجبل الأخضر.

8- **ستبين هذه الدراسة بعد قليل أنه من كل 100م^3 مياه تصل لبلطة الرملة الغربية يستفاد أو بالأحرى يخزن منها 1.11م^3 فقط في القضوض ويفقد نحو 98.89 م^3!**

مقترح وتوصية:

1- ضرورة وضع بلطة الرملة وكامل حوضها في خطة تنموية مائية طموحة هادفة لتأمين مياه تزيد عن حاجة المجتمع الرعوي المحلي, وتخدم مشاريع تنموية جديدة تستطيع تحسين موارد البيئة في الأنظمة البيئية المحلية المتنوعة التي تحويها منطقة الدراسة, لتأمين الغذاء والأعلاف في منطقة الدراسة ومحيطها على طول الزمن, هذه الضرورة تستند على الوثائق والبراهين التالية:

ثانياً- حالة حدوث جريانات مفاجئة مهمة تصل مياهها لبلطة الرملة الغربية:

1- غزارة سيول أودية السفح الجنوبي الشرقي للجبل الأخضر والمغذية لبلطة الرملة الغربية:

لتبيان أهمية الجريانات الحادثة في الأحواض المائية الرئيسية والفرعية الرافدة لها والمغذية لبلطة الرملة الغربية وثق الباحثان من المتابعة الميدانية بعض المشاهد المصورة, وتمت الاستعانة بأصدقاء محليين وثقوا بأنفسهم بعض مشاهدات وصور ذروات الفيضانات حصلنا عليها منهم فيما يخص جريانات شهري 10 و 2015/11 في المخيلي وخولان, حيث وصلت مياه تلك الجريانات لبلطة الرملة الغربية وكونت بحيرة مائية دامت لحوالي 19 يوم تبدأ من تاريخ 03.11.2015, صور (من 35 إلى 42).

صورة (35): مياه سيل وادي الفارغ, أحد الروافد العليا لوادي الرملة, في قرية خولان, عن صلاح علي, الساعة 15:15 الاثنين 02.11.2015.

صورة (36): مياه سيل الرافد المسمى حلق السانية ترفد مياه سيل وادي الفارغ في قرية خولان وتتابع مسيرها نحو وادي الرملة ثم بلطة الرملة الغربية, عن صلاح علي, الساعة 15:11 يوم الاثنين 02.11.2015.

صورة (37): مياه سيل وادي المحجة, الرافد العلوي لوادي الرملة في خولان يفيض على الطريق العام بعرض يزيد عن 70م, عبارة من 3 فتحات 1.5م×1.5م لم تستوعب غزارة الجريان, عن صلاح علي, الساعة 17:08 يوم الأحد 15.11.2015.

صورة (38):مياه سيل وادي الرملة, يجمع الفارغ والمحجة في عبارة خولان السفلى, المياه تفيض على الطريق العام بعرض يزيد عن 80م, 9 فتحات 2.2م×1.5 م لم تستوعب غزارة الجريان, عن صلاح علي, الساعة 17:25 الأحد 15.11.2015.

صورة (39): مياه سيل وادي الرملة في أعالي عبارة المخيلي تتجه نحو بلطة الرملة الغربية, عن خليفة امراجع,الساعة 15:06 الجمعة 23.10.2015.

صورة (40): مياه سيل وادي الرملة في أسافل عبارة المخيلي متجهة نحو بلطة الرملة الغربية, عن خليفة امراجع, الساعة 17:45 الأحد 15.11.2015.

2- تزويد بلطة الرملة الغربية بمياه جريان 03.11.2015: صور (من 41 إلى 51)

صورة (41): مياه سيل وادي الرملة العكرة في أسافل عبارة المخيلي متجهة نحو بلطة الرملة الغربية الجريان مستمر منذ 24 ساعة, الذروة أكثر من 300 م^3/ثا, التصريف حوالي 10 م^3/ثا على الساعة 16:03 من يوم الثلاثاء 03.11.2015.

صورة (42): بركة مياه ضخمة كونتها مياه سيول الحصيِّص والقوس وبالعطر في المشروع الزراعي جنوب غرب المخيلي بحوالي 5 كم, الساعة 16:42 يوم الثلاثاء 03.11.2015.

3- انتشار مياه السيول الخيِّرة على مساحة أرضية بلطة الرملة الغربية: صور (من 43 إلى 48)

صورة (43): بلطة الرملة الغربية تصلها مياه سيل وادي الرملة من الشرق جهة الشرق عن طريق الفرع المسمى سلك حكيم, الساعة 17:34 يوم الثلاثاء 03.11.2015.

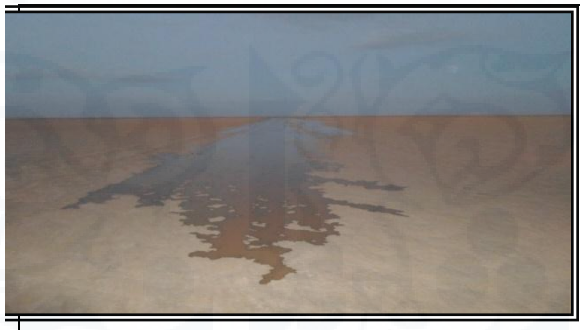

صورة (44): تقدم المياه في وسط بلطة الرملة الغربية من فرع سلك حكيم على أحد الطرق المربوصة بفعل السيارات, لاحظ كيفية تقدم المياه الأسرع وفق تمدد الشقوق الطينية, الساعة 17:56, الثلاثاء 03.11.205.

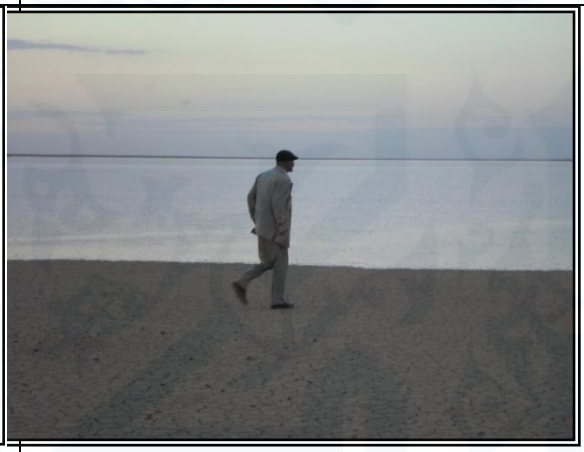

صورة (45): بلطة الرملة الغربية تتقدم فيها مياه سيول, الرملة عن طريق سلك الحريقة, الحصيِّص,القوس, بالعطر, الخريِّف وبعض الفروع الشرقية لوادي القرنة, على هيئة جبهة واحدة من الغرب نحو الشرق, الساعة 17:41 الثلاثاء 03.11.2015. القضوض الثلاثة الغربية قي البلطة غمرتها المياه, فيما لم تبلغ المياه بعد القض الجديد الأول والقض الجديد الثالث في جنوب شرق البلطة.

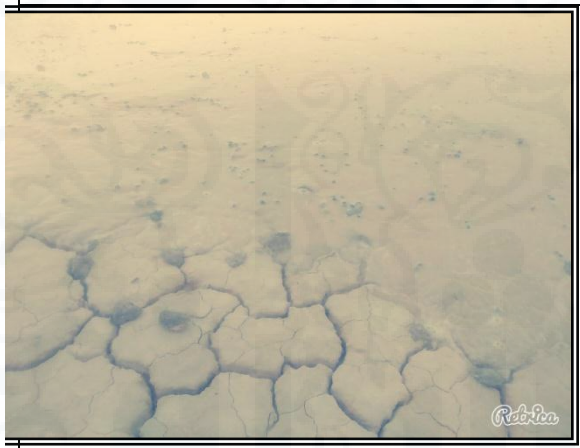

صورة (46): دور الشقوق الطينية لأرضية بلطة الرملة الغربية في بلع المياه المنتشرة أفقيا, الساعة 17:42 يوم الثلاثاء 03.11.2015.

صورة (47): القض الجديد الأول في جنوب شرق بلطة الرملة الغربية فارغ من المياه, لم تبلغه المياه التي كانت لا تزال تنتشر أفقياً على أرضية البلطة التي تعلو أرضية القض بنحو 3.5م, الساعة 17:39 الثلاثاء 03.11.2015.

صورة (48): انتشار مياه بحيرة بلطة الرملة نحو الجنوب الشرقي بفعل الرياح, الأربعاء 10.06.2015.

4- تغذية الخنادق الجانبية للقضوض من المياه المنتشرة على أرضية البلطة: صور (من 49 إلى 52)

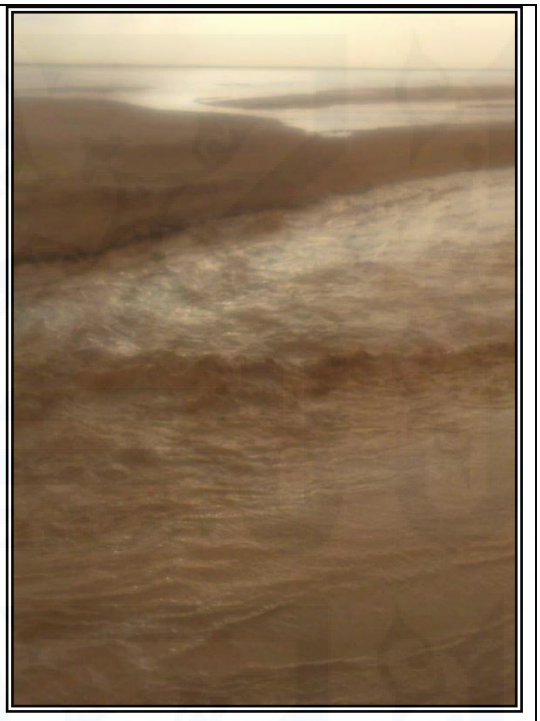

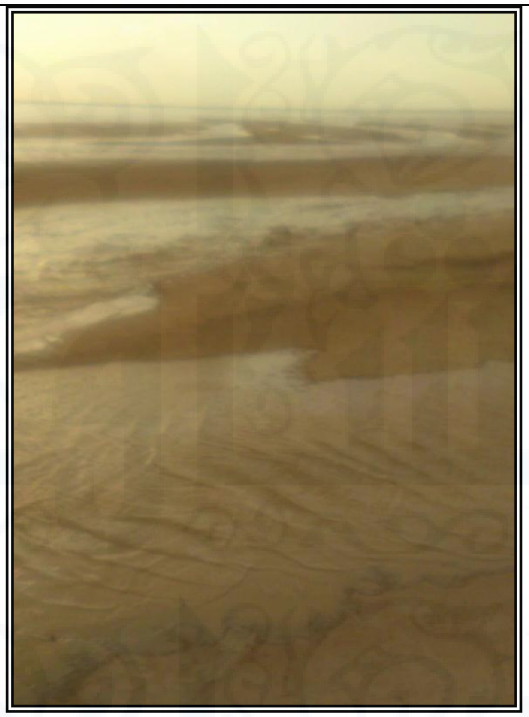

صورة (49): تزويد بلطة الرملة الغربية بمياه العاصفة الصيفية, جريان الأحد 07.06.2015.	صورة (50): تغذية خنادق غرب القض القديم الجنوبي في بلطة الرملة بالمياه, 08.06.2015
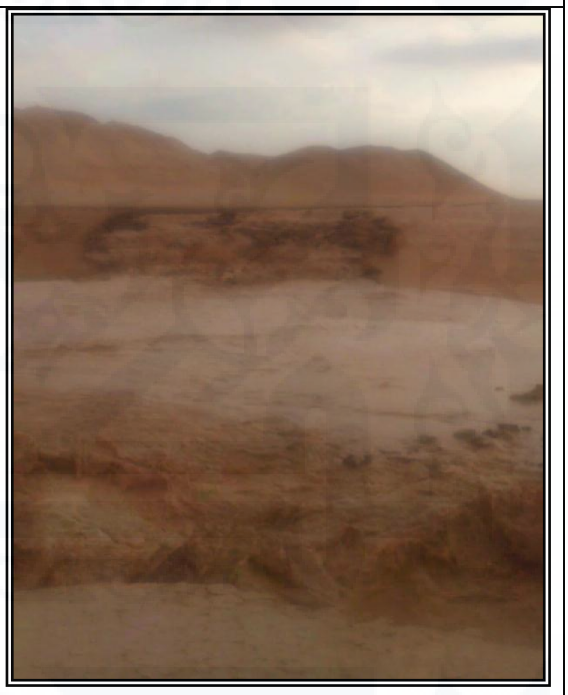	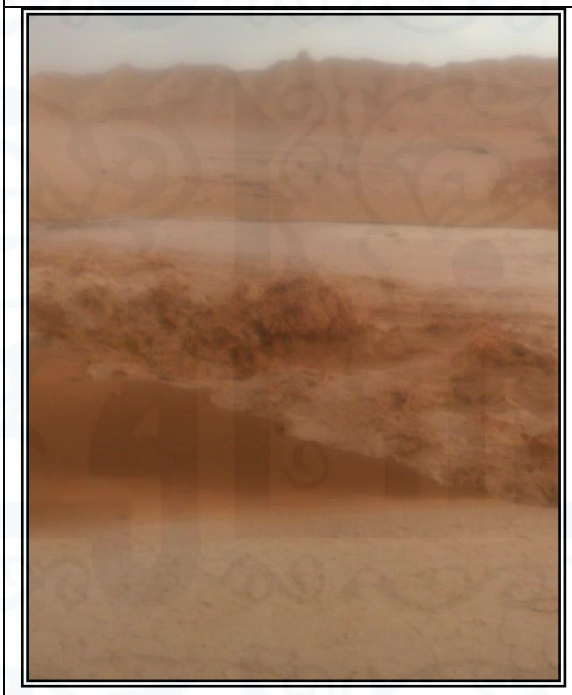
صورة (51): دخول المياه من أحد الخنادق بعنفوان للطرف الغربي للقض القديم الجنوبي في بلطة الرملة الغربية,الاثنين 08.06.2015.	صورة (52): المياه تملأ بغزارة القض القديم الجنوبي في بلطة الرملة الغربية, عن خليفة امراجع, الساعة 17:00 الاثنين 08.06.2015.

5- قياسات سماكة المياه المتبقية واختبار عمق طين أرضية البلطة المشبع بالمياه: صور (من 53 إلى 58)

صورة (53): هبوط منسوب مياه بحيرة بلطة الرملة الغربية في الجهة الشرقية بمقدار 27 سم, الساعة 16:13 الجمعة 20.11.2015.

صورة (54): هبوط منسوب مياه بحيرة بلطة الرملة الغربية في جهتها الشمالية بمقدار 22 سم, الساعة 17:30, الجمعة 20.11.2015.

صورة (55): انحسار بحيرة مياه بلطة الرملة الغربية نحو الجهة الجنوبية الشرقية, سماكة المياه 2.5 سم, واختبار عمق الطين المتشرب للمياه المتراوح ما بين 21 سم و 84 سم, الساعة, 16:17الجمعة 20.11.2015.

صورة (56): انحسار بحيرة مياه ما تبقى من بحيرة بلطة الرملة الغربية في الجهة الشمالية, سماكة المياه تتراوح بين 2 سم و4 سم, عمق الطين المشبع يتراوح بين 34 و 80 سم, الساعة 17:15, الجمعة 20.11.2015.

صورة (57): جفاف أغلبية أرضية وسط وكل غرب وأطراف بلطة الرملة الغربية بعد تزويدها بجريان سيول الثلاثاء 03.11.2015 وجريان سيول الأحد في الليل 15.11.2015, سماكة المياه على أحد الطرق في البلطة 2 سم وعمق الطين المشبع 13 سم, الساعة 16:51, الجمعة 20.11.2015.

صورة (58): نضوب مياه بحيرة بلطة الرملة الغربية في أكثر من ثلثي المساحة الغربية من البلطة, التقاط الصورة من الغرب نحو الشرق, الساعة 17:08, الجمعة 20.11.2015.

6- ملاحظات ونتائج جرياني شهر نوفمبر 2015/11:

وصل جريان سيول الرملة, الحصيِّص, القوس, بالعطر, الخريِّف وبعض الفروع الشرقية لوادي القرنة إلى بلطة الرملة يوم الثلاثاء الموافق 03.11.2015, وتجدد وصول مياه سيول تلك الأودية إلى البلطة من عاصفة الأحد الموافق 15.11.2015, يوم الاثنين الموافق 16.11.2015, إن زيارتنا لبحيرة بلطة الرملة الغربية في يوم الجمعة الموافق 20.11.2015 تبين النتائج التالية:

1- نضوب أغلبية مياه البحيرة بعد تجديد مياهها الثاني في 16.11.2015.

2- مساحة البحيرة المائية المتبقية تبلغ ما بين ربع وثلث مساحة أرضية البلطة.

3- سماكة مياه البحيرة المائية المتبقية عند أطرافها الشرقية والشمالية يتراوح بين 2سم و 4 سم.

4- امتلاء الخمس قضوض الموجودة في بلطة الرملة الغربية.

5- عمق الطين المشبع المغمور بالمياه على أطراف البلطة الجنوبية الشرقية يتراوح بين 21سم و 84سم.

6- تراجع وهبوط منسوب مياه البحيرة في الجهة الجنوبية الشرقية يبلغ نحو 27 سم.

7- تراجع وهبوط منسوب مياه البحيرة في الجهة الشمالية يبلغ نحو 23 سم.

8- عمق الطين المشبع والمغمور بالمياه على الأطراف الشمالية للبحيرة المتبقية يتراوح بين 34سم و 80سم.

9- عمق الطين المشبع والمغمور بنحو 2 سم على أحد الطرق في وسط البلطة يبلغ نحو 13 سم.

10- السيارة تسير بسهولة فوق طين أرضية البلطة القاسي والذي تراجعت عنه مياه البحيرة ولا زال رطباً نسبياً.

11-الفترة بين تكوين مياه بحيرة بلطة الرملة الغربية والتجديد الثاني بالمياه 12 يوم.

12-المدة ما بين التزويد الثاني للبحيرة بالمياه وفترة الزيارة تبلغ 5 أيام.

13- طول الفترة بين تزويد البحيرة الأول متضمنةً التجديد الثاني بالمياه وحتى تاريخ بلوغ هذه الملاحظات 17 يوم.

14- متوسط عمق الطين المشبع بالماء لتسع جسات بلغ مجموع أعماقها 465 سم يبلغ نحو **51.67**سم.

15- بلغ أقصى عمق للطين المشبع على أطراف البحيرة 84 سم في الجهة الشرقية و80 سم في الجهة الشمالية من بحيرة المياه الموجودة.

7- تقدير حجم المياه الواصلة للأرضية الجافة للبحيرة المائية المؤقتة لبلطة الرملة الغربية:

1- حجم التبخر: 0.5 سم/يوم × 25000000 م^2 ×17 يوم **= 2125000 م^3.**

2- حجم المياه الممتصة من طين أرضية البلطة وفق معامل امتصاص قدره 92.32%:

3.167 سم/يوم×25000000م^2× 0.9232×17يوم= **12426041.2م^3/53.839 سم/17يوم**

3- حجم مياه متسربة وسالكة في الشقوق وممتصة من الطين السفلي:

84 سم – 53.839سم امتصها الطين العلوي = **30.161 سم**

30.161 سم × 25000000 م^2×0.9232 = **6961158.8 م^3/17 يوم**

4- مياه متبقية مقدرة في البحيرة وهي في طريقها للفقد والضياع:

4 سم × 2 كم × 4 كم = **320000 م^3**

5- مياه مقدرة تخزنت في القضوض وهي باقية فقط متاحة للاستخدام:

80000 م^3+ 20000 م^3+25000 م^3+70000 م^3+50000 م^3= **245000 م^3**

6- إذن حجم المياه الواصلة لأرضية بلطة الرملة:

2125000م^3+12426041.2م^3+6961158.8
م^3+320000م^3+245000م^3=**22077200م^3**

7- المياه المفقودة والتي في طريقها للفقد من الجريانين المتتابعين:

22077200م^3- 245000 م^3 = **21832200 م^3**

8- نسبة الفائدة من مجمل حجم المياه الواردة للبلطة (معامل الفائدة):

245000 م^3 ÷ 22077200 م^3 × 100 = **1.11%**

9-نسبة المياه المفقودة والضائعة (معامل الفقد أو الضياع):

21832200 م^3 ÷ 22077200 م^3 × 100 = **98.89%**

10- معدل تصريف مجموع المياه الواصلة للبلطة خلال 48 ساعة:

22077200 م^3 ÷ 3600 ثا/ساعة ÷ 24 ساعة ÷ 2 يوم = **127.76 م^3/ثا/5 أودية**

11- معدل تصريف المياه الواصلة لبلطة الرملة الغربية من الوادي الواحد الرئيسي:

127.76 م^3/ثا ÷ 5 أودية رئيسية = **25.552 م^3/ثا/وادي**

12- إن البحيرة المائية التي تشكلت على سطح أرضية البلطة والتي بلغ عمود مياهها بالكامل نحو 31 سم, كان من المفترض أن يبلغ سمكها أو عمود مياهها نحو 88.3 سم فيما لو تم

تفادي الفواقد المائية الرهيبة عن طريق التبخر من سطح الماء الحر والشرب والامتصاص من الطين.

13- النتيجة الختامية: من كل 100م^3 مياه تصل للبلطة يستفاد أو بالأحرى يخزن منها 1.11م^3 فقط! ملحق صور (من 59 إلى 64).

مقترح نحو أسلوب أفضل لإدارة مياه بلطة الرملة الغربية:

1- من الواجب تخفيف كمية التبخر المباشر من سطح الماء الحر التي لا يمكن تفاديها إلا عن طريق تقليص سطح البحيرة المائية وزيادة عمقها لنحو 8 م.

2- من الواجب منع امتصاص الطين للماء إلا مرة واحدة فقط في عمره, ومنع تكرار جفافه عن طريق التبخر غير المباشر بتكوين مسطح مائي دائم فوقه يستمر على طول الزمن.

3- إنشاء بحيرات مائية في بلطة الرملة الغربية مساحة الواحدة منها 1000000 م^2 وعمق 8 م يؤدي لخزن 8 مليون م^3/البحيرة الواحدة, يتبخر منها يومياً طبقة مائية يبلغ معدل سمكها 0.5 سم/يوم, وبذلك يخفف حجم الفاقد المائي الذي يستهلكه التبخر لنحو 5000م^3/يوم/البحيرة, وعليه تستديم البحيرة بعد إشباع طينها, المستقرة فوقه المياه, لمدة 1600 يوم أي ما يعادل 4.4 سنه, أي حوالي 52 شهر, تستطيع خلالها الجريانات المتكررة في المواسم اللاحقة أن تجدد مياهها على طول الزمن, إن أطول فترة جفاف لم تصل خلالها مياه السيول لبلطة الرملة بحسب مراقبتنا للواقع تمتد ما بين شهر 2009/11 وشهر 2013/11 أي على مدى 48 شهر, ذلك يدل على أن الفرصة مهيأة لتحسين الظروف المناخية وموارد البيئة المحلية في منطقة البلط التي يسودها مناخ جاف شبه صحراوي.

4- على هذا النحو فإن الجريانين, الحادثين خلال 12 يوم من شهر 2015/11, واللذين فقدت وتفقد كل المياه التي ساقاها إلى أرضية بلطة الرملة الغربية كافية لجمعها في ثلاث بحيرات تستديم على طول الزمن, والجريانات اللاحقة ستملأ ما ينقص من هذه البحيرات وتملأ بحيرات أخرى تنشأ لاحقاً, لدرجة أنه قد يصل مخزون المياه في بلطة الرملة الغربية لنحو 200 مليون م^3 في نهاية المطاف.

5- إن ما يدعم النتيجة الأخيرة هو تكرار وصول الجريان لبلطة الرملة 6 مرات خلال خمسة أشهر فقط وضياعه في كل مرة في هذا الموسم من عام 2015 لوحده, إذ تكرر حدوث الجريان في كل الأودية الرئيسية أو في بعضها على النحو الآتي؛ جريان شهر 2015/06 أيام 07 و 08 و 09 و10, جريان شهر 2015/08 يومي 05 و 06, جريان شهر 2015/09 يومي 26 و 27, جريان شهر 2015/10 أيام 23 و 24 و 25, جرياني شهر 11/ 2015 يومي 02 و 03, ويومي 15 و 16 والتي وصلت غالبية مياه سيولها لبلطة الرملة الغربية وضاعت هناك!

ملحق: صور(من 59 إلى 64) تبين مدى قلة نسبة التخزين في القضوض من جرياني شهر 11.2015 المقدر حجمه في بلطة الرملة بنحو 22077200 م^3، أي بمعدل تخزين يقارب 0.01 وضياع 0.99.

صورة (59): القض الجديد الثالث في جنوب شرق بلطة الرملة الغربية يمتلئ بالمياه لأول مرة, نحو 50000م^3, أرضية البلطة جافة, عمق الطين 63 سم, الساعة 16:08 الجمعة 27.11.2015.

صورة (60): القض الجديد الأول في جنوب شرق بلطة الرملة الغربية مع خنادقه مليء بالمياه, في حين جفت أرضية البلطة, عمق الطين 44 سم, الساعة 16:23 الجمعة 27.11.2015.

صورة (61): تجدد مياه القض القديم الجنوبي في بلطة الرملة الغربية, مع خنادقه الجانبية, بعد جفاف مياه بحيرة أرضية البلطة, عمق الطين حوالي 100سم, الساعة 16:42 الجمعة 27.11.2015.

صورة (62): تجدد مياه القض الجديد الثاني في وسط بلطة الرملة الغربية مع خنادقه الجانبية, بعد جفاف أرضية البلطة, عمق الطين 63 سم, الساعة 16:59 الجمعة 27.11.2015.

صورة (63): القض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية مليء بمياه سيول شهر 11.2015 مع خنادقه الجانبية, عمق الطين 125 سم, الساعة 17:15 الجمعة 27.11.2015.

صورة (64): هبوط منسوب بحيرة خندق الطرف الشمالي للقض القديم الشمالي في بلطة الرملة الغربية بمقدار 22سم عن منسوب أرضية البلطة, الساعة 17:28 الجمعة 27.11.2015.

الخاتمة:

تم بعون الله هذا البحث الموضح للصورة عن مدى حجم كميات المياه الهائلة التي يشربها ويمتصها طين أرضية بلطة الرملة الغربية ويضيعها بعد أن يخفيها عن الأنظار, والتي يجب العمل على تفادي تكرار شرب وامتصاص طين أرضية البلطة للمياه إلا مرة واحدة في عمره, وذلك عن طريق تكوين مسطحات مائية دائمة فوقه أصغر مساحةً من البلطة وأكثر سماكةً للمياه, تصل لنحو 8 م, تمنعه من تكرار الجفاف, ومن ثم تمنعه من ضياع المياه المتكرر عن طريق التبخر المباشر منه, ذلك يوفر ويتيح ما لا يقل عن 200 مليون $م^3$ من المياه في بحيرات دائمة في بلطة الرملة تحقق توازناً بيئياً وتخدم التنمية المستدامة في النظام البيئي شبه الصحراوي الجاف المحيط بمنطقة بلطة الرملة الغربية جنوب المخيلي.

شكر وتقدير:

في نهاية إنجاز هذا العمل نشكر كل من ساهم وساعد في أخذ القياسات في الميدان ومنهم محمد الحموي وحمزة الحنفي ويوسف الحنفي وأحمد الحنفي ومحمد شعيب وفرج الحبيب سليمان وعوض جبريل غيث, كما نشكر الإخوة الأصدقاء المحليين الذين ساهموا في توثيق بعض الجريانات بالصور الرقمية ومنهم صلاح علي وعبد السلام المدفع وخليفة امراجع وأحمد خليفة امراجع وعلي بو سقاط وحمزة مسعود, لكل هؤلاء نكيل لهم الشكر الجزيل, مع تقدير خاص للابنة ريم الحنفي على ما بذلته من جهد على برنامج الرسام في إخراج بعض اللوحات.

المراجع:

1- الجمهورية العربية الليبية (1964) خريطة طبوغرافية، لوحة المخيلي، مقياس 1:50000، الجيش الأمريكي.

2- محمد غازي الحنفي، عوض جبريل غيث (2012) تقنيات جمع المياه في حوض إقليم الجبل الأخضر، 48 صفحة، المؤتمر الدولي الأول حول موارد المياه بالجبل الأخضر 05 – 07 يونيو 2012، جامعة عمر المختار، البيضاء، ليبيا.

3- محمد غازي الحنفي، عوض عبد الواحد عوض (2012) مشاكل الجريان السطحي في بيئات أحواض أودية المنطقة الوسطى من السفح الجنوبي للجبل الأخضر، 46 صفحة، المؤتمر الدولي الأول حول موارد المياه بالجبل الأخضر 05 – 07 يونيو 2012, جامعة عمر المختار، البيضاء، ليبيا.

4- محمد غازي الحنفي، سعيد إدريس نوح (2012) المتوسط المكافئ للهطول المطري والتقدير الكمي للتساقط على حوض الجبل الأخضر- ليبيا، المجلة الدولية للمركز الليبي للبحوث الزراعية، L.A.R.C.J.I. المجلد 3، العدد (S) 2012، ص، ص 1133 – 1153.

5 – محمد غازي الحنفي (2012) تأثير الطبوغرافيا والبنية الجيولوجية على الوضع المائي في حوض الجبل الأخضر، المجلة الدولية للمركز الليبي للبحوث الزراعية، L.A.R.C.J.I. المجلد 3، العدد (S) ص. ص 1189 – 1234.

7 - Franlab consulting, (1974), photointerpretation map, Hydrography – Vegrtation - Geology, scale 1:250000.

8 – P.Rohlich (1974), geological map of Libya -1:250000, Sheet N I 3415, Ibayda, E plana Tory Booklet, (Industrial Research Centre), Tripoli.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

كفاءة محطات التحليه ومدى صلاحية المياه المنتجة للشرب لمدن (تيجي - بدر - فرسطاء)

* أ. مختار أبوالقاسم حلبودة ** أ. أسماء محمد على إندبها *** أ. منى محمد إندبها.

(*كلية الآداب والعلوم - بدر - جامعة الجبل الغربي - ** كلية العلوم - جامعة طرابلس - ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

كفاءة محطات التحليه ومدى صلاحية المياه المنتجة للشرب لمدن (تيجي - بدر - فرسطاء)

خلاصـــة الدراســـــة

لتقيم نوعية وحدات التحليه في مدن (تيجي – بدر - فرسطاء) والتي اغلبها تستخدم مياه الجوفية بالإضافة إلى مصادر أخرى للمياه المستعملة في هذه المدن ، وبتالي بدءةالدراسة بالتركيزعلى كفاءة هذه الوحدات من خلال جمع عينات مختلفة من مياه محطات التحليهالمختلفة ، ومن ثم تمت دراستها.قبل وبعد المعالجة لعمل مقارنة توضح كفاءة هذه المحطات ومدى تأثير نتائجها على المستهلك ، من خلال تحليلها كيميائياً وبيولوجياً طبقا للمواصفات المعتمدة في ليبيا والتي تحدد كفاءة وجودة محطات التحليه في هذه المدن، أخذين بعين الاعتبارالظروف الصحراوية القاسية وشح المياه المتوفرة داخل هذه المدن والتي بدورها تؤثر على عمل وصيانة هذه الوحدات بالطريقة المباشر أو الغير مباشرة، ويتم التقييم الأولي لعملية التحليه مثلا بالتناضح العكسي على عدة معايير منها إنتاجية الوحدة باللتر للوحدات الصغيرة ، وبالمتر المكعب للوحدات الكبيرة وكذلك جودة الماء المنتج ونسبة طرد الأملاح وتكلفة التشغيل والصيانة ومعدل تغير الأغشية وغيرها .

ABSTRACT

In order to evaluate the types of water desalination plants in the cities of (Tigi-Bader-Farsta), which use the groundwater besides other sources, the study has focused on the efficiency of these plants through collection of selected samples. Upon collection, the samples were studied before and after treatment in order to conduct a comparison that explains the efficiency of these plants and the impact of their results on the consumers through chemical and biological analysis as per the certified specifications in Libya, which determine the efficiency and quality of desalination plants at those cities. Furthermore, the study has put into consideration the hard desert nature and the shortage of water supply at these cities, which in turn affect directly or indirectly the operation, and maintenance of these plants. The initial assessment of the desalination is conducted by reverse osmosis plant on various standards including the productivity of the small plant per liter and per cubic meter for the bigger one as well as the quality of the produced water and desalination ratio besides the operation cost, maintenance and membranes change rate.

المقدمـــــــــة

سندرس في هذا البحث محطات تحليه المياه المتداولة في السوق الليبي والمستخدمة في تحليه المياه الجوفية لاستعمالها كمياه صالحة للشرب البشري والتي تعمل بتكنولوجيا التناضح العكسي حيث شهدت هذه الوحدات انتشارا واسعا في الآونة الأخيرة لأنها توفر مياه للشرب بسعر مناسب لمختلف شرائح المجتمع نظرا لشح المياه بشبكات المياه التي يديرها القطاع العام بالمناطق وارتفاع تكلفة المياه المعبأة المعروضة في السواق[1,2].

تمت الدراسة على وحدات التحليه في مناطق (بدر، تيجي، فرسطاء) وأغلبها تستخدم مياه جوفية كمصدر أساسيلتحليه المياه بالإضافة إلى مصادر أخرى(مياه أمطار, مياه الأوديةالموسمية) للمياه المستعملة في هذه المدن ، حيث انه في السابق تمت دراسة المياه الجوفية لآبار هذه مدن, وتم جمعبعض العينات من مياه الآبار التي تستخدم لأغراض الشرب والري من مناطق مختلفة موزعة ضمن نطاق جغرافي للمناطق

دلت نتائج التحليل الكيميائي والميكروبي للمياه أنها ذات عسرة دائمة وهي تتراوح قيمتها من عالية إلى أعلى منها في توصيلها الكهربائي باستثناء بعض الآبارالتي تكون عندهانسبة الملوحة ليست عالية, فقد كانت اقل من المعدل المسموح بهصحيا[8]. وتصنف مياه الآبار من مياه عذبة FreshWaterمثل التي موجودة في بدر و تيجي,إلى مياه قليلة الملوحة BrackishWater إذا اخذ بعين الاعتبار كمية الأملاح الكلية المذابة المعروفة ب T.D.S(Total Dissolved Salt)مع وجود بعض الآبار ذات مياه مالحة Saline Water مثل آبار تيجي.

طرق تحليه المياه المستخدمة :

1. الطرق الحرارية (التقطير) وتشمل طريقة التبخير متعدد المراحل ــ طريقة التبخير متعدد التأثير ــ طريقة ضغط البخار ــ المقطرات الشمسية .
2. طريقة الأغشية وتشمل التناضح العكسي ــ الديلزة الكهربائية .
3. التبادل الأيوني أو التقطير الغشائي .

ومن الجدير بالذكر أن مياه التغذية المستخدم في كل طرق التحليه يحتاج إلى مرحلة أولية لإزالة المواد العالقة من الطين والرمال وغيرها ، وكذلك إزالة الغازات الذائبة والتخلص من الأحياء المائية الدقيقة كالفطريات والبكتيريا والطحالب بواسطة استخدام أغشية (Filters)[6,5].

وتساعد المعالجات الأولية في لمحافظة على وحدات التحليه من التآكل والصداء ومنع تكون الرواسب على أسطح الوحدات الحرارية أو على الأغشية من ناحية أخرى لإتمام معالجتها[3].الماء المعالج من وحدات التحلية لضبط الخواص الفيزيائية والكيميائية بما يناسب نوعية الاستخدام ، فالماء المستخدم للشرب يختلف عن الماء المستخدم للعمليات الصناعية أو الغلايات البخارية[9].

و بالنظر إلى عدة عوامل منها التكاليف الاقتصادية لسعر الماء المنتج وطبيعة ونسبة الملوحة في مياه الصالحة للشرب وكذلك طبيعة وجودة الماء المطلوب إنتاجه ، فمثلا لمعالجة ماء خفيف الملوحة حتى 500 جزء من المليون يمكن استخدام تكنولوجيا التبادل الأيوني ، وللمياه قليل الملوحة مثل مياه الآبار من 500 جزء من المليون حتى 2000 جزء من المليون يمكن استخدام طريقتي التناضح العكسي و الديلزة الكهربائية[9].

ويعتمد هذا البحث باختبار كفاءة وحدة التحلية المستخدمة في الأسواق الليبية وقدرتها على توفير الماء الصالح للشرب وسنجري أربعة اختبارات على المياه قبل المعالجة والمياه بعد المعالجة والاختبارات هي : (الرقم الهيدروجيني pH ، الأملاح الكلية الذائبة T.D.S ، الملوحة %، درجة التوصيل الكهربي)[7].

المواد وطرق العمل

- **جمع العينات وإعدادها للتحليل :**

اختيرت أماكن جمع عينات المياه لهذه الدراسة من ثلاثة محطات تحليه مدن وهي (تيجي – بدر – فرسطاء)، تم جمع ستة عينات مختلفة من المياه من كل محطات التحليه مختلفة ، ووضعت في قنينات معقمة وسجل عليها البيانات الخاصة بالعينة ثم نقلت إلى المعمل وحفظت لحين إجراء التحاليل الكيميائية والبيولوجية عليها في المعمل داخل كلية الآداب والعلوم بدر جامعة الجبل الغربي .

- **الأجهزة المستخدمة :**

1. جهاز قياس الأسس الهيدروجيني pH نوع WTW pH meter 330.
2. جهاز قياس الأملاح الكلية الذائبة والموصلية نوع WTW Cond 303i.

النتائـــــــج

لتقييم كفاءة محطات التحليه من خلال دراسة الخصائص الكيميائية والبيولوجية للمياه التي تغذي هذه المحطات ومقارنتها بالمياه المعالجة بهامن خلال قياس pH الذي يعطي قيمة تركيز ايون الهيدروجين العينات والتي بدورها تؤثر على الأوساط البيولوجية وT.D.S المتمثلة في مجموع كمية الأملاح الموجودة في هذه العينات وهذه الاختبارات الكيميائية تعتبر الأهم خلال هذه المرحلة ، بالإضافة إلى الموصلية وهو اختبار فيزيائي مهموحدته الأساسية هي (cm/Ms) يتراوح بين (cm/Ms 0.96__ cm/Ms2.58) وهو يعبر عن كمية الأملاح المذابة في مياه قبل المعالجة وقدرتها على توصيل التيار الكهربائي لوجود علاقة ثابتة بينهما .

في الجداول(1-6) نلاحظ تغير كبير وواضح في المقارنة بين نتائج تحليل المياه قبل وبعد المعالجة مع ملاحظة انه عينات(1,2,3) من مدينة تيجي من ثلاث محطات تحليه مختلفة, والعينات رقم(4،5) من مدينة بدر من محطتين مختلفتين ، والعينة رقم (6) من مدينة فرسطاء.

- جدول (1) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (1) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.5	1570	2457	5
الماء بعد المعالجة	6.25	102.3	160.1	0.4

- جدول رقم (2) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (2) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.5	1570	2457	5
الماء بعد المعالجة	6.14	65.5	103.3	0.3

- جدول رقم (3) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (3) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.5	1570	2457	5
الماء بعد المعالجة	6.4	73.8	115.8	0.3

- جدول رقم (4) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (4) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.6	3950	6410	12.2
الماء بعد المعالجة	6.56	92.8	148	0.4

جدول رقم (5) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (5) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.7	3870	6010	11.8
الماء بعد المعالجة	6.44	138	217.5	0.5

- جدول رقم (6) : نتائج تحاليل الماء قبل وبعد المعالجة للعينة رقم (6) :-

نوعية العينة	pH	T.D.S	Ms	الملوحة %
الماء قبل المعالجة	7.5	1395	2181	4.4
الماء بعد المعالجة	7.1	85.2	132.7	0.3

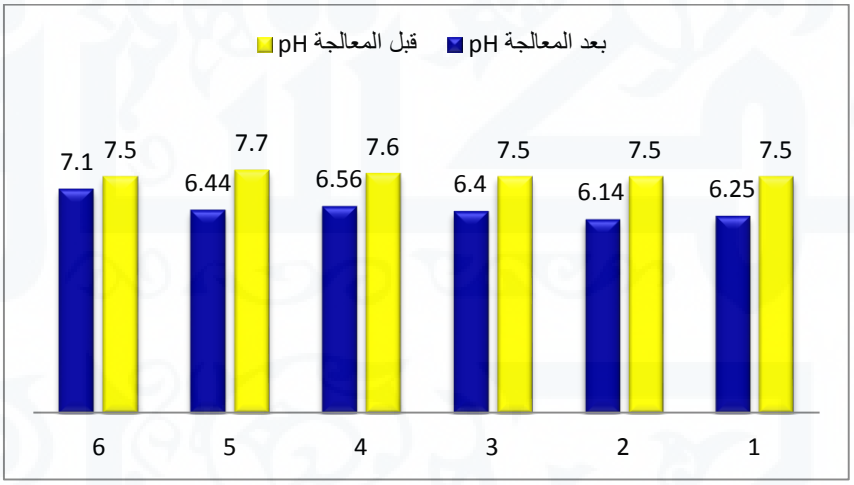

الشكل رقم (1)

في الشكل رقم (1) يوضح قراءات تركيز الأسس الهيدروجيني(pH) للعينات الستة قبل المعالجة وبعدها ، ونلاحظ أن قيمة pH أقل بعد المعالجة رغم أن قيمة الأولى قبل المعالجة و تعتبر مناسبة للاستخدام.

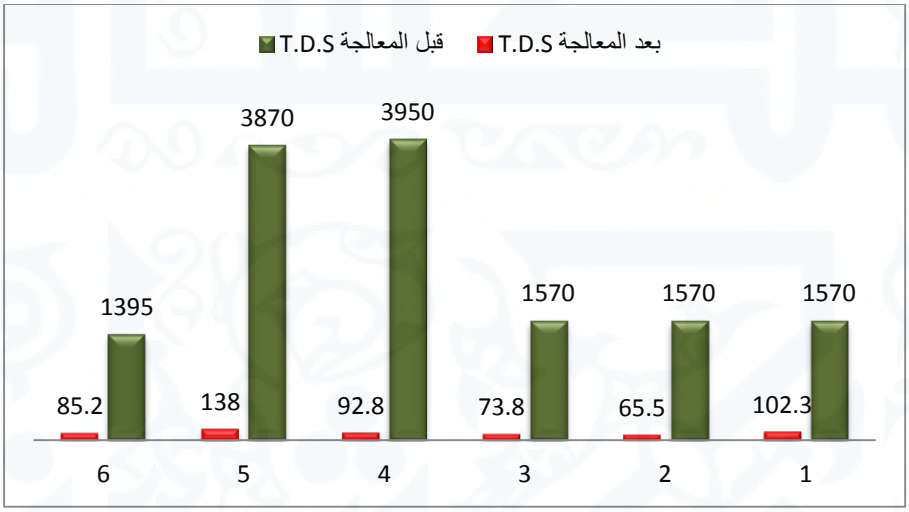

الشكل رقم (2)

من خلال الشكل رقم (2) الذي يوضح قيم مجموع الأملاح الذائبة في عينات المياه قبل وبعد المعالجة ،نلاحظ أن كفاءة مراكز التحليه المستخدمة في هذا البحث تعتبر جيدة ولكن نتائجها لا تناسب الاستخدام البشري في الأكل والشرب ،حيث أن جسم الإنسان يحتاج إلى نسبة من الأملاح، وكذلك بالنتائج الموضحة في الموصلية ونسبة الملوحة في الشكل (3) و (4) فنلاحظ أن كفاءة مراكز التحليه جيدة من حيث نزع الأملاح بشكل كبير من العينات ولكنها تعتبر غير مناسبة صحيا.

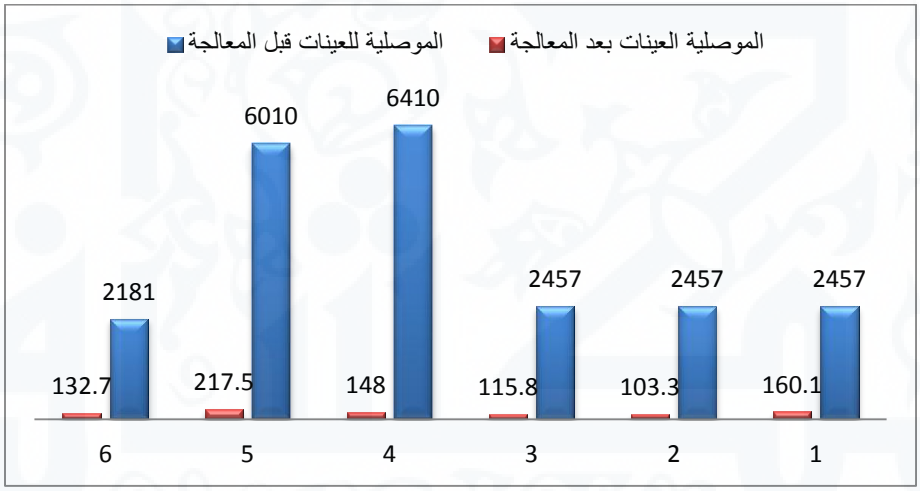

الشكل رقم (3)

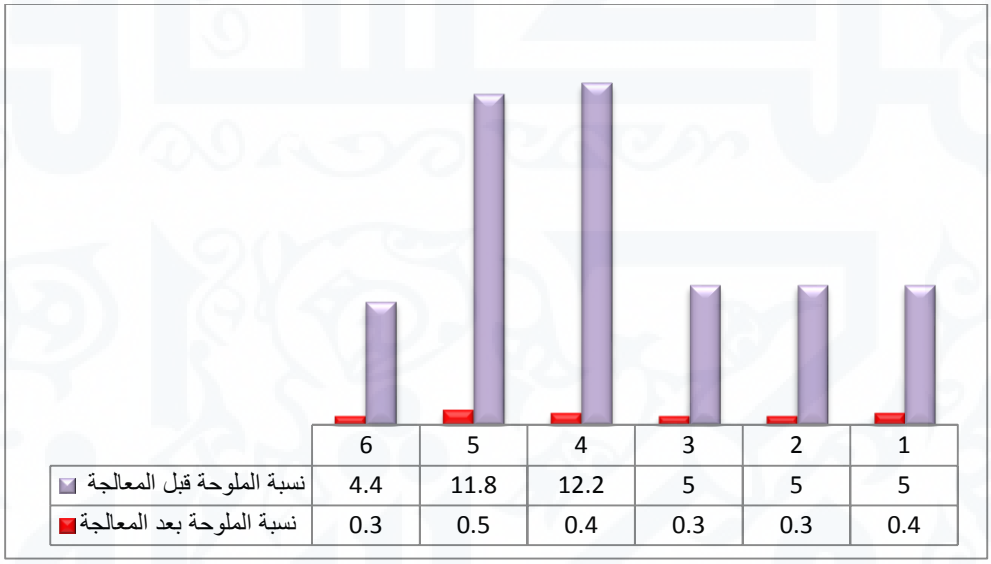

الشكل رقم (4)

الاستنتاجات والتوصيات

1. ضرورة إخضاع المياه المنتجة بواسطة وحدات التحلية للتحليل لمعرفة مدى ملائمتها للاستخدام كمياه صالحة للشرب لأنه لوحظ في هذه الدراسة انخفاض الأملاح الذائبة (T.D.S) عن المواصفات المعتمدة للشرب حيث أن الأملاح الذائبة يجب أن لا تقل عن 500 ملجرام/لتر كحد أدنى و 1000 ملجرام/لتر كحد أقصى .
2. مراقبة محطة التحلية من قبل الدولة وتغيير الأجزاء من فترة إلى أخرى مع مراعاة استخدام نوعية جيدة من قطع الغيار للحصول على نتائج معالجة جيدة.
3. اختيار الأغشية ذات الجودة العالية التي توفر ضمان مياه صالحة للشرب طبقاً للمواصفات المعتمدة.

المراجـــــع

1. محمد إسماعيل (2004) معالجة المياه الطبعة الأولى دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع في القاهرة.
2. احمد مدحت اسلام (1999) الماء سائل ،الطبعة الثانية/ دار الفكر العربي في القاهرة.

3. عبد الوهاب السيد (2000) تكنولوجيا معالجة المياه ،الطبعة الثانية /منشأة المعارف الاسكندرية.
4. محمد السيد ارناووط (1999) الإنسان وتلوث البيئة ،الدار المصرية اللبنانية في القاهرة.
5. مختار ابوالقاسم حلبودة- عبد الكريم حمود الجدوع- مفتاح الكيلاني (2009)تقييم نوعية المياه الجوفية لمجموعة أبار من منطقة نالوت ليبيا.
6. Bodzek ,M ,Konieczny. using membrane processes in water purification, scientific publishing porjprzem-Eko by dgoszcz,pp65-197,2005(in polish).
7. C.Ratanatmskul and K.yamanoto,effect of pH and interferences on nitrate removal by nanofilration membrane especially in every low pressure range of operation,proc.12th IWA-ASPAS conference chiangmal ,Thailand,2000,pp.584-591.
8. H.T.EI-Dessouky and H.M.Ettouney ,fundamentals of salt water Desalination, Elsevier 2002.
9. Sourirajan,S.Reverse Osmosis and synthetic membrane: Theory Technology-Engineering: National Research council Canada: Ottawa,1977;chapter 1.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

التناصّ في شعر أبي الطيب المتنبي

أ. مصباح احمد الصادق.

(كلية الآداب والعلوم - بدر - جامعة الجبل الغربي - ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

التناصّ في شعر أبي الطيب المتنبي

خلاصة الدراسة

يهدف هذا البحث إلى دراسة شعر أبي الطيّب المتنبي (ت 354 هـ) من منظور نقدي حديث تمثله نظرية (التناصّ) التي اهتمّ روّادها ومن تلاهم من النّقُاد الغربيين وغيرهم بالعلاقة بين النصوص الأدبية من حيث أثر النصوص السابقة في تشكيل النصوص اللاحقة أو ما يُسّمى بـ (تداخل النصوص) ويـُعدّ شعر المتنبي صورة سابقة لعصره وحياته بما فيها من ثورات واضطرابات ، ونضج العلم والفلسفة . وتميّز المتنبي بخيال خصب ، وجزالة اللفظ ، ورصانة العبارة ، والبعد عن الصناعة والمحسّنات ، وتمثّل شعره في ديوان كبير توفّر على شرحه أبي البقاء العكبري في أربعة أجزاء وضمنها مجلدات باسم (التبيان في شرح الديوان) .

Abstract

Any research work cannot be carried out without sufficient scientific reliable material. However, with the limited resources available, this study has successfully reached findings summarized as follow: a) The clash between the former Arab critics and the Modernist concerning the conceptual definition of the term"intertextuality" has been observed. b) The use of some types of intertextuality by al-Mutanabi to draw his poetic images such as literary, religious and cultural intertextuality. c) al-Mutanabi's excessive reliance on religious as well as the noble prophetic sayings in creating his poetic images has been highlighted. d) The extreme impact of the Arabic cultural heritage on al-Mutanabi poetry of wisdom and proverbs has been clearly explored.

المقدمـــــــة

أتثبت عدد من النقاد و الباحثين أنّ مصطلح التناصّ بمفهومه الحديث لم يظهر إلاّ بعد النصف الثاني من القرن العشرين على يد الناقدة البلغارية الأصل الفرنسيـــة (جوليا كرستيفا] مستفيدة من أبحاث الناقد الروسي (باختين) حول أعمال (دستوفسكي) الذي درس أعماله الروائية مُنّظراً لمصطلحي تعددّ الأصوات ، والحوارية الذي استخدمــه لدلالــة على العلاقــات بين أيّ تعبير والتعبيرات الأخرى[1] .

وكذلك من خلال أنّ الكلمة في كل نصّ تقيم حواراً مع نصوص أخرى ، وهذه لُب الفكرة التي استعارتها [جوليا كرستيفا] من [باختين] [2] .

ولعلّ (جوليا كرستيفا) كانت تريد تبديل مصطلح التناصّ بمصطلح نقل دلالي أو تحوّل دلالي لإظهار وظيفته كتفاعل دلالي بين النصوص ينتج عنه تحوّل في معانيها إذ إن التناصّ في حقيقته هو تولّد نص عن نص آخر ثُـمّ دخوله في علاقة معه هي علاقة حوارية و سيمولوجية علامية [3] .

فالنصّ عند (جوديا كرستيفا) هو تبادل نصوص ، أو تناصّ في فضاء نصي تلتقي فيه مجموعـــــــة من الملفوظات المأخوذة من نصوص أخرى ، ويُبطل أحدهم مفعول الآخر فهي تمدّ النصّ إنتاجيــة ، وممارسة دالة [4] . غير أن مجموعة أخرى من النقاد والباحثين يخالفون الرأي السابق ومنهم (جريماس) إذْ يرى أنّ أوّل إذْ يرى أنّ أوّل القائلين بالتناصّ هو الروائي الروسي (باختين) الذي يقول :- ((مهما كان موضوع الكلام فإنّ هذا الكلام قد قيل من قبل بصورة أخرى)).[5]

أمّا (ريفاتير) فيرى أنّ التناصّ لا يقتصر على علاقة نص بنصوص أخرى سابقـــة أو معاصـرة لـــه ، وإنّما يتجاوزها إلى تناول علاقة النص بالنصوص اللاحقة أيضاً فهو يتجاوز الوقوف عند النصّ بالنصوص اللاحقة أيضاً فهو يتجاوز الوقوف عند النصّ لحظة إنتاجيه الأولى (كتابته) ليتانول لحظة إنتاجه الثانية (قراءته) ثم يعطي دوراً مهمّا أكبر للقارئ وللقراءة في تحقيق تناصية النصّ[6].

أمّا التناصّ في نقدنا العربي المعاصر فحين دخل هذا المصطلح إلى النقد العربي بداية العقد الثامن من القرن العشرين وبعد الانتشار الواسع والسريع لهذا المصطلح في الدراسات النقدية العربية والغربية فقد أخد هذا المصطلح دلالات عدّة ، منها ، (التناصّ تفاعل النصوص ، تداخل النصوص، جامع النصّ ، التناصية ، الترابط النصي ، التعالق) ، فتعدّد دلالات هذا المصطلح ومفاهيمه منحه اعتدالاً واتساعاً أكثر من مفاهيم بعض الذين أدخلوه في إطار السرقات ، وكأنّهم منعوا توارد الخواطر، والتأثّر والتأثير.

---

(1) ينظر المبدأ الحواري (تودروف ، ميخائيل باختين) ، ترجمة مخري صالح ، طـ 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1996 م : 121 .

(2) ينظر التناصّ ذاكرة الأدب ، (نيفين سامبول) ، ترجمة نجيب عزاوي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2007 م :10 .

(3) ينظر النصّ والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، عدنان بن ذريل منشورات اتحاد الكتّاب العرب دمشق ، 2000 م : 85 .

(4) ينظر النص الغائب (تجليات التناصّ في الشعر العربي ، محمد عزام ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001 م : 28 .

(5) المبدأ الحواري : 124 .
(6) ينظر النص الآخر في عالم جبرا إبراهيم جبرا ، حسن محمد ولات جامعة دمشق ، 1999 م :29

وهكذا اختلف النقد العربي الحديث في هذا المصطلح كما اختلف فيه النقد القديم أيضاً ، فتبنّينا هذا المصطلح لا يمنعنا من الرجوع به إلى التراث ، ورجوعنا به إلى التراث لا يعني أيضاً التخلّي عمّا جاء به النقد الحـداثي أو الحداثوي كلّياً ، لأنّ للتراثيين طـرقهم وأساليبهم في دراسة التناصّ [1] ، وظهر مصطلح التناصّ في النقد العربي في الثمانينات من القرن العشرين على يد (سيزا قاسم) في مقالتها (المفارقة في النص العربي) التي نتحدث فيه عن التضمين كمقابل للمتعاليات النصية عند (جينيت) و (محمد مفتاح) في كتابه (تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناصّ) ، و (سامية محرز) في مقالتها (المفارقة عند جوس) وصبري حافظ في مقالته (التناقض واشارات العمل الأدبي) [2] .

ويرى سعيد يقطين أنّ النقّاد العرب استعملوا التفاعل النصّي مرادفاً لما شاع تحت مفهوم التناصّ أو المتعاليات النصية كما استعملها (جينيت) [3]

فالتناصّ دخل بترجماته المتعددة إلى النقد العربي الحديث وانتشر انتشاراً واسعاً حتى إنه لا يكاد يخلو منه أيّ كتاب نقدي حديث ، فالعلاقة بين النصوص قديمة منذ أن عُرف الأدب ولكن معرفتنا بهذا المصطلح هي التي تبدو جديدة وإنّما كانت له مسمّيات أخرى ، مثل : السرقات ، والتضمين والاقتباس، و المعارضات ، وغيرها ، فاستطاع البحث العلمي في سعيه المستمرّ ، وتكشفه الدائم أنْ يظهر من خلال ذلك مصطلحات جديدة [4] .

مفهوم التناصّ :

تعدّدت مفاهيم التناصّ الأمر الذي جعل من الصعوبة أنْ نضع تعريفاً واحداً لها ، لذلك تعدّدت التعاريف وتنوّعت إذْ اختلفت في ألفاظها ولم تختلف في مضمونها ومعناها ، ولم يتفق المترجمون العرب المعارضون بعدُ على تعريف واحد لمصطلح التناصّ ، فبعضهم يعرّفه بالتناصّ وآخرون بالتناصية، وفريق آخر بالنصوصية وقسم بالتداخل بين النصوص ، لكنّ مصطلح (التناصّ) هو الذي شـــاع و انتشر، بعد أنْ استفاض الحديث مؤخّراً عن المناهج النقدية، و الألسنية، والبنيوية ، والسيميائية[5].

(1) ينظر نظرية التناصّ بين التراث والحداثة ، عبد العزيز سانا كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 2008 م : 7 .
(2) ينظر شعرية الخطاب السردي ، محمد عزام ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005 م : 114 -115 .
(3) انفتاح النصّ الروائي ، سعيد يقطين ، المـــركز الثقافي – الدار البيضاء - المغرب ، 1999 م : 41 .
(4) مصطلح التعالق النصي بين التأريخ و الواقع ، عبد السلام أبوبكر شفشوف ، طرابلس ، 2001 م : 258 .

وكان أوّل تعريف للتناصّ هو لجواليا كرستيفا الذي قالت عنه " إنّ علاقة النصّ باللغة التي تتموضع فيها هي علاقة إعادة تنزيع (هدم / بناء) فالتناصّ هو ترحال للنصوص وتداخل نصّي ، ففي نصّ معيّن تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى ، وبمعنى آخر إنّ كلّ نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات ، وكلّ نصّ هو اقتصاص وتحويل لنصوص أخرى" [1] .

أمّا (ليتش) فعّرفه بقوله : " إنّ النصّ ليس ذاتاً مستقلةً ، أو مادّة موحدة ولكنّه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى ، إنّ شجرة نسب النصّ شبكة غير تامّـــة مـــن المقتطفات المستعارة شعورياً أو لا شعورياً "[2] .

ومفهوم هذا التعريف أنّ (التناصّ) يعني توالد النصّ ، من نصوص أخرى وتداخل النصّ مع نصوص أخرى ، وانّ النصّ هو خلاصة لما يحصى من النصوص ، من هنا تعالق النصّ مع نصوص أخرى - إذاً – فلا حدود للنصّ وإنّما يأخذ النصّ من نصوص أخرى ، ويعطيها في آنٍ واحد [3] .

أمّا (جينيت) فذكر التناص بأنّه " مصطلح التعالي النصّي الذي يعني كلّ ما يجعل نصاً يتعلّق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني ، أو هو حضور نصّي في نصّ آخر كالاستشهاد و السرقة وغيرهما " [4] .

وقال : (بارت) : " إنّ كل نصّ جديد نسيج جديد لاقتباسات ماضية " [4] .

أمّا العرب المحدثين فذكر الناقد السعودي (عبد الله الغذامي) أنّه " نص يتسرب إلى داخل نصّ آخر يجسد المدلولات سواء وعي الكاتب ذلك أم لم يعِ ، فالنصّ يصنع من نصوص متضاعفة التعاقب على الذهن منسجمة مع ثقافات متعددة ومتداخلة في علاقات متشابكة " [5] .

وقال (محمد مفتاح) "هو تعالق أي الدخول في علاقة نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"[6].

ويرى (سعيد يقطين) انّ (التعلق النصّي) هو وصف العلاقة بين نصّين منطلقاً من الإيحاءات التي يحملها فعل تعلّق ، فالنصّ اللاحق ينتقي ويختار النصّ السابق الذي يراه يستأهل أنّ يكون موضوعاً لمواصفات خاصة مميزة ، وفي حال التعلّق النصّي نجد النصّ اللاحق يوظّف الأنماط الأخرى التي تبرز لنا من خلال مواطن التعلّق وأنواعه ، وطرائقه [7] .

---

(1) ينظر النص الغائب : 39
(2) علم النصّ (جوليا كرسيفيا) ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقـــال – الدار البيضاء المغـــرب ، ط 2 ، 1997 م 21 – 26 .
(3) ينظر النصّ الغائب : 28 .
(4) المصدر السابق : الموضع نفسه .
(5) شعرية الخطاب السردي : 114 .
(6) التناص ذاكرة الأدب : 13 .
(7) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، عبد الله الغذامي ، النادي الادبي الثقافي – جدة 1995 م : 320 – 323 .
(8) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناصّ) ، محمد مفتاح ، ط 3 ، المركز الثقافي العربي – المغرب ، 1992 م : 120 – 121 .
(9) ينظـر الروايـة والتـراث السـوري ، سعيد يقطين ، ط 1 ، دار رؤيـة للنشـر والتوزيع ، القاهرة 2006 م : 5 .

أنواع التناصّ :

للتناصّ أنواع ذكرها الباحثون ، هي :

أ- التناصّ الأدبي (الشعري) .

ب- التناصّ الديني

ج- التناصّ الثقافي

د- التناصّ التاريخي .

وسنتحدث عن كلّ نوع ورد في ديوان المتنبي .

أ- التناصّ الأدبي (الشعري) :

ديوان المتنبي حافل بالتناصّات مع الشعراء الآخرين من ذلك قوله يمدح كافوراً الأخشيدي بقصيدة طويلة منها قوله

لـــيـــت الحـــوادثَ بـــاعتنـــي الـــذي أخذتْ

مـــني بحلمـــي الـــذي أعطـــت وتجـــريبي [1]

وهنا نرى الشاعر أنّه يتمنى عود الشباب إليه الذي أخذته منه حوادث الزمان ، ويتمنى المتنبي أن يشتري هذا الذي أخذه الزمان ، والمعنى أنّ زيادة العقل هو نقصان الشباب وهذا ما ذكره الشاعر علي بن جبلة المعروف بـ (العكّوك) الذي يتناصّ معه المتنبي بقوله :

وارى الليـــالي مـــا طـــوت من قوتي

زادتـــه فـــي عقـــلي وفـــي إفهـــامي [2]

وقول المتنبي :

ظِلـــتَ بهـــا تنطـــوي عـــلى كـــبدٍ

نضيجـــةٍ فـــوق خلبـــها يَـــدُهـــا [3]

يقول : ظللتَ بتلك الدار تنثني على كبدك واضعاً يدك فوق خليها ، والمحزون يفعل ذلك كثيرا لما يجد في كبده من حرارة الوجد يخاف على كبده أن تنشق كما قال الصمة بن عبد الله القشيري :

وأذكـــرُ أيـــامَ الحِمـــى ثمّ أنثنـــي

عـــلى كبـــدي مـــن خشيـــةٍ أنّ تصـــدّعـــا [4]

وكذلك من شعر المتنبي ما وصف به قبر ممدوحيه:

و مـــا ريـــحُ الـــرياضِ لها ولكـــنْ

كساهـــــــا دفنهـــــم فـــــي التُـــــربِ طيبـــــاً [5]

---

(1) التبيان في شرح الديوان ، شرح أبي البقاء العكبـري ، ضبطـه وصححـه مـصطفى السقـا ، وإبراهيم الإبياري ، دار الفكر – بيروت – 1997 م : 170/1 .
(2) محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي بن محمد البجاوي : 345 .
(3) التبيان في شرح الديوان : 1 / 295 .
(4) الوساطة : 341 .
(5) التبيان في شرح الديوان : 1 / 144 .

يعني الشاعر أن هذه الرائحة الطيبة التي تجدها في الرياض هي في الحقيقة نابعة منه ، وانّ مبعثها الحقيقي هو آباء الممدوح فقط دُفِنوا في هذه الرياض فهو ما أكسبها هذه الرائحة فما يفوح إنّما هو ريحهـم، وهذا المعنى نجده متناقصاً مع قول أبي تمامٍ :

أرادو لـــــــيخُفوا قبـــــرهُ عـــــن عـــــدوّه

فطيـــبُ تـــرابٍ القبـــرِ دلّ عـــلى القـــبرِ [1]

أي : عندما أراد أهل هذا الممدوح أنْ يخفوا قبره عن عدوّه مخافة العبث به أبى القبر إلاّ أن يظهر نفسه لانّ من فيه كان مبعثاً لرائحة طيبة ، هذه الرائحة دلّت العدو على القبر وهذا كلّه من التناصّ بالمعنى الذي يسمّيه النقّاد بـ (التناصّ غير المباشر) .

ومن صور التناصّ المباشر قول المتنبي :

كُـــــنْ أيّـــــها السجـــــنُ كيـــــف شئت فقد

وطّنْـــــتُ للمـــــوتِ نـــــفسَ مـــــعترفٍ

لَـــوكـــــانَ سكنـــــايّ فِيـــك منقصـــــــةً

لـــم يـــكُنْ الـــدُرُّ ســـاكن الصـــــــدفِ [2]

يخاطب الشاعر السجن معزّياً نفسه في هذا المكان غير اللائق به مع المجرمين وأصحاب الجنايات ، وأنّه لا يعدّه منقصة له ، فلو كان نزوله فيما يحلق به نقصاً لما كان الدرّ مع كبر قدره ساكن الصرف الذي لا قيمة له ، وقد شبّه نفسه في السجن بالدر في الصدف ، وهذا اخذه من الشاعر ابن هفّان الذي يقول :

وزادهـــا عجبـــاً أنْ رُحْـــتُ فـــي شمـــــل

ومـــــا درتْ دُرَ أنّ الـــــدرَّ فـــــي الصَـــــدَفِ [3]

وهنا نجد تغير يسير فالمتنبي (لم يكن الدرُّ ساكنَ الصدفِ) وابن هفّان (وما دارتْ دُرّ أن الدُرَّ في الصدفِ) . وهذا اقتضاه الوزن .

وقول المتنبي في مدح الحسين ابن إسحاق التنوضي :

ولا تفتـــــقُ الأيـــــــــام مـــــــا أنتَ راتِـقُ

ولا تـــــــــرتقُ الأيـــــــامُ مـــــــا انتَ فـــــــاتقُ (4)

---

(1) التبيان في شرح الديوان : 1 / 295 .
(2) التبيان في شرح الديوان : 2 / 281 .
(3) الوساطة : 230 .
(4) التيان في شرح الديوان : 2 / 122 .

فإن هذا المعنى أخذه المتنبي من شعراء كثيرين تمثّل في شعرهم ، من ذلك مثــول أشجع بن عمرو السُلمي :

فمـــــا يـــــــرفعُ النـــــاسُ من حَطّـــــــــــــهُ

ولا يضـــــعُ النـــــاسُ مَـــــنّ يـــــــــرفـــــــعُ (1)

وقول أبي تمام :

فـــــــــإن أفســـــــدت شيـــــئاً فليس بصالح

وإن أصـــــلحت شيـــــئاً فليـــــس بفـــــــــــاسدِ (2)

وفي هذه النصوص كلّها لا يستطيع الناس مخالفة الممدوح في شيء فما يفعله ليس لهم عليه تعقيب، ومنها كسره لا يجبرُ ، وجبره لا يهيض ، فهــو الذي يسكر ويجبر .

من خــلال ما ذكرناه نرى أنّ المتنبي اختلف عن الشعراء الباقين في أن التناصّ عنــده هــو تناصّ بالمعنى ، أي : غير مباشر ، وهذا هو التعالق النصّي بعينه فهو هنا يقيم حواراً بين شعره والمضامين و الرمــوز ، والشخــوص الشعرية التي وظّفها لخدمة نصّه مختزلاً زمنها وأحداثها ، وطابعها الواقعي والفني ، والايقاعي في عوالم شعرية موازية ، تكون بمثابة ذاكرة شعرية رافدة ومغذية للدلالة .

ب - التناصّ الديني :

كان التناصّ الديني ولا يزال مصدراً مركزياً لمعظم شعراء العربية يستمدون منه كثيراً من الموضوعات والشخوص ، والرموز ، والمواقف ، والرؤى ، التي تشكل محوراً مهماً لأعمالهم الأدبية التي يعبّرون من خلالها عن أفكارهم وقضاياهم ، وهمومهم ، وطموحاتهم ، وتجاربهم الخاصّة ، ويتنّوع التناص الديني من قرآن كريم ، وحديث نبوي .

أوّلاً – القرآن الكريم :

انقسم التناص لدى المتنبي من القرآن الكريم على نوعين مباشر ، وغير مباشر ، أي : باللفظ ، والمعنى من ذلك قوله :

ومـــــا ذاك بخـــــــلاً بالنفـــــــوس على القنا

ولـــكنّ صـــــدمَ الشـــــرِّ بالشـــــرِّ أحـــــزمُ [3]

وأخذه بالمعنى (غير مباشر) من قوله تعالى : " وجزاءُ سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلحَ فأجرُهُ على الله إنه لا يحبّ الظالمين " [4]

---

(1) الوساطة : 305 .
(2) المصدر السابق : الموضع نفسه .
(3) التبيان في شرح الديوان : 3 / 350 .
(4) سورة الشورى ، الآية (40) .

وكذلك قوله :

مخضّبـــــةً والقـــــــوم صَـــــرْعى كأنّها

وإنْ لـــــم يكـــــونوا ســـــاجدينَ مســـــاجدُ [1]

وهنا يتحدث عن حرب المسلمين مع الروم حيث يقول لقد تركتُ بلادهم ملطخة بدمائهم ، وأهلها مقتولون مصروعون ، ومثله قوله تعالى حينما سخّر الله سبحانه وتعالى على قومٍ عادٍ الريح " سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القَوم فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاوية " [2]

وكـذلك قول المتنبي :

أهـــذا جزاء الصـــــــــدقِ إنْ كنتَ صادقاً

أهـــذا جـــزاءُ الكـــذب إن كنـــتَ كـــاذباً [3]

و المتنبي يقول : إنْ كنت صادقاً في مديحك فليس ما تعاملني به جزاء لصدقي ، وإنْ كنت كاذباً في مديحك فليس ما تعاملني به جزاء له ، لأنّني كذبتُ تجّملاً لك في القول ، وكان حقّه التجمّل في المعاملة فلا الصدقُ نال جزاؤه عندك ولا هذا الذنب نال جزاءه ، وإن كان الأصل في الجزاء ما قاله تعالى :

" منْ كفرَ فعليه كفره ومنْ عملَ صالحاً فلأنفسهم يمهدون " [4]

وكذلك قول المتنبي :

إن كـــــــان قـــد مـــــلكَ القلوب فإنّـــه

مـــــلكَ الزمـــانَ بأرضـــه وسمـــــائهِ [5]

يعني إن كان هذا الممدوح قد ملكت محبته القلوب فإنّ هذا ليس مستغرباً ، فقد ملكَ الزمان وما فيه فجاء الشاعر في الشطر الثاني بهذه الصورة التي عبّر بها القرآن عن قدرة الله وسطوته في مثل قوله

تعالى " لله ملكُ السموات والأرض وما فيهّن وهو على كلّ شيء قدير " [6] ، ولو نظرنا إلى مفردات كل من النصّين وجدناها تدور حول (الملك ، الأرض ، السماء ، الناس) .

---

(1) التبيان في شرح الديوان : 275/1 .
(2) سورة الحاقة : الآية (7) .
(3) التبيان في شرح الديوان : 1 / 71 .
(4) سورة الروم : الآية (44) .
(5) التبيان في شرح الديوان : 1 / 3 .
(6) سورة المائدة : من الآية (120) .

وكذلك قول المتنبي :

يستـــــأسرُ البطـــــــل الكمـــــيُّ بنظـــــرةٍ
ويُجـــــــولُ بيـــــن فـــــؤاده
وعـــــــــــزائهِ [1]

يبين لنا الشاعر كيف أنّ الهوى والعشق يستولي على القلب فلا تكون إرادة بعد ذلك ، ويلجأ الشاعر في عجز البيت إلى أنّ يتناصّ مع قوله تعالى :

"إنّ الله يحول بين المرءِ وقلبه " [2] .

ثانياً : الحديث النبوي الشريف :

تناصّ المتنبي مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً في شعره ، من ذلك قوله في مدح سيف الدولة :

لنـــــــــــا ولأهـــــله أبـــــداً قلـــــوبُ
تـــــلاقي فـــــي جســـــومٍ مـــا تـــــلاقي [3]

يذكر لنا المتنبي أن أهل هذا الربع قلوبُ تتلاقى في ، يعني نحن نذكرهم ، وهم يذكروننا فكأننا نتلاقى بالقلوب ، وهذا تناصٌ مع قوله صلى الله عليه وسلم :

" الأرواح جندٌ مجنَّدة فما تعارفَ منها ائتلف وما تناكر منها اختلف " [4]

وقول المتنبي :

أغـــــــاية الـــــدينِ أن تحفـــــوا شـــواربكم
يـــــا أمةً ضحكـــــت مـــــن جهلـــــها الأمـــــمُ [5]

يقول المتنبي لأهل مصـر لا شيء عندكم من الدين إلاّ إحفـاء الشـوارب حتّى ضحكت منكم الأمم ، وفي الحديث النبوي الشريف " إنّه أمر بإحفاء الشوارب وإعفاء اللحى " [6]

(1) التبيان في شرح الديوان : 1/ 73 .
(2) سورة الأنفال : من الآية (24) .
(3) التبيان في شرح الديوان : 2 / 294 .
(4) رواه البخاري رقم (3158) ، ورواه مسلم في صحيحه برقم 2638 ، ينظر تفسير ابن كثير ، جمال الدين أبو الفداء ، دار الأندلس بيروت ، بدون تاريخ : 3 : 76 .
(5) التبيان في شرح الديوان : 4 / 178 .
(6) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر – بيروت : 14 / 187 .

وقول المتنبي :

كـــــــم قتيـــــــلٍ كمـــــا قُتلـــــتُ شهـــــيدُ
لـــــــــــبياض الطِـــــــلى وورد الخـــــــــــدودِ [1]

وهنا جعل المتنبي قتيل الحبّ شهيداً لما روي في الحديث "إنّ منْ عشقَ وعفَّ وكتم ماتَ شهيداً " [2]

وقول المتنبي :

يـــــــــــترشّـــــــــــــفْنَ من فمي رَشَفاتٍ
هُـــــــنَّ فيـــــــه أحلـــــــى مـــــــــن التـــوحيدِ [3]

وهنا يذكر الشاعر أنّ رشفات محبوباته أحلى من كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الاّ الله) ، والحقيقة أنّ (التوحيد) نوع من التمر ، وهو الصحيح ، وفيه تناصّ مع الحديث : " ثلاث منْ كنّ فيه وجدّ حلاوة الإيمان " [4] .

وقول المتنبي :

تـــــــعجّـــــــل فـــــي وجـــــوبِ الحُـــــدودِ
وحـــــدّي قُـــــبيلَ وجـــــبِ السجـــــــودِ [5]

ويشير المتنبي هنا إلى أنه كان صبياً ولم يبلغ الحلم ، أي لم يبلغ سن الاحتلام ، بمعنى أن عقله لم يكتمل، الصلاة لم تجب عليه بعد ، وهنا يتناصّ الشاعر مع حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم : " رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة : الصبي حتّى يحتلم ، أو يستكمل خمس عشرة سنة ، وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتّى يُفيق " [6]

وهذه النصوص تفيد بأنّ التكليف إنّما يأتي بعد سن الطفولة وبلوغ الاحتلام ، ومن طرف آخر يضع نفسه موضع التعليم والتربية وليس في موضع العقاب وتطبيق الحدود .

(1) التبيان في شرح الديوان : 1 / 315 .
(2) المصدر نفسه : 1 / 315 .
(3) التبيان في شرح الديوان : 315/1 .
(4) صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، حديث رقم (15) .
(5) التبيان في شرح الديوان : 346/1 .
(6) صحيح البخاري : حديث رقم : 298 .

ج – التناصّ الثقافي :

ويتمثّل التناصّ الثقافي في شعر الحكمة والأمثال التي برع الشاعر بها براعةً لا مثيل لها ، فكثير من ابياته تسري مسرى المثل ، فتغنّى بها الناس وأنشدتها الأجيال ، واستشهد بها القائلون للتدليل على صحّة أقوالهم ، ومن ذلك قول المتنبي :

تـــــــــملّكـــــــها الآتـــــــــــي تمـــــــــلُكَ سالبٍ

وفـــــــــارقـــــــــها المـــــــاضي فراقَ سليبٍ [1]

وهذا تناصَ مع الموعظة المعروفة : " إنّ ما في أيدكم أسلابَ الهالكين وسيتركها الباقون كما تكرها الأوّلون " [2] .

كلّ من النصيب تركها يجعل من الذي انقضت مدته وانتهى أجله ، قد مضى وهلك ، وانتقل كل ما كان له إلى غيـــره ، وقد أتى ليحلّ محلّـــه ، فكأنّ الذي أتى قد سلب ذلك الذي مضى ، فتحوّلت الصورة إلى سالب ومسلوب ، وهذا البيت جاء في عزاء سيف الدولة في موت عبده .

وقول المتنبي :

إذا تـــــــــــرحّلْتَ عن قـــــــــــومٍ وقد قدروا

أنْ لا تُفـــــــــارقُهُم فالـــــــــراحلونَ هُـــــــــــمُ [3]

وهذا البيت يتناصّ فيه عن المتنبي مع قول الحكيم :

" من لم يردكَ لنفسه فهو النائي عنك وإنْ تباعدتَ أنتَ عنه " [4]

وهنا يجمع البيت والحكمة على انّ إذا لم تحصل محاولة الإرجاع دلّ هذا على البعد الداخلي فالراحل هو المقيم وليس الذاهب ، لانّ الرحيل متعلّق بالقلب ، فلو كان القلب متعلّقاً بهذا الذاهب لكان قد دفع صاحبه إلى محاولة إرضائه وإكرامه للحيلولة دون رحيله .

وكذلك قول المتنبي :

لـــــــــعلّ عتبـــــــــكَ محمـــــــودُ عـــواقُبهُ

فـــــــربّما صحّتِ الأجســـــــامُ بالعَلَـــــــلِ [5]

---

(1) التبيان في شرح الديوان : 1 / 50 .
(2) المصدر السابق الموضع نفسه .
(3) التبيان في شرح الديوان : 3 / 367 .
(4) المصدر السابق : 3 /372 .

(5) المصدر نفسه : 3 / 81 .

وهذا يتناصّ مع قول الحكيم : قد يَفسدُ العضو لصلاح الأعضاء كالكيّ والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرهما " [1]

والحكمة من هذا النصّ أنّ الاجسام تصحّ بفقد بعض منها لأجل أنْ تبقى الأجزاء الأخرى .

وقول المتنبي :

يهـــــــون عليـــــــــــنا أن تُصـــــــــابَ جســومنا

وتســـــــلمُ أعـــــــراضٌ لـــــــنا وعقـــولُ [2]

والشاعر يتناصّ مع قول الحيكم : " عللُ الإفهام أشدّ من عللِ الأجسام " [3] .

ويبين الشاعر أنّ من الهيّن أن تصاب الأجسام في الحروب ، وأن تتعرّض للجراح والقتل على أنْ تسلم أعراضنا وعقولنا ، ولعلّ ما يجمع بين هذين النصّين هو أنّ الأجسام تأتي في مرحلة تالية وتسبقها الأعراض والعقول .

وقول الشاعر المتنبي :

وأغيْـــــــــدُ يهـــــــــــوى نفســـــــهُ كلُّ عاقلٍ

عـــــــفيفٍ ويهـــــــوى جسَمـــــهُ كـــــلُّ فـــــاسقِ [4]

وهنا يتناصُّ الشاعر مع قول الحكيم :

" اللبيبُ يهوى الأرواح والفاسد يهوى السفاح " [5] .

وفي هذا البيت إشارة إلى أنّ المتنبي كريم النفس لا يميل إلى ما فيه حرجُ ، فالعاقلُ اللبيب يميل إلى محبّة النفس ، والفاسق الجاهل يميل إلى الجسم .

---

(1) التبيان في شرح الديوان : 3 / 86 .
(2) المصدر السابق : 109/3 .
(3) المصدر نفسه : 110/3 .
(4) المصدر نفسه : 2 / 317 .
(5) التبيان في شرح الديوان : 2 / 317 .

وقول المتنبي :

وأظـــــــــــلمُ أهـــــــــــلَ الظلمِ مـــــنْ باتَ حاسداً

لمـــــــــنْ بـــــــــــاتّ في نعمائهِ يتقلّبُ [1]

و التناصّ هنا واضــح مع قــول الحكيم : " أقبحُ الظلم حسدُ عبدِك الذي تنعمُ عليه لك " [2]

والكلام كثير في هذا الموضوع ، وقد سطّر المتنبي هذا كلّه في فنّ جميل يعشقه الناس ويتيهونَ به حباً ويتغنّون بما ينطوي عليه من مشاعر إنسانية نابضة نبض الحياة بما فيها من طيور وأطياف ملونة، ومياه صافية رقراقه ، وهو مع ذلك كلّه مستودع أمين ، ومرآة صادقة تعكس ما يعتلج في نفوس الناس، وما تضجّ به حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية وما تكتنفهم من آمال وآلام وطموحات.

(1) المصدر السابق : 185/1 .
(2) المصدر نفسه : الموضع نفسه .

- مصادر البحث –

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .
1- انفتاح النصّ الروائي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي الدار البيضاء ، المغرب 1999 م .
2- التبيان في شرح الديوان ، أبو البقاء العكبري ، ضبطه وصحّحه مصطفى السقّا ، وإبراهيم الإبياري ، دار الفكر - بيروت ، 1997 م .
3- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناصّ) ، محمد مفتاح ، ط 3 ، المركز الثقافي العربي - المغرب 1992 .
4- تفسير ابن كثير ، جمل الدين أبو الفداء ، دار الأندلس بيروت ، بدون تأريخ .
5- التناصّ ذاكرة الأدب ، (نيفين سامبول) ، ترجمة نجيب عزاوي ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق 2007 م .
6- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، عبد الله الغذامي ، النادي الأدبي الثقافي ، جدّة – 1995 م .
7- الراوية والتراث السردي ، سعيد يقطين ، ط 1 ، دار رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006 م .
8- شعرية الخطاب السردي ، محمد عزام ، منشورات اتّحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005 م .
9- صحيح البخاري ، البخاري ، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان بدون تأريخ .
10- علم النصّ (جوليا كرستيفيا) . ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال ، الدار البيضاء – المغرب ، ط 2 ، 1997 م .
11- المبدأ الحواري (تودروف ، ميخائيل باختين) ، ترجمة فخري صالح ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1996 م .
12- مصطلح التعالق النصّي بين التأريخ والواقع ، عبد السلام أبوبكر شفشوف ، طرابلس ، 2001 م .
13- النصّ الآخر في عالم جبرا إبراهيم جبرا ، حسن محمد دلات ، جامعة دمشق ، 1999 م .
14- النصّ الغائب (تجليات التناصّ في الشعر العربي ، محمد عزام ، منشورات أتّحاد الكتّاب العربي ، دمشق 2001 م .
15- النصّ والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، عدنان بن ذربل ، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق 200 م .
16- نظرية التناصّ بين التراث والحداثة ، عبد العزيز سانا ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 2008 م .
17- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعليّ بن محمد البجاوي ، القاهرة – مصر ، بدون تأريخ .

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الآثار الاقتصادية والاجتماعية للحرب العالمية الثانية على ليبيا

د. علجية بشير العرفي.

(استاذ مشارك – قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة بنغازي - ليبيا)

الآثار الاقتصادية والاجتماعية للحرب العالمية الثانية على ليبيا

ملخص البحث

إن الحرب عندما تنشب لا تعرف حدوداً بل إنها تطال شعوباً لا علاقة لها بها، وهذا ما حدث لليبيا من جرّاء الحرب العالمية الثانية. فليبيا بحكم كونها مستعمر إيطالية أصبحت ميداناً لهذه الحرب وأدى ذلك إلى وفاة الآلاف من المدنيين وتدمير البيوت والمؤسسات والطرق والموانئ وغيرها من المرافق الضرورية. إضافة إلى ذلك أدت الحرب إلى زرع مساحات شاسعة من إقليم برقة بالألغام، وكان لهذه الألغام تأثيراتها السلبية التي امتدت إلى ما بعد الحرب.

ويرجع اختيار هذا الموضوع مجالاً للبحث نظراً لما تشهده ليبيا من صراع مسلح قد يؤدي إلى أضرار قد تفوق تلك التي خلّفتها الحرب الكونية الثانية.

أما عن الهدف من هذه الدراسة فهو توضيح ما للحرب من آثار سلبية على الطرفين سواء الطرف المنتصر أو المهزوم، فالحرب بويلاتها لا تخلف إلا الدمار مهما أدت إلى آثار إيجابية غير مباشرة. ولتوضيح الفكرة المراد طرحها سأتبع المنهج التحليلي القائم على استقاء المعلومات من المصادر والمراجع وتحليلها للوصول إلى صورة أقرب للواقع.

وقد توصلت الدراسة من خلال البحث إلى نتائج أهمها:

- أن الحرب أدت إلى خسائر مادية وبشائر جسيمة وكان إقليم برقة أكثر الأقاليم تضرراً.
- أدت الحرب إلى تعطيل كافة الخدمات الصحية والتعليمية مما أدى إلى انتشار الأمراض وبروز ظواهر سلبية في المجتمع.
- امتدت آثار الحرب إلى ما بعدها بسنوات نتيجة لزراعة الألغام في أراضيها.

توصيات البحث:

- إن الحرب مهما كانت نتائجها إيجابية إلا أن كل الأطراف المتحاربة خاسرة. ولذا فمن الأجدى حل المشكلات بأسلوب الحوار حتى يتسنى للأطراف المتنازعة التفاهم وقطع الطريق على الانتهازيين.
- إن التعريف بويلات الحرب يحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات المركزة التي تقوم بدورها بالتوعية والإرشاد.

Abstract

When the war breaks out, it know no boundaries, but it affects innocent people who have nothing to do with it. This is what happened in Libya during World War II, when too many innocent civilians suffered a great deal of its destruction.

As former Italian colony, Libya became the battlefield for the fighting force of the Allied and the Axes. This cause the death of thousands of civilians, and inflected massive destruction of facilities, homes, roads, ports and other important facilities in the areas where the fighting took place. In addition, the war left behind large amount of mines in Cyrenaica that caused the death of many Libyans after the war.

This subject has been chosen for research, because of the current situation in Libya, which reminds us with the war years and its devastating impact the current fighting in the country between the army and the militant groups may cause more damage and destruction which may exceed that of the second World War.

The aim of this study is to try to clarify and indicate that the war has negative impact on the two fighting opponent, no matter who wins. The war leaves behind only destruction and suffering.

To explain and clarify this topic I will follow an analytical approach based on the selection of information from sources and analyze them scientifically in order to reach sound and acceptable interpretation.

Among the concluding remarks which I have been able to draw form this study are:

1- World War II caused great losses in Libya both in materials and human lives, especially in Cyrenaica where the focus of battels and military operations took place.
2- Almost all public service palces were closed, including health care centers, sanitation and schools.
3- The war years witnessed less economic activity and the people suffered from shortages in food supplies and faced real poverty.

Recommendations:

No matter what the positive results of the war might be, the two sides of the conflict are losers. I believe, therefore, it is better for the two parties to solve their problem through constructive talks and negotiation instead of using arms.

The catastrophic disaster of war requires more intensive research and studies, which in turn may help people to become aware of the negative aspect of the war.

المقدمة:

يتناول هذا البحث تأثيرات الحرب العالمية الثانية على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا، سواء تلك التي خلّفتها العمليات الحربية من هجوم وانسحاب وغارات برية وبحرية وجوية أو ما خلّفته الحرب من ألغام مزروعة في الأراضي الليبية.

ويرجع اختيار هذا الموضوع مجالاً للبحث نظراً لما تشهده ليبيا الآن من صراع مسلح قد يؤدي إلى أضرار تفوق تلك التي حدثت في أربعينيات القرن الماضي بفعل الحرب العالمية.أما عن الهدف من اختيار آثار الحرب فهو محاولة لتوضيح ما للحرب من آثار سلبية على الطرفين سواء المنتصر أو المهزوم. فالحرب بويلاتها لا تخلّف إلا الدمار مهما كانت نتائجها إيجابية.

ولتوضيح الفكرة المراد طرحها في هذا البحث سأتبع المنهج التحليلي القائم على استقاء المعلومات من المصادر والمراجع وتحليلها للوصول إلى صورة أقرب للواقع والحقيقة.

وخلال جمع المادة التاريخية واجهتني كباحثة صعوبة الحصول على المصادر بالفترة التاريخية نظراً لما تمر به ليبيا من وضع سياسي وأمني غير مستقر. لذا حاولت الاستفادة مما كنت قد جمعته في فترات سابقة للاستفادة منه في كتابة هذا البحث.

ومن ضمن الدراسات السابقة التي اعتمدت عليها، دراسة قدمها الباحث أحمد محمد بشارة بعنوان: (ألغام الحرب العالمية الثانية المزروعة في الأراضي الليبية وآثارها الاقتصادية) وهذه الدراسة صادرة عن مركز جهاد الليبيين للدراسات لتاريخية بطرابلس وذلك عام 1995.

أما أهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها فهي:

1- تقرير عن التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا صدر عن بعثة الأمم المتحدة للمساعدة الفنية في ليبيا في ديسمبر 1952. وتعرض هذا التقرير في إطار البحث عن الحلول للنهوض بليبيا إلى المشكلات الموجودة بالبلاد ومن ضمنها الأضرار التي خلفتها الحرب من تدمير للمباني والمؤسسات وغيرها.
2- تقرير عن (مخلفات الحرب العالمية الثانية في الجماهيرية) وهو عبارة عن دراسة استطلاعية أعدها فريق من باحثي مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1980. وتطرق التقرير بشكل مباشر لآثار هذه المخلفات على ليبيا بشكل عام.

ووفقاً لمتطلبات البحث تم تقسيمه إلى عنصرين رئيسيين:

الأول: وهو الأضرار الاقتصادية وفيه تم التعرض إلى ما أصاب المباني والمؤسسات والمرافق العامة من تدمير وتأثير ذلك على الحياة بشكل عام.

الثاني: الآثار الاجتماعية وتناولت فيه تأثير هذه الحرب على السكان من حيث خروجهم من منازلهم ونزوحهم، إضافة إلى ما أحدثته الألغام من أضرار بشرية وانعكاسات ذلك على المجتمع.

الأضرار الاقتصادية:

كانت ليبيا ميداناً للحرب بحكم كونها مستعمرة إيطالية، فالدمار الذي كان من المفروض أن يكون بعيداً عنها شملها كما شمل أي بلد دخلت الحرب بصورة مباشرة فمجرد إعلان إيطاليا الحرب على بريطانيا في يونيو 1940 دخلت الأراضي الليبية ضمن العمليات الحربية،حيث توغلت القوات الإيطالية الموجودة في ليبيا داخل الأراضي المصرية في الثالث عشر من سبتمبر 1940 لمسافة "خمسة عشر" كيلو متر شرقي بلدة براني، وأدت ردة فعل القوات الإنجليزية المتواجدة في مصر إلى استرداد جميع المناطق التي احتلتها الجيوش الإيطالية في مصر، ثم زحفت نحو برقة وتوغلت حتى العقيلة، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضي الليبية مسرحاً لحرب استخدمت فيها أنواع عديدة من الأسلحة البرية والجوية والبحرية وشارك فيها حوالي "مليون ونصف المليون" جندي. وقد أدت هذه المعارك إلى تدمير شامل لـ(ثلاث) مدن و(ثلاث عشرة) قرية بالإضافة إلى ما تم تدميره تدميراً جزئياً من المدن والقرى والأراضي الزراعية وقد نتج عن ذلك وفاة آلاف المواطنين[1]. وامتد الدمار ليشمل المؤسسات والجسور والمتاحف وآبار المياه؛ فعند انسحاب الإنجليز من بنغازي في أبريل 1941 قاموا بتدمير دار الولاية ومكتب الإرصاد الجوي والسجن المركزي والمستشفى العسكري،وامتد الدمار إلى وادي الكوف ومسجد إجدابيا ومتحف شحات الأثري منه عشرات القطع الأثرية بالإضافة إلى الوثائق التاريخية، كما لُوثت آبار إجدابيا وقمينس وخزان مياه المرج وخزان مياه سوسة[2]. وأدى إلقاء القنابل على المدن إلى القضاء على الكثير من المنافع العامة كالمدارس والمستشفيات وقُدِر ما لحق بمدينة طبرق من تدمير بحوالي (85%) من المباني في حين فقدت بنغازي حوالي (60%) من مبانيها[3].واضطر البعض إلى السكن في دور مؤقتة متنوعة تنوعاً كبيراً بعضها في خرائب المباني التي دمرتها القنابل والبعض الآخر في قرى الصفيح التي أُنشئت وسـط المدينة في مكان غير صالح للسكن لقربه من المستنقعات غير المجففة[4].وفي أماكن أخرى ظل كثير من الناس دون مأوى. وقد حاولت الإدارة البريطانية معالجة ذلك فأنفقت مابين عامي 1944-1945 حوالي(62) اثنين وستين ألف جنيه لإصلاح وترميم المباني المهدمة[1]. كما أصدرت سنة 1947 منشور رقم (349) ثلاثمائة وستة وأربعين القاضي بضرورة تعويض أصحاب الأملاك و العقارات المتضررة[2].

وبالرغم من هذه الجهود، إلا أن الكثير من الأسر ظلت دون مأوى. ولا يمكن إرجاع الأمر إلى إهمال من جانب الإدارة البريطانية التي أُوكِلت إليها بموجب القانون الدولي، مهمة لا تتجاوز العناية والصيانة للأراضي التي تم احتلالها. إضافة إلى ذلك أن بريطانيا كانت خارجة لتوها من حرب أنفقت فيها الكثير،وهي رغم انتصارها على دول المحور إلا أنها كانت منهكة اقتصادياً وليس بإمكانها تحمل مسئولية إعادة بناء وإعمار دولة فقيرة كليبيا. ونتيجة لذلك فقد ظل الدمار دون إصلاح يُذكر حتى

---

[1]مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،(1981) الكتاب الأبيض، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،طرابلس، المقدمة .
[2]صالحة زيو،نوفمبر 1983 "أحداث الحرب العالمية الثانية في ليبيا والإخلال باتفاقية جنيف" الإخاء، ع.9،ص131-132 .
[3]جمال حمدان،(1973)، الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافية السياسية، الهيأة العامة للكتاب، طرابلس، ص.47 .
[4]بنجامين هيجنز،(15 ديسمبر 1952)، التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا، بعثة الأمم المتحدة للمساعدة الفنية في ليبيا، ص.15-16 .

[1]مركز جهاد الليبيين، المرجع السابق .
[2]طرابلس الغرب،(14 يناير 1947)، ع.1999،طرابلس.

نهاية عهد الإدارة وقد أشارت إلى ذلك صحيفة (كوريبري ديلانا تسيونالي) الإيطالية في عددها الصادر في الرابع من يونيو 1947، حيث بينت أن ما تم تدميره بفعل الحرب في مدينتي درنة وبنغازي من شبكات مياه وكهرباء وغيرها لم يجر إصلاحه حتى ذلك الحين . إضافة إلى ذلك أشار احد الصحفيين الأمريكيين الذين زاروا طرابلس عام 1943 ثم عاد لزيارتها عام 1952 إلى أن ما أحدثته الحرب من دمار لازال باقياً، كما هو بل أن الجو العام للبلاد لم يكن يوحي بتغيير يُذكر إلا فيما يتعلق بزوال الحكم الإيطالي[3].

وبالإضافة إلى تدمير المباني السكنية ترتب على تدمير المباني و المؤسسات الحكومية شلل كامل للخدمات التعليمية والاجتماعية، حيث أوقفت الدراسة بالمدارس منذ بداية الحرب ولم تُستأنف حتى العام الدراسي 1943-1944 وتطلب الشروع في العملية التعليمية جهوداً كبيرة من جانب دولتي الإدارة (الإنجليزية والفرنسية) والعناصر القائمة بالعملية التعليمية كي تتمكن البلاد من النهوض من ويلات الحرب، بل أن كثير من المباني التي كان بالإمكان استغلالها كمدارس دُمِرت أو أُخليت من المعدات اللازمة للدراسة فكان الطلاب يفترشون الأرض أو يجلسون على علب الصفيح الفارغة. كما حلت طاولات البليارد في بعض المدارس محل السبورات التي لم تكن متوفرة عقب الحرب مباشرة، وكثير من المباني التي استغلت كمدارس لم تكن معدة لهذا الغرض فبعضها معسكرات إيطالية سابقة والبعض الآخر مباني سكنية تم استئجارها من أصحابها[4] إضافة إلى ذلك نجم عن توقف الدراسة لعدة سنوات وعودتها بمنظور جديد تصنيف الطلاب لا على أساس سنهم وإنما على أساس ما لديهم من حصيلة علمية، وبذلك ضم الفصل الواحد طلاباً من مختلف الأعمار[5].

وفي ظل ظروف الحرب تفشت في البلاد الأمراض بشكل يكاد يكون خطيراً، وذلك لبقاء البلاد عدة سنوات بعد الحرب دون أن يكون فيها الأطباء الأخصائيون بشكل كافٍ، ولقلة وفرة الأجهزة والمعدات الطبية الحديثة والأسِرة اللازمة لاستقبال المرضى، مما أدى إلى صعوبة قبول نزلاء بالمستشفيات لعدم وجود أماكن شاغرة لإيوائهم[1]. وكانت هذه المشكلة أكثر وضوحاً في برقة التي كان يدير مستشفياتها وصيدلياتها وعياداتها العامة إيطاليون ورحلوا باستثناء (37)سبع وثلاثين ممرضة من الراهبات اللائي ظللن بالبلاد. إضافة إلى كل ذلك تعرضت مصلحة الأشغال العامة لخسائر بالغة ، ففي برقة قُدِرت قيمة أضرار الحرب التي أصابت الأجهزة الكهربائية بما يُعادل (600)ستمائة ألف جنيه ليبي، من بينها (300) ثلاثمائة ألف قيمة ما لحق بمحطة كهرباء بنغازي من أضرار. أما طرابلس التي لم يصبها ما أصاب برقة من دمار فقد قُدِرت قيمة ترميم منشآتها الكهربائية بمبلغ (4) أربعة آلاف جنيه ليبي، وفي طبرق قُدِرت خسائر الحرب بحوالي (45) خمسة وأربعين ألف جنيه في حين احتاجت المراكز الصغيرة إلى (42)اثنين وأربعين ألف جنيه لإصلاح ما لحق بأجهزة المياه من دمار. ومع أن مجاري مدينة بنغازي ومصارف المياه فيها لم تكن بحالة جيدة قبل الحرب إلا أن قيمة الأضرار التي أصابت الصرف الصحي احتاجت إلى ما يقرب من (20) عشرين ألف جنيه في حين تطلب إصلاح تصريف مياهها (5) خمسة آلاف جنيه[2].

---

[3]نيكولاي إيليتش ابروشين، (1988) تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969، ت.عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي،طرابلس، ص.240 .

[4]حسن السوسي،(18 أكتوبر 1999)، مقابلة شفهية،بنغازي.

[5]عبدالله حسين حيدر،(أول سبتمبر 1999)، مقابلة شفهية، المرج .

[1]وثائق دار الكتب الوطنية بنغازي،(2. 10. 1950) تقرير وزارة الصحة عن المستشفى المدنيبنغازي، وثيقة غير مصنفة .

[2]بنجامين هيجنز، المصدر السابق، ص.106-107 .

وهكذا فإن الخدمات أصبحت معدومة في المدن الليبية التي أصابتها أضرار الحرب، ولنا أن نتصور مدى قسوة الحياة على سكان هذه المدن في حالة عدم وجود المياه و الكهرباء، ومع أن هذه الخدمات لم تكن ميسرة قبل الحرب بشكل واسع إلا أن فقدانها في الأماكن التي اعتادت على وجودها شكل عائقاً كبيراً خاصة وان المشكلة شملت المؤسسات الحكومية والمباني السكنية على حد سواء.

وفيما يتعلق بما لحق بالآلات وأجهزة التوريد الخاصة بالمواصلات السلكية و اللاسلكية في برقة من خسائر فقد احتاجت بدالة بنغازي إلى (81) واحد وثمانين ألف جنيه، كما احتاج تجديد جهاز آلي صغير في درنة إلى ما يقرب من(22) اثنين وعشرين ألف جنيه. أما الإصلاحات في طبرق والمرج فبلغت (8) ثمانية آلاف جنيه، وما أصاب جهاز اللاسلكي بين العقيلة وكابتزو احتاج إلى (348)ثلاثمائة وثمانيةوأربعين ألف جنيه. كما شمل الضرر السكك الحديدية التي قُدِرت خسائرها في برقة بمبلغ (363)ثلاثمائة وثلاثة وستون ألف جنيه، حيث دُمِر الخطان الممتدان ما بين بنغازي وسلوق وما بين بنغازي والمرج وشمل التدمير المباني والعربات والقاطرات والآلات. وفى طرابلس كانت السكة الحديدية مكونة من أربعة خطوط رئيسية ومعداتها، وكانت محطة طرابلس متصلة بزوارة بخط طوله (120) مائة وعشرون كيلو متر وبالعزيزية لـ(50) لخمسين كيلومتر وبأرصفة الميناء لـ(4) أربعة كيلومتر، وبتاجوراء بـ(21)واحد وعشرين كيلومتر، وهناك أيضاً فرع متفرع من الخط الواصل بين طرابلس وتاجوراء ويمتد حتى الملاحة بمسافة (5) خمسة كيلومترات، وإلى جانب السكة الحديدة كان هناك خط لسيارات نقل الركاب بين العزيزية وغريان، بالإضافة إلى بعض الخطوط المماثلة التي تعمل بالإقليم على نطاق واسع، والسكك والطرق لحقتها أضرار الحرب، وأصيبت المباني- باستثناء محطة طرابلس- بأضرار بالغة كما أن عربات السكة الحديدية أُصيبت بتلف وسُحبت كذلك الأدوات وقطع الغيار أو سُرقت. وقدرت قيمة الأضرار التي لحقت بالمباني وغيرها بمبلغ (30)ثلاثين ألف جنيه وفي حين بلغ إجمالي الأضرار التي لحقت بالقاطرات وعربات السكة الحديدية بمبلغ (230) مائتين وثلاثين ألف جنيه[1]، كما دمرت الحرب الطريقين المعبدين اللذين أنشأتهما الإدارة البريطانية للربط بين إقليمي طرابلس وفزان وأصبح من المتعذر استعمالهما[2].

وبذلك فإن الاتصال بين مختلف المناطق التي شملتها الحرب أصيبت بالشلل مما ترتب عليه تعطيل كثير من الخدمات، وأثر ذلك بدوره على حجم التبادل التجاري بين مختلف الأقاليم الليبية، كما أثر أيضاً على اتصال السكان بعضهم ببعض داخل الحدود الليبية إلى جانب تأثيره على اتصالاتهم بجيرانهم الذين تربطهم بهم علاقات اقتصادية واجتماعية.

وإلى جانب وسائل الاتصال البري، فإن الموانئأيضاً لم تسلم من الغارات الجوية، التي كانت تشنها القوات المتحاربة، حيث عمل كل من الطرفين على حرمان الطرف الآخر من الاستفادة من هذه الموانئ، وبذلك أصبحت هدفاً يسعى كل طرف للاستيلاء عليه، كي يضمن استقبال وتفريغ حمولات السفن من التموين و المعدات الحربية اللازمة في الوقت الذي لم تفِ فيه المواصلات البرية بالأغراض المطلوبة، وأحياناً كانت القوات المنسحبة تقوم بتدمير الميناء بكل ما فيه من منشآت إدارية وشبكات مياه وكهرباء؛ فعندما هُزِمت القوات الإيطالية في أوائل عام 1914 أمام الإنجليز عمد الإيطاليون إلى نسف ميناء بنغازي بعد انسحابهم منه في فبراير1941 وقد فعل الإنجليز الأمر نفسه عندما تقهقروا أمام قوات المحور في مارس 1941؛حيث وضعوا الألغام والعبوات الناسفة في ميناء

---

[1] بنجامين هيجنز، المصدر نفسه، ص.110-112 .

[2] ون لنبدرج، تقدير عام للاقتصاد الليبي، (30 يونيو 1951)، بعثة الأمم المتحدة للمساعدة الفنية بليبيا، ص.41 .

بنغازي ودمروا منشآته[3]. وعندما انسحبت قوات المحور من بنغازي في نوفمبر 1942 بعد هزيمتها في العلمين أخلت الميناء وقامت بتدمير منشآته وإغراق القوارب الحربية وهى محملة بالدبابات والعتاد الحربي[4]. أما ميناء طرابلس فقد تعرض لغارات كثيفة من قبل السلاح الجويالإنجليزي والأمريكي في أواخر عام 1942، وما بقي سالماً منه قامت بتدميره قوات المحور عندما أرادت الانسحاب عنه في أوائل عام 1943[5].

وفى الوقت الذي تعرض فيه مرفأ البردية لغارات الطائرات البريطانية، استخدمت قوات المحور القاذفات الجوية للاستيلاء على ميناء طبرق، حيث تواصلت غاراتها من منتصف أبريل إلى نهاية يوليو 1943، كما قامت زارعات الألغام والسفن بأدوار مماثلة على الميناء مما أدى إلى إغراق العديد من السفن والزوارق الإنجليزية ولم يعد يظهر منها سوى سواريها ومداخنها[6]، بالإضافة إلى ذلك هناك موانئ تجارية صغيرة على الساحل الليبي كانت تستخدم للأغراض التجارية وصيد الأسماك والسفن،إلا أن توظيفها للأغراض العسكرية خلال الحرب أدى إلى تدميرها وإغراق السفن في مياهها من كلا الطرفين[1]. فمرفأ زليطن على سبيل المثال كان ذو أهمية محلية صرفة وكان الغرض الذي أُنشئ من أجله هو تصدير التمر والقمح والشعير والحيوانات، ونظراً لما لحقه من جراء الحرب فإن معظم عمليات النقل صارت تتم بطريق البر، أما ميناء الخمس الذي أُتلِفت مستودعاته بسبب التخريب المباشر والسلب فقد كان يستخدم لتصدير العلف وزيت الزيتون والتمر والحيوانات، في حين كان ميناء زوارة هاماً لصيادي الإسفنج إضافة إلى استخدامه في الاستيراد والتصدير[2]. وبوجه عام فإن تدمير هذه الموانئ أثر على الحركة التجارية بصفة عامة، حيث أدت قلة السفن اللازمة لشحن البضائع إلى تقلص حركة الاستيراد والتصدير[3].

ولم يقتصر الضرر الذي أصاب البلاد من جراء الحرب على ما كانت ترمى به القوات المتحاربة خصومها من قنابل، بل تعداه إلى زراعة حقول ألغام جعلت أضرار هذه الحرب تمتد إلى ما بعد نهايتها وحيث ظلت مخلفاتها مطمورة في الأراضي والمياه الليبية لتصبح حائلاً دون استغلال مساحات شاسعة صالحة للعمران البشري والاستغلال الاقتصادي، وقد شملت هذه المخلفات كل من هضبة سدرة والعصلج والرحل والبترونا جنوب طبرق ووادي علبة الضبع والوادي الفارغ جنوب العقيلة ووادي السرير جنوب شرق الشليظيمة. وأتسع نطاق هذه المخلفات لتشمل الواحات والسباخ مثل واحة الجغبوب والكفرة ومرادة وجالو، والسبخة الكبيرة غربي العقيلة والسبخة الصغيرة جنوب شرق البريقة وسبخة الغيزل والحمادات . كما وجدت في الموانئ والمطارات مثل ميناء طبرق وطرابلس ودرنة وبنغازي ومطار المخيلي وإجدابيا والخرجة غربي سرت ومطار بني وليد[4].

---

[3]أحمد محمد بشارة، (1995) ألغام الحرب العالمية الثانية المزروعة في الأراضي الليبية وآثارها الاقتصادية،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ص.132-133.

[4]رومل اروين، (1972) مذكرات رومل ثعلب الصحراء، ج.2،ط.3، دار المعرفة،بيروت، ص .70 .

[5] I.S.O,PLAY Fair Etal .The Mediteranean and Middle East (London Her majesty,s Stationergoffice) p.113,134,234

[6]عمر أبو النص، (1969)،المارشال رومل، ط2، مكتبة أبو النصر،بيروت، ص.34-235 .

[1]أحمد محمد بشارة، المرجع السابق، ص.135 .

[2]بنجامين هيجنز والمصدر السابق، ص.106-107 .

[3]هنري أنيس ميخائيل،(1970)، العلاقات الإنجليزية الليبية، الهيأة المصرية العامة،القاهرة،ص.35 .

[4]أحمد محمد بشارة، المرجع السابق، ص .29 .

وكان لهذه الألغام آثارها السلبية في مختلف الجوانب الاقتصادية، حيث أهلكت الكثير من الحيوانات وكانت فترة الحرب والسنوات التالية لها هي أكثرالفترات خسارة في الحيوانات التي كانت تنتقل في المراعي الملغمة طلباً للكلأ والماء حول مصادر المياه المتمثلة في الآباروالمعاطن مثل: مطعن الحسيات الكبير ومعطن الجفر ومعطن بالكليبات ومعطن بالطفل وبئر الجن وبئر السويرة. وكان الفاقد الكبير في الإبل نتيجة لرعيها في المناطق الرعوية ذات المعدل المطري المتوسط المعروف بحزام الإبل الذي كان يمثل خطوط المعارك التي زُرِعت أثناءها حقول الألغام [5]. ومع أن بعض المؤرخين يقدرون ما نفق من الحيوانات بسبب الحرب بحوالي (12500) رأس من مختلف الأنواع[6]. إلا أن هذا العدد لا يمكن التسليم به لعدم وجود الإحصائيات الدقيقة التي حالت دون وجودها الأسباب التالية:

- عدم التبليغ من جانب المواطنين عن فقدانهم لحيواناتهم بفعل الألغام والقنابل، وعدم الاهتمام بحصر وتسجيل حوادث الألغام، حيث لم يتم الاهتمام بدراسة أضرار الحرب العالمية الثانية إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات.
- اتساع المناطق الرعوية الملغمة وندرة نباتاتها مما يضطر الحيوانات للتنقل لمسافات بعيدة للحصول عل ما يسد حاجتها من الأكل. وتعتبر الإبل في مقدمة الحيوانات التي تهلك بهذه الوسيلة[1].

ونتيجة لوجود الألغام في مساحة من الأراضي الرعوية قُدِرت بحوالي (3،227،523) ثلاثة ملايين ومائتين وسبعة وعشرين ألف هكتارٍ؛ فقد حيل دون استغلال معظم هذه المساحة، كما حال وجود الألغام دون استغلال ما يقرب من (637،676) ستمائةوسبعةوثلاثين ألف وستمائةوستةوسبعين هكتاراً من الأراضي الزراعية[2].

وبذلك فإن وجود الألغام في هذه المساحات الشاسعة حال دون استغلالها من قبل المواطنين. ولنا أن نتصور مدى ما يحدثه عدم الاستفادة من هذه الأراضي من خسارة مادية لهم، إذا علمنا بأن الزراعة هي العمود الفقري للاقتصاد الليبي ويمارسها ما يقرب من (80%) من السكان، وهم يعتمدون عليها اعتماداً شبه كامل. وفى ذات الوقت تأتى تربية الماشية في المنزلة الثانية بعد الزراعة ويمارسها السكان الرحل وأشباه الرحل الذين يمثلون نسبة كبيرة من سكان ليبيا.

ولهذه الخسارة المادية انعكاساتها السلبية على الأوضاع الاجتماعية حيث تؤدي إلي انخفاض مستوى معيشة الأفراد، وفى ذات الوقت تحول-إلى حد ما- دون إنشاء أسر جديدة، حيث ثبت أن هناك ارتباط وثيق بين مدى وفرة المحاصيل الزراعية والزواج؛ فالفلاح الليبي كان يعتمد اعتماداً كاملاً على عوائد المحاصيل الزراعية التي تدرها أرضه ليتمكن من توفير متطلبات الزواج، وعادةً ما تؤثر

---

[5]المرجع نفسه، ص .125 .

[6]على عبدالرحمن ضوى،(1983)، المسئولية الدولية عن الأضرار النائية عن مخلفات الحرب العالمية الثانية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،طرابلس، ص.45 .

[1]أحمد محمد بشارة، المرجع السابق، ص .125.

[2]عمر المرابط،(1981)، دراسة حول الأضرار الناجمة عن الحرب العالمية الثانية والخسائر التي سببتها الألغامفي مجال الزراعة، أمانة الزراعة والاستصلاح الزراعي،طرابلس، ص. 2-4 .

سنوات الجفاف على تكوين أُسر جديدة في المجتمع الريفي، فما بالك بالحيلولة دون زراعة مساحات شاسعة من الأراضي.

الأضرار الاجتماعية:

وفيما يتعلق بالأضرار البشرية فقد أدت الحرب إلى نزوح السكان من مناطق استقرارهم، خاصة تلك التي تعرضت بشكل مباشر لويلات الحرب كبرقة التي تفرق سكانها مابين الإيغال في الدواخل طلباً للأمان،أو الهجرة إلى مصر، حيث تم إيوائهم في مخيمات أُقيمت لهم في برج العرب بالقرب من الإسكندرية[3]، وكانت هذه الهجرات نتيجة لما أحدثته الحرب من عدم أمان واستقرار وللعمليات الانتقامية التي قامت بها القوات الإيطالية ضد السكان المحليين لمساندتهم للقوات البريطانية، فعلى سبيل المثال أُعدم ما يقرب من (300) "ثلاثمائة" رجل من مدينة المرج دفعة واحدة لمؤازرتهم للجيش الثامن البريطاني[4]،كما أعدِمت عائلة جعودة في مدينة بنغازي لقيامها بنفس العمل[5]، وفى الجانب الآخر فإن مايقرب من "سبع عشرة ألف" مُجند ليبي في الجيش الإيطالي وقعوا أسرى في أيدي القوات البريطانية، وظلوا كذلك لمدة قاربت الأربـــع سنوات مما دفع بالنساء والأطفال القُصر إلى تحمل أعباء الحياة بدلاً من ذويهم[1].

أما ما أحدثته الألغام من أضرار بشرية فبعضها أضرارمباشر كالإعاقة الجسدية التي تسببها الألغام والقنابل والقذائف عند انفجارها، حيث ينتج عنها تغيير وتشوه في تكوين المواطن البدني و النفسي، مما يؤدي بدوره إما إلى فقدانه الحياة أو حدوث تشوه في خلقته، أو بتر عضو أو أكثر من أطرافه، أو إصابته بخلل عقلي. ورغم أن الإصابات خـــــلال السنـــــوات من 1940-1951 لا يُبلّغ عنها في أغلب الأحوال إلا أن الروايات الشفهية أجمعت على أن أسراً بالكامل كانت تُفقد في السنوات التالية للحرب مباشرة. ووفقاً للدراسات الاستطلاعية التي أجراها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، فإن عدد من قتلوا من المخلفات المادية للحرب حتى سنة 1945 زاد عن (274) المائتين وأربعة وسبعين شخصاً[2]. وكان سبب ذلك هو تنقُّل السكان بسبب الظروف المعيشية، حيث أن أغلب السكان الليبيين باستثناء فئة ضئيلة تمارس أعمالاً حرفية أو تجارية فهم إما فلاحون أو رعاة وهذا النوع من العمل فرض عليهم التنقل بحثاً عن الكلأ و الماء. وخلال هذا التنقل كثيراً ما يقع بعضهم ضحية لغم أو قنبلة فتُذهب بحياته، وفى حالات أخرى يقوم الرعاة والفلاحون بالبحث عن حيواناتهم التي ترعى دون قيود مكانية ولجهلهم بمواقع الألغام يفقدون حياتهم أو يُصابون بأضرار بدنية مختلفة وفى سنوات المجاعة والجفاف التي توالت على البلاد خلال سنوات الحرب وما تلاها، اضطر الأهالي إلى الإقبال على جمع مخلفات الحرب كالألغام والقنابل وقذائف المدفعية والطيران، ذلك أن الحرب خلفت انهياراً اقتصادياً وتضخماً خطيراً في أوروبا التي بدأت تعيد بناءها الاقتصادي، فازداد الطلب على الحديد والنحاس وغيرها من المعادن، وقد شجع ذاك السكان الليبيين على جمع هذه المواد مما عرضهم للخطر[3].

---

[3]هنري أنيس ميخائيل، المرجع السابق، ص . 130.
[4]محمد فؤاد شكري، (1948)، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، (لقاهرة، ص .385.
[5]احمد محمد القلال، (2003)، سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة (1939-1999)، ط.1، جامعة قاريونس،بنغازى، ص . 412 – 413 .
[1]مجموعة روايات شفهية محفوظة بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية و طرابلس ، شريط 1 (41-42) ، 6 (47-48) .
[2]مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (1980) تقرير عن مخلفات الحرب العالمية الثانية في الجماهيرية، دراسة استطلاعية .
[3]أحمد محمد بشارة، المرجع السابق، ص .154-155 .

هذا فيما يتعلق بالأضرار المباشرة، أما الأضرار غير المباشرة والتي يقصد بها الأضرار الاقتصادية التي لحقت ببعض الأسر، وبالمجتمع ككل من جراء الإصابات التي لحقت بالأفراد، فعلى مستوى الأسرة تؤدى الإصابة نتيجة لانفجار الألغام إلي فقد الأفراد حياتهم، وتفقد الأسرة مصدر دخلها إذا كان المفقود رب الأسرة أو الزوجة أو الابن الأكبر، ويترتب على ذلك انخفاض مستوى المعيشة لأفراد الأسرة مما يؤثر سلبا على حياة الأسرة، ويضطر الأبناء الصغار للبحث عن العمل في مواقع لا تتناسب مع قدراتهم مما يؤثر على نموهم الجسدي و النفسي، بل قد يطرأ على كيان الأسرة التفكك والتشرد نتيجة الظروف البائسة. وقد يفقد المُصاب أحد أطرافه أو أكثر فيصبح غير قادر على العمل ومواجهة متطلبات الحياة والمساهمة في بناء المجتمع مما يُحمل الأسرة أعباءً إضافية ترفع من نسبة الإعالة علاوة على فقدان دوره الإنتاجي في الأسرة والمجتمع. بالإضافة إلى ذلك فتأثيرات مشاكل الألغام والقنابل والبقايا المادية للحرب التي تسبب الإصابات الكثيرة للمواطنين تنعكس سلبياً على المجتمع، ويمكن اعتبارها عبئاً عليه ومسئولية من مسؤولياته لعدة أسباب أهمها:-

- إن الانفجار المستمر للألغام يؤدي إلي تناقص مستمر في عدد السكان .
- يُؤدي فقدان من هم في سن العمل إلى عجز كبير في القوى العاملة التي يعتبر المجتمع الليبي في أمس الحاجة إليها .
- إن كثرة الإعاقات التي يتعرض لها الأفراد تزيد من أعباء الخزينة العامة لعدم القدرة على تأهيلهم إضافة إلى ما يلقونه على أسرهم من أعباء[1].

وفيما يتعلق بالنواحي الخلقية فإن الحرب أدت إلى تغيير في المعايير و المفاهيم والأخلاقيات وكان ذلك نتيجة لتشتت السكان مع أول قصف أصاب المدن؛ فالمرأة تخلت عن بعض ما كان يمنعها من الخروج بحكم الظروف التي اضطرتها إلى الخروج من بيتها .

ومن المشاكل التي نشأت عن الحرب أيضاً مشكلة الأمن الداخلي، حيث أصبحت حياة الأفراد لا تساوي إلا رصاصة يُطلقها أحد المجرمين الذين لا ينتظرون أي قصاص من الدولة، بل يعتمد أولئك الجناة على ما تدفعه قبائلهم من ديات لأهل القتلى. كما انتشرت السرقات بشكل واسع، فأصبح الفرد لا يأمن على نفسه وماله ولو كان في عقر داره[2]. والى جانب انعدام الأمن برزت في المجتمع ظواهر الأطفال المُشردين والمتسولين ومعظم هؤلاء الأطفال إما أنهم فقدوا آباءهم، أو أهمل هؤلاء الآباء أمرهم، حتى صاروا يتغيبون عن منازلهم أكثر النهار وربما أياماً، وكونوا بذلك جماعات أشبه بالعصابات تطوف من مكان إلى آخر سواء في النهار أو الليل. ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الفئة من الأطفال أن الحرب أدت إلى اضطرابات أمنية دفعت الكثيرين إلى النزوح من أماكن استقرارهم إلى المدن، وواجهوا بذلك مجتمعاً مختلفاً إلى حد ما عن بيئاتهم التي نزحوا منها وأن كان الفقر سمة مشتركة بين هذه البيئات. وبما أن البلاد خارجة لتوها من الحرب فلم تكن هناك هيئات اجتماعية كافية قادرة على اخذ الحيطة والحذر كي لا تتكون هذه الفئة من المتسولين[3].

---

[1] أحمد محمد بشارة، المرجع نفسه، ص .157-158.
[2] احمد سالم الفلفال، (26 نوفمبر 1949)، "الدولة والأمن"، الاستقلال، ع.72،بنغازي.
[3] أسرة التحرير،(ديسمبر 1952) "الأطفال والتشرد"، مجلة ليبيا، ع.8، بنغازي.

والجدير بالذكر أن إقليم فزان لم يتعرض لويلات الحرب بنفس القدر الذي تعرض له إقليمي برقة وطرابلس، وكانت الطائرات تُحلق للاستطلاع والتخويف فقط؛ بل أن السكان كانوا يسمعون بالحرب سماعاً ولم تُقصف منازلهم بشكل مباشر، ويرجع ذلك إلى عدم وجود مؤسسات عامة يسعى كل من طرفي الحرب للاستيلاء عليها وتدميرها. ولذا لم يلحق بالإقليم ذلك الضرر الذي لحق بغيره من الأقاليم[4].

نتائج الدراسة :-

تناولت هــذه الدراسة تـاريخ ليبيا الاجتماعي خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1943 – 1951

- أدت الحرب إلي خسائر مادية وبشرية جسيمة وكانت برقة أكثر المناطق الليبية تضرراً حيث كانت مسرحاً مباشراً لهذه الحرب فإلى جانب ما فقدته من قوى بشرية دُمرت مدنها الرئيسية بما فيها من منشآت وأصبح سكانها بدون مأوى ، كما تعطلت الخدمات بمختلف أنواعها خاصة ما يتعلق منها بالصحة والتعليم، أما إقليم طرابلس فقد اقتصر دمار الحرب على الأضرار التي لحقت بالطرق والموانئ وملحقاتها.

- امتدت آثار الحرب إلى ما بعدها بسنوات وذلك نتيجة لزراعة الأطراف المتصارعة للأراضي الليبية بالألغام حيث نتج عن ذلك فقدان مساحات شاسعة من الأراضي التي لم يعد بالإمكان استغلالها، إضافة إلى ما أحدثته ولا زالت تحدثه هذه الألغام من آثار سيئة على الإنسان الذي إما أن يفقد حياته أو يتعرض لإعاقة مستديمة بفعلها فيصبح بذلك عضواً مشلولاً في المجتمع.

-إن الحرب مهما كانت لها نتائج إيجابية إلا أن كل الأطراف المتحاربة خاسرة، ويكمن الفرق أن هناك طرفاً خرج بأقل خسارة من الطرف الآخر.

[4] منصور خليفة،(8 مارس 2000)، مقابلة شفهية،طرابلس.

المصادر والمراجع

1. أحمد سالم الفلفال،(26 نوفمبر 1949) "الدولة والأمن"، الاستقلال، ع.72، بنغازي .
2. أحمد محمد القلال،(2003)، سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة (1939-1999)، ط.1، جامعة قاريونس، بنغازى.
3. أحمد محمد بشارة،(1995)، ألغام الحرب العالمية الثانية المزروعة في الأراضي الليبية وآثارها الاقتصادية،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.
4. أسرة التحرير،(ديسمبر 1952)، "الأطفال والتشرد"، مجلة ليبيا، ع.8 ،بنغازي.
5. بنجامين هيجنز،(15 ديسمبر 1952)، التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ليبيا، بعثة الأمم المتحدة للمساعدة الفنية في ليبيا.
6. جمال حمدان،(1973)، الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافية السياسية، الهيأة العامة للكتاب، طرابلس.
7. حسن السوسي،(18 أكتوبر 1999)، مقابلة شفهية بنغازي .
8. رومل اروين،(1972)، مذكرات رومل ثعلب الصحراء، ج.2،ط.3، دار المعرفة، بيروت.
9. صالحة زيو،(نوفمبر 1983)، "أحداث الحرب العالمية الثانية في ليبيا والإخلال باتفاقية جنيف" الإخاء، ع.9.
10. طرابلس الغرب،(14 يناير 1947)، ع.1999،طرابلس.
11. عبدالله حسين حيدر،(أول سبتمبر 1999)، مقابلة شفهية، المرج .
12. على عبدالرحمن ضوى،(1983)، المسئولية الدولية عن الأضرار النائية عن مخلفات الحرب العالمية الثانية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.
13. عمر أبو النص،(1969)،المارشال رومل، ط2، مكتبة أبو النصر، بيروت.
14. عمر المرابط،(1981)، دراسة حول الأضرار الناجمة عن الحرب العالمية الثانية والخسائر التي سببتها الألغامفي مجال الزراعة، أمانة الزراعة والاستصلاح الزراعي، طرابلس.
15. مجموعة روايات شفهية محفوظة بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية و طرابلس ، شريط 1 (41-42) ، 6 (47-48) .
16. محمد فؤاد شكري،(1948)، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، القاهرة.
17. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،(1981) الكتاب الأبيض، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،طرابلس، المقدمة.
18. مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،(1980)، تقرير عن مخلفات الحرب العالمية الثانية في الجماهيرية، دراسة استطلاعية.
19. منصور خليفة،(8 مارس 2000)، مقابلة شفهية طرابلس .
20. نيكولاي إيليتش ابروشين،(1988)، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969، ت.عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس.
21. هنري أنيس ميخائيل،(1970)، العلاقات الإنجليزية الليبية، الهيأة المصرية العامة، القاهرة.

22. وثائق دار الكتب الوطنية بنغازي،(2. 10. 1950) تقرير وزارة الصحة عن المستشفى المدنيبنغازي، وثيقة غير مصنفة .

23. ون لنبدرج، تقدير عام للاقتصاد الليبي،(30 يونيو 1951)، بعثة الأمم المتحدة للمساعدة الفنية بليبيا.

24. I.S.O,PLAY Fair Etal .The Mediteranean and Middle East (London Her majesty,s Stationerg office)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

حوض وادي السلايب - دراسة في جغرافية التربة

د. منصف محمد صالح المسماري.

(محاضر بقسم الجغرافيا - كلية الآداب والعلوم المرج – جامعة بنغازي - ليبيا)

حوض وادي السلايب - دراسة في جغرافية التربة

ملخص

تناولت هذه الدراسة التربة بوادي السلايب من ناحية جغرافية حيث ان الجغرافية الحيوية من ضمن مجالاتها التربة ومشكلاتها، ولقد حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على خصائص التربة لاحد اودية الحافة الاولى للجبل الاخضر، والتعرف على نوع التربة السائد وعلاقته بالعوامل الجغرافية المحيطه.

ولقد تناولت الدراسة بعض الخصائص الفيزيائية والكيميائية للتربة في وادي السلايب ومن اهم هذه الخصائص القوام والخصوبة بحيث تم دراسة الوادي على اجزاء (مصطبة وقاع ومصب).

Abstact

This study examined the soil in Wadislaib of the geographical area where the bio-geographical from within the fields of soil and its problems, and we have tried in this research shed light on the characteristics of the soil of one of the valleys of the green of the mountain the first edge, and get to know the prevailing soil and its relationship to the geographical surrounding factors type. The study dealt with some physical and chemical properties of the soil in the valley of Sidi Moussa The most important characteristics of strength and fertility so that the valley has been the study of the parts (and the bottom of the deck and the mouth).

مقدمة:

يزخر الجبل الأخضر بالعديد من الأودية النهرية الجافة الغنية في محتواها البيئي والحيوي، وارتفاع معدلات خصوبة التربة فيها، فالتربة هي الوعاء الرئيسي لنمو النبات الطبيعي والمستزرع، لما تحويه التربة من عناصر مغذية يعتمد عليها النبات في دورته الحياتية.

ووادياالسلاايبعينة من هذه الأودية والتي ستكون فاتحة لدراسة العديد من أودية الجبل الأخضر.

حيث يعمل واديالسلاايبعلى نقل محتويات التربة من المنبع الى المصب خاصة في فصل الشتاء حيث ترتفع معدلات الهطول في تلك المنطقة، وان هذه الترب تستغل من قبل السكان المحليين في زراعة المحاصيل المختلفة وخاصة محاصيل الحبوب، فالمروحة الفيضية لوادي السلايب غنية في محتواها العضوي والمعدني مقارنة بالمناطق المحيطة بها صورة(1).

صورة (1) المروحهالفيضيه لوادي السلايب

الهدف من الدراسة:

1- دراسة خصائص التربة في وادي سيدي موسى وتوزيعها الجغرافي واهم مشاكل التربة في الوادي.

2- معرفة التباين في خصائص تربة الوادي حسب التوزيع الجغرافي والذي يقسم التربة الى تربة القاع وتربة المصطبه(الحافه) وتربة المصب.

3- معرفة دور الجغرافيا وعلاقتها بالتربة(جغرافية التربة).

4- اعطاء فكرة للدارسين والباحثين في مجال الجغرافية الحيوية عامة وجغرافية التربة خاصة عن اهمية دراية ترب الاودية وبالتالي فتح المجال امام المتخصصين في مثل هذا النوع من الدراسات.

الموقع الجغرافي:

يقع وادي السلايبي شمال شرق ليبيا وتحديداً في جنوب غرب مدينة توكره التاريخية وهو من الاودية المهمة في تلك المنطقة ويعرف محلياً بواديسيدي موسى.ويقع فيما بين دائرتي عرض 35 27 32 و 45 33 32 شمالاً وخطي طول 10 33 20 و 30 43 20 شرقاًشكل(1)

شكل(1) موقع منطقة الدراسة

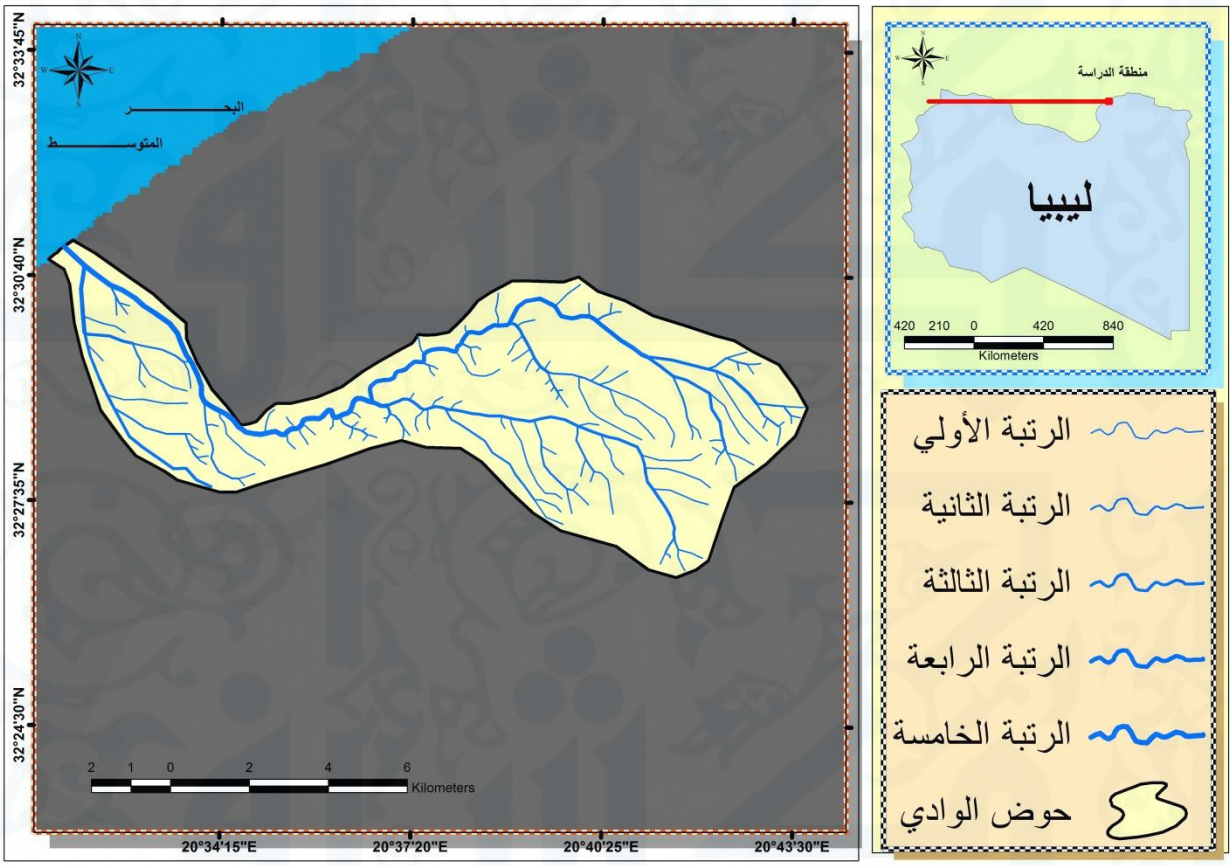

المصدر:عمل الباحث

ويبلغ طول الحوض حوالي 20.93 كم ومساحته 71 كم مربع ، ويتفرع في مجمله الى 5 رتب كان للرتبة الاولى النصيب الاوفر من المجاري المائية والتي بلغت حوالي 105 مجرى مائي بما نسبته 75.5% من اجمالي المجاري المائية لحوض وادي السلايب ،بينما تحصلت الرتبة الخامسة على النصيب الادنى من المجاري المائية والمتمثلة في مجرى مائي واحد بنسبة 0.71% من اجمالي المجاري المائية للحوض، جدول (1) وشكل(2).

جدول (1) بعض البيانات الموروفومترية لحوض وادي السلايب

الرتبة	اطوال المجاري (كم)	عدد المجاري	مساحة الحوض (كم2)	طول الحوض (كم)	عرض الحوض (كم)	متوسط عرض الحوض (كم)	محيط الحوض (كم)
الرتبة الأولى	64.301	105	71.04409	20.93	7.96	3.39	50.51
الرتبة الثانية	23.995	24					
الرتبة الثالثة	24.052	7					
الرتبة الرابعة	11.071	2					
الرتبة الخامسة	10.751	1					
المجموع	**134.17**	**139**	**–**	**–**	**–**	**–**	**–**

شكل(2) عدد الجاري المائية للرتب وادي السلايب

المصدر: جدول (1)

الملامح الجغرافية لوادي السلايب:

ويقصد بها خصائص الوادي الجغرافية والتي تعكس دور عوامل تكوين التربة على مادة الاصل، فنظام التربة الديناميكي يرتبط بالخواص المحيطة به بداية من الصخر الأم وانتهاءً بالماء والهواء والأحياء (الظروف المحيطة)،(طبيل،1989،ص114).

فالخصائص الجيولوجية مثلاً من أهم العوامل المؤثرة في تشكيل سطح الأرض إذ يعتمد عليها عند دراسة الظواهر الجيومورفولوجية لمنطقة ما، كما أن نوع التربة السائد في هذه المنطقة يحدده نوع الصخر الأم "المادة الأصل" والذي يعتمد بدرجة كبيرة على الصخور السائدة وخصائصها وتطورها على مر الزمن، ومنطقة الدراسة يغلب على تركيبها الصخور الكربونية ذات النشأة البحرية (جودة،1973،ص 101)، صورة (2).

صورة (2) طبقات الحجر الجيري السائد في منطقة الدراسة

وهو الذي انعكس على نوع التربة السائد في الوادي فتكونت التربة الجيرية الحمراء المعروفة بترب التيراروزا

واما المناخ فان التربة ارتباطاً وثيقاً بالمناخ، إذ يعد المناخ العامل النشط من عوامل تكوين التربة ،والأساسي في كافة التفاعلات الحيوية والبيولوجية التي تحدث فيها ، كما أن عوامل التعرية تعتمد اعتماداً كلياً على عناصر الأمطار ودرجة الحرارة والرياح في عمليات النحت والنقل والترسيب، و تتأثر منطقة الدراسة بمناخ البحر المتوسط المتميز باعتداله (العوامي،1997،ص63)،فالحرارة على سبيل المثال تدخل في عمليات التجوية الميكانيكية والكيميائية ، والتي تعتمد عليها عوامل تكوين التربة في المنطقة (المفتتاتالصخرية والحطام الصخري)، صورة(3)، وهنا يأتي دور عوامل تكوين التربة المختلفة،فعند سقوط الأمطار على هذه المفتتات يذوب بعض عناصرها في الماء المختلط بثاني أكسيد الكربون مثل كربونات الكالسيوم وكربونات الصوديوم وكربونات الماغنيسيوم وكربونات البوتاسيوم ،ويتبقى الحصى والرمل والطين والصلصال وأكاسيد الحديد التي تعطي التربة اللون الأحمر .

صورة (3) الفتات والحطام الصخري المنقول داخل الوادي

ويظهر تأثير المطر في منطقة الدراسة من حيث أنه وخلال فترات زمنية غابرة تعرضت منطقة الدراسة لكميات هطول كبيرة الأمر الذي أدى إلى تكون الأودية الجافة فيها، وأن التربة في منطقة الدراسه تتأثر بالأمطار الساقطة وماتقوم به من إذابة للصخور الجيرية في المنطقة وإضافتها إلى مكوناتالتربهالأصليه. وتعمل مياه الامطار وأيضاًعلى نقل مكونات التربه داخل من اعلى الوادي الى اسفله بحيث ترسب هذه المكونات عند المصب.ومن خلال بيانات الرصد الجوي يتبين أن معدلات الهطول تتراوح بين 250 ملم إلى 300 ملم في السنة.كما أن ارتفاع معدلات الهطول في منطقة الدراسة يزيد من إمكانية تدفق هذه المياه في الأودية الأمر الذي يتسبب في فيضان وادي السلايب في منطقة توكرة.

وتتميز منطقة الدراسة بامطارها الفصلية وتأثرها بمناخ البحر المتوسط من حيث سقوطها شتاءً ،كما أن ارتفاع معدلات الهطول في منطقة الدراسة يزيد من إمكانية تدفق هذه المياه في الأودية الأمر الذي يتسبب في فيضان وادي سيدي موسى في منطقة توكرة، كما أن التساقط يكون في جميع الشهور ماعدا يونيو ويوليو وأغسطس التي يكون فيها الهطول قليلاً أومعدوماً. اما فصل الصيف فإن كميات الهطول المسجلة قليلة جداً وغير ذات أهمية ،فلذلك بعتبر فصل الصيف أكثر الفصول جفافاً في منطقة الدراسة.

وقد تسجل منطقة الدراسة ارتفاعاً كبيراً في معدلات التساقط ففي عام 1966 حيث وصلت معدلات السقوط الى حوالي(721مم) ، وكذلك الحال عام 1980 والي وصل فيه معدل الهطول الى حوالي (411مم) ، الامر الذي تسبب في حدوث فيضانات كبيرة في تلكم الفترات.

وتعتبر الامطار هي العامل الاكثر تأثيراً على التربة في وادي السلايب من حيث عمليات النقل والترسيب وزيادة مشاط معدلات التجوية.

اما **النبات الطبيعي** فتكمن اهميته في انه يعمل على تثبيت التربة ويحفظها من الانجراف (عودة،1996،ص146)، ويقسم النبات الطبيعي في وادي سيدي السلايب الى اشجار وشجيرات دائمة الخضرة ونباتات موسمية ترتبط بموسم سقوط المطر، وهي التي تساهم بشكل مباشر في زيادة تركيز المادة العضوية داخل التربة ،وذلك بعد موتها وتحللها، اما الاشجار في وادي سيدي موسى فهي متواجده بكثافة وخاصة على جوانب الوادي، وتتميز بقدرتها على تحمل الجفاف وهي اشجار دائمة الخضرة ومعمرة ، كالبطوموالشعره والخروب والزيتون البري ،صورة (3) ، ويعتبر الخروب والزيتون البري الكثر انتشاراً في قاع الوادي وعلى جوانبه .

اما النباتات الموسمية فمن اشهر نبات العنصل والخرشوف البري ، صورة (4) وهي كما اسلفنا نباتات حولية موسمية تنتهي بانتهاء موسم المط

الخروب الشعره

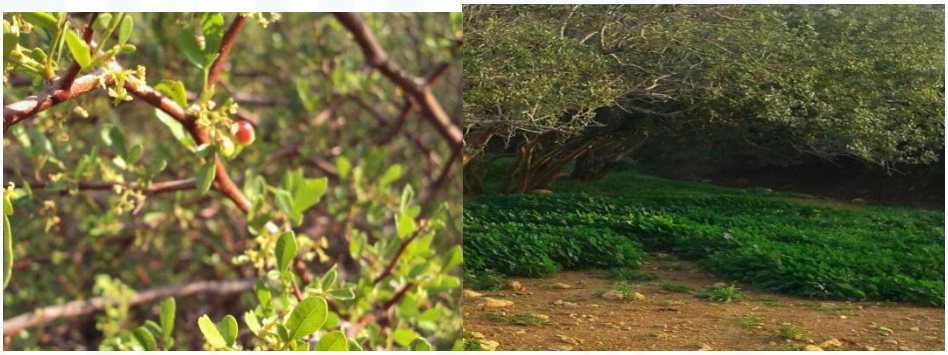

البطوم زيتون بري

صورة (4) بعض النباتات الطبيعية دائمة الخضرة

العنصل الخرشوف البري

صورة(5) بعض النباتات الموسمية في منطقة الدراسة

خصائص التربة في وادي السلايب:

لدراسة خصائص التربة في هذه الوادي تمّ تقسيم ترب الوادي إلى ثلاثة أقسام على الشكل الآتي : -

1. ترب قاع الوادي
2. ترب المصاطب
3. ترب مصب الوادي

وقد تبين من خلال الدراسة المعملية وجود تباين في خصائص التربة الفيزيائية والكيميائية لوادي السلايب ، فالقوام مثلاً لم يحدث فارقاً ملموساً ، ويقصد به مدى نعومة أو خشونة حبيبات التربة وهو من الخصائص الفيزيائية للتربة غير القابلة للتغير ، فالأراضي الرملية تظل أراضي رملية والطينية طينية ، أي أن خاصية القوام من الخصائص الأساسية لأي أرض متمثلة في حجم الحبيبات المعدنية الفردية والنسب بين أحجام هذه الحبيبات وهو ما جعل قوام التربة من الخصائص الهامة في تحديد الخصوبة ، حيث أن القوام يسهل عمليات حركة العناصر المغذية في التربة وكذلك الماء والهواء ، وبالتالي تحديد ما إذا كانت هذه التربة جيدة الصرف والعكس ، (نسيم ، 2001 ، ص 63 ، 64) .

ومن خلال تجارب التحليل الميكانيكي لتربة وادي سيدي موسى تبين أن القوام الطيني هو السائد ، سواء في المصبات أو المصاطب أو قاع الوادي ، حيث كانت نسبة الطين متقاربة وكذلك السلت والرمل ، جدول (2).

جدول (2) القوام في تربة وادي السلايب

نوع التربة	القوام			
	طين %	رمل %	سلت %	القوام
ترب القاع	52.64	13.92	33.44	طيني
ترب المصاطب	49.64	20.92	29.44	طيني
ترب المصب	51.64	18.92	29.44	طيني

المصدر : الدراسة المعملية

ويتبين من خلال الجدول السابق أن نسبة الطين في قاع الوادي 52.64% والمصاطب 49.64% ومصب وادي سيدي موسى كانت فيه نسبة الطين 51.64% ، أما نسبة الرمل فقد سجل وادي السلايب ما يعادل 13.92% لقاع الوادي و20.92% لمصطبة الوادي ومصب الوادي 18.92%، ونسبة السلت 33.44% لترب القاع و 29.44% لترب المصاطب و29.44 لترب مصب الوادي ، ويلاحظ من خلال هذه النسب ارتفاع معدلات الطين على حساب كل من السلت والرمل في تربة وادي السلايب ، حيث كان المتوسط العام الطين تربة وادي السلايب 51.3% ومتوسط معدلات السلت في الوادي 30.77% بينما سجلت متوسطات الرمل في ترب وادي السلايب ما يعادل 17.92 % ، وبالتالي يتبين أن معدلات الطين تزيد عن الرمل والسلت في تربة وادي السلايب ، شكل (3) .

شكل (3) القوام في تربة وادي السلايب

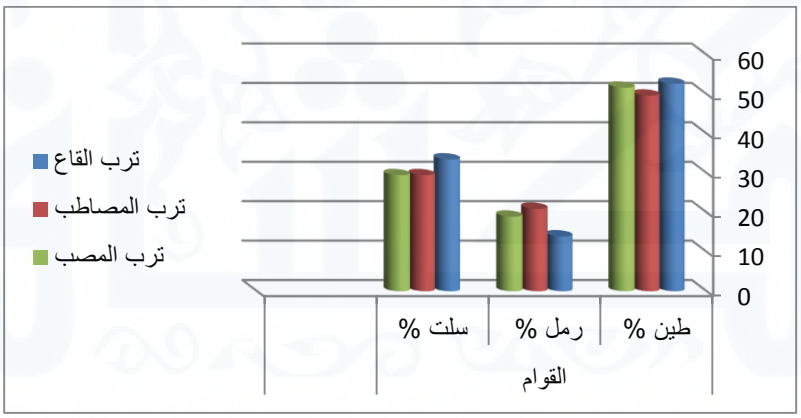

اما من ناحية التوزيع الحجمي لحبيبات التربة والذي استخدم فيه مناخل ذات احجام متباينة والذي أظهر وجود اختلاف في التوزيع الحجمي لعينات التربة المأخوذة من الوادي كما هو موضح في الاتي:

1- يغلب على التركيب العام لقوام التربة من العينات المدروسة،التركيب الحجمي الصغير والمحصور بين(0.053- 0.71مم).

2- ارتفاع نسبة تواجد حجم (1مم) في عينة التربة التربة عن باقي الاحجام.

3- انخفاض نسبة حبيبات التربة دقيقة الحجم في عينة الترب الساحلية مقارنة بباقي العينات.

1- ارتفاع نسبة حبيبات التربة دقيقة الحجم في عينات التربة بسبب القوام الطيني.

2- انخفاض نسبة حجم(0.42مم) في جميع العينات المدروسة أي أن هذا الحجم هو الأقل تواجداً في التربة في منطقة الدراسة.جدول(3).

جدول(3) التوزيع الحجمي لحبيبات التربة في وادي السلايب

الحجم	تربة الوادي	
مم	مم	%
1	33.6	24
0.71	11.2	8
0.5	9.7	6.8
0.42	6.8	5
0.3	16.9	12
0.21	17.7	12.8
0.1	28.3	20.3
0.05	15.6	11.1
المجموع	139.8	%100

أما من ناحية**الخصائص الكيميائية** للتربة فقد تبين من خلال تحليل عينات التربة انخفاض معدلات تراكيزالاملاح الذائبة وكربونات الكالسيوم ودرجة التوصيل الكهربي ،جدول(3)، وهذا الانخفاض يمكن إرجاعه إلى عامل المناخ حيث سيادة المناخ شبه الرطب والذي يزيدمن معدلات الغسيل وبالتالي انخفاض تركيز الأملاح و وكربونات الكالسيوم والبيكربونات ، في تربة وادي السلايبشكل(4).

جدول (4) تركيز بعض الخصائص الكيميائية في وادي السلايب

الوادي سيدي موسى	الخاصية				
	Caco3	Hco3	E.C	PH	T.D.S
قاع الوادي	9	1.7	794	7.49	508
المصطبة	12	1.4	1094	7.74	700
المصب	2	1.7	1044	7.72	668

المصدر : الدراسة المعملية

شكل(4) تركيز الاملاح الذائبة وكربونات الكالسيوم والبيكربونات في ترب وادي السلايب

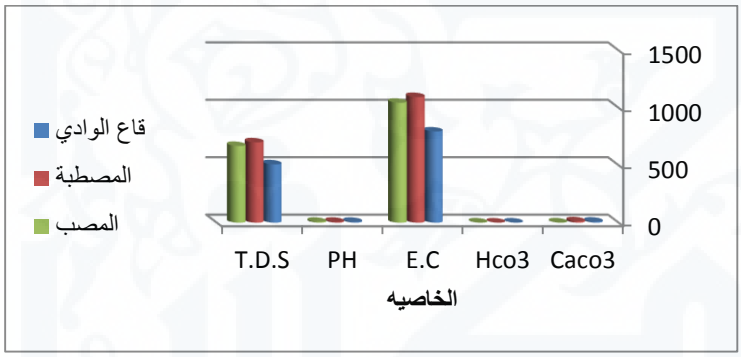

كما يمكن من خلال الجدول السابق ملاحظة ارتفاع معدلات الأملاح وكربونات الكالسيوم في مصاطب الوادي مقارنة بقاعه ا ومصبه، وهذا بدوره يميز التربة في مصبات الأودية بخصوبتها ، وذلك لارتفاع معدلات الغسيل حيث أن المصب هو نهاية جريان المياه وبالتالي تركيز المياه في هذا الجزء وبالتالي زيادة تركيز عمليات الغسيل وترشيح الأملاح في قاع التربة.

ومن ناحية الخصوبة فقد تبين من خلال الدراسة المعملية ارتفاع معدلات الخصوبة نسبياًوانخفاض تركيز النيتروجين في تربة الوادي، بينما تزيد معدلات الفوسفور في قاع الوادي

ومصبه وتنخفض معدلات الفوسفور في مصاطب الوادي فقد سجل الفوسفور 14.8 جزءًا من المليون ، أما البوتاسيوم فسجل ما معدله 673 جزءًا من المليون جدول (5) وشكل(5).

جدول (5) تركيز النيتروجين والبوتاسيوم والفوسفور في وادي السلايب

الوادي	الخاصية		
	النيتروجين%	الفوسفورppm	البوتاسيومppm
قاع الوادي	0.1	17.64	505
المصطبة	0.09	7.85	733
المصب	0.18	19.16	782

المصدر : الدراسة المعملي

شكل (5) تركيز النيتروجين والبوتاسيوم والفوسفور في وادي السلايب

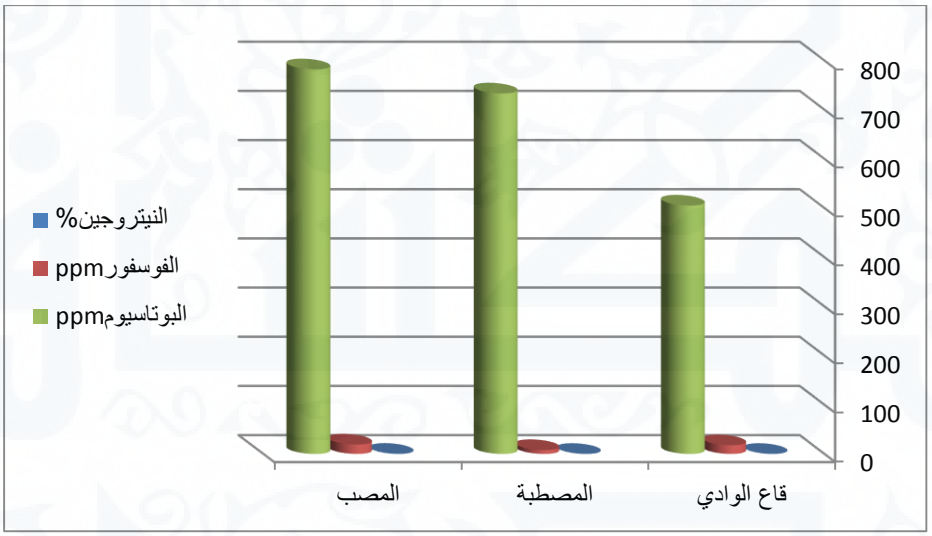

المصدر جدول(4).

أما الشق الثاني من الخصوبة تركيز المادة العضوية والكربون العضوي فقد تبين من خلال الجدول (6) ، وشكل(6) أن هناك ارتفاع بسيط في تركيز المادة العضوية والكربون العضوي

لزيادة كثافة الغطاء النباتي والذي يرتبط بدوره ارتباطاً مباشراً مع المناخ السائد ، فظهور بعض النباتات الموسمية والأعشاب المرتبطة بهطول الأمطار شتاءً ، والتي مع فصل الصيف وارتفاع درجات الحرارة تموت وتتحلل داخل قطاع التربة وبالتالي تزيد من كميات المادة العضوية والكربون العضوي ، مع أن هذه الزيادة بسيطة في أعظمها إلا أنها يمكن أن تكون فارقاً بينها وبين زيادة المادة العضوية والكربون العضوي في ترب أودية اخرى مجاورة كوادي القطارة مثلاً ، حيث المناخ الجاف وغياب الغطاء النباتي وبالتالي انخفاض تركيز المادة العضوية والكربون العضوي فيه ، واللذان كما أسلفنا يرتبطان ببعضهما، فزيادة تركيز المادة العضوية يرتبط ارتباطاً طردياً مع زيادة الكربون العضوي ، حيث أنه كلما زادت المادة العضوية في التربة كلما زاد الكربون العضوي وبالعكس .

جدول (6) تركيز المادة العضوية والكربون العضوي فيتربة واديالسلايب

الوادي	الخاصية	
	المادة العضوية %	الكربون العضوي %
قاع الوادي	2.34	1.36
المصطبة	2.38	1.31
المصب	2.33	1.33

المصدر : الدراسة المعملية

شكل (6) تركيز المادة العضوية والكربون العضويفي تربة وادي السلايب

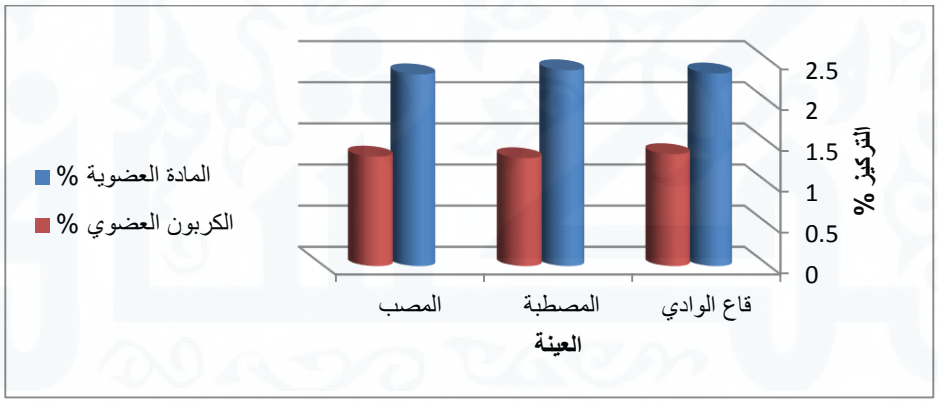

المصدر: جدول (5).

التحليل العاملي لعينات الدراسة:

ويقصد به تجمع عدد من المتغيرات معاً ، بمعنى ارتباط عدد من المتغيرات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، أساسه عامل مشترك يجمع بينها . وقد استخدم التحليل العاملي بهدف

إيضاح المفاهيم والنتائج المتعلقة بتلك المتغيرات ، من خلال معرفة أي المتغيرات التي يتم تشبعها بدرجة عالية على كل عامل ، واستخراج قيم التباين في البيانات الأصلية التي يكون كل عامل مسؤولاً عنها أو يفسرها (الصيد صالح الصادق ،2010 ، ص 119) .

ويمكن تحليل بيانات الدراسة بتتبع الخطوات الآتية :

1- بيانات الدراسة :

احتوت بيانات الدراسة على عشر متغيرات ، في صورة خصائص كيميائية ، وهي : كربونات الكالسيوم والبيكربونات ، والتوصيل الكهربي ودرجة تفاعل التربة ، والأملاح الذائبة الكلية والنيتروجين ، والفوسفات والبوتاسيوم ، والمادة العضوية والكربون العضوي . وتبين هذه البيانات خصائص التربة من حيث ارتباطها المكاني بالموقع الجغرافي من ناحية ، وما تحتويه التربة من خصائص تميزها عن غيرها من موضع إلى آخر ، وترفع من أهميتها الاقتصادية ، وما تتضمنه من رفع لقدرتها الإنتاجية من ناحية أخرى .

وجُمعت هذه العينات من مناطق متفرقة ذات طبيعة جغرافية غير متشابهة ، ثم عولجت تلك العينات في المعمل تحت المجهر لفحصها والتعرف على طبيعتها ومحتوياتها وأنواعها وما إليها من الخصائص الأخرى . ويتكشف توزيع تلك البيانات في جدول الخصائص والكيميائية للتربة .

2- تحليل البيانات وتفسيرها واستخلاص العوامل :

لما أدخلت البيانات إلي الحاسب الآلي ؛ عولجت إحصائياً باستخدام برنامج التحليل الاحصائي

وذلك بهدف تطبيق التحليل العاملي عليها ، وقد تضمن التحليل مصفوفة مؤلفة من عشر صفوف، تمثلها المتغيرات الكيميائية للتربة ، وعشر اعمده توضح مواقع العينات في منطقة الدراسة التي فحصت في المعمل .

وأظهرت نتائج التحليل العاملي اشتقاق عاملين تجمعت حول كل واحد منها مجموعة من المتغيرات التصقت بها ، وهذا يشير إلي مقدار العلاقة التي تربط بين كل مجموعة من المتغيرات، والعامل الذي تشبعت عليه . وللتأكيد على صحة ما تم اشتقاقه من عوامل دُرس منحنى الجذر الكامن ، بحيث اختيرت العوامل الظاهرة في الجزء الشديد الانحدار من المنحنى؛ إذ تشير الأجزاء المعتدلة منه إلى تساوي تأثير العوامل وتقاربها (الجيلاني، 2010 ، ص 213). والشكل (7) يوضح منحنى الجذر الكامن الذي أعتمد عليه في التأثير على اشتقاق العوامل .

شكل (7) منحنى الجذر الكامن

هذا ويشير الجدول (7) إلي مربعات تشبعات العوامل ، ونسب التباين المفسر بكل عامل والنسبة التراكمية للتباين ، واتضح من الجدول أن العامل الأول أحتوى على55.36% من التباين في البيانات الأصلية .

بينما اشتمل العامل الثاني على 44.63% من التباين في البيانات الأصلية ، وبما أن لكل متغير نسبة يسهم بها في البيانات الملتصقة بالعواملفقد أوجب التعرف على هذه النسبة من خلال حساب قيم الاشتراكات والتي يبينها الجدول (8) ، وقد كشف الجدول أن المتغيرينالثالث والخامس (التوصيل الكهربي والاملاح الكلية الذائبة) سجلت أعلى قيمة لنسبة التباين من المعلومات الأساسية التي فسرت في العاملان المشتقان بعد تدويرهما . وقد اشتمل على نسبة تباين بلغت 1.002 بمعنى أن 100 % من معلومات هذا المتغير فسرت في العوامل المشتقة . كما أوضح الجدول أن هناك متغيرات أخرى بلغت نسبة تباين قدرها 0.999، والمتمثلة في باقي العوامل المدروسه.

جدول (7) نسب التباين المفسر في كل عامل من العاملين المشتقين

العامل	مربعاتتشبعاتالعوامل	نسبةالتباينالمفسر	النسبةالتراكمية
الاول	55.366	55.366	6.192
الثاني	100	44.634	3.808

جدول (8) قيم الاشتراكات قبل التدوير وبعده في المتغيرات وفقا لمساهمتها في تفسير نسب التباين بالعوامل المشتقة.

المتغير	الاشتراكات قبل التدوير	الاشتراكات بعد التدوير
كربونات الكالسيوم	0.9998	0.9996

بيكربونات	0.9901	0.9986
التوصيل الكهربائي	1.0002	0.9997
الأس الهيدروجيني	0.9997	1.0004
الأملاح الكلية الذائبة	1.0002	0.9997
النيتروجين	0.9992	0.9995
الفوسفور	0.9997	0.9998
البوتاسيوم	0.9992	0.9996
المادة العضوية	0.9991	0.9997
الكربون العضوي	0.9994	0.9988
المجموع	**9.9866**	**9.9954**

3- تشبعات متغيرات العوامل وتدويرها:

استخدم اسلوب فلريماكس لتدوير العوامل الجدد جدول(9) بهدف تقدير قيم تشبعات المتغيرين على العوامل المستقه ، ويبين الجدول مدى الارتباط بين المتغيرين والعوامل المشتقة وذلك بإظهار قيم تشبعات هذين المتغيرين على عواملها.

جدول (9) تشبعات المتغيرات على العوامل بعد تدويرها بطريقة فاريماكس

المتغيرات	العوامل	
	تشبعات العامل الأول	تشبعات العامل الثاني
كربونات الكالسيوم	**-0.203**	-0.979
بيكربونات	-0.519	**0.854**
التوصيل الكهربائي	**0.991**	-0.133
الأس الهيدروجيني	**0.999**	-0.049
الأملاح الكلية الذائبة	**0.991**	-0.133
النيتروجين	0.389	**0.921**
الفوسفور	-0.41	**0.912**

البوتاسيوم	**0.982**	0.188
المادة العضوية	**0.349**	-0.937
الكربون العضوي	-0.926	**0.376**

ويتبين من الجدول السابق العديد من النقاط كالآتي :

1 – ارتبط بالعامل الأول اربعة متغيرات ، تمثلت في والنيتروجين ، والبوتاسيوم والكربون العضوي ، والمادة العضوية . وقد تشبعت على هذا العامل بقيم بلغت على التوالي (0.389 ، 0.982 ، 0.926 ، 0.349) . ورغم أن ما تشبع من متغيرات على العامل الأول جاء أقل عدداً مما تشبع من متغيرات على العامل الثاني ، كما أن نسبة التباين المفسر في البيانات الأصلية في العامل الأول تزيد عن ضعف مثيلتها في العامل الثاني ؛ فإن ذلك يعزى إلي درجة قوة التصاق وارتباط المتغيرات المتشبعة على العامل الأول بعاملها ، فدرجة هذا الارتباط لم تقل عن 0.780 . ما عدا في في متغير النيتروجين إذ وصلت إلي 0.579 ، وحتى هذه الدرجة تعد مرتفعة مقارنة بدرجات تشبع بعض متغيرات العامل الثاني .

2- احتوى العامل الثاني على خمسة متغيرات هي : كربونات الكالسيوم ، والبيكربونات والتوصيل الكهربي ، ودرجة تفاعل التربة والأملاح الكلية الذائبة ، وقد سجل القوام الرملي وكربونات الكالسيوم والبيكربونات درجات تشبع منخفضة على عاملها ، وهذا ما جعله أقل أهمية من العامل الأول رغم أنه جاء في المرتبة الأولى من حيث عدد المتغيرات التي تشبعت عليه .

4- تفسير العلاقات ضمن العوامل :

بين التحليل السابق أن هناك ثلاثة عوامل التفت حولها المتغيرات الشكل (8) ووفقاً لتشبع المتغيرات على عواملها ، فإن العامل الأول ارتبط بمتغيرات تتمحور حول المواد التي تتألف منها التربة ، بينما أهتم العامل الثاني بخصائص التربة وتفاعلها ، أما العامل الثالث ، فارتبط بالجمع بين مكونات التربة وخصائصها الفيزيائية .

العامل الأول : وسمي" بعامل مواد التربة ومكوناتها":

وهو أهم العوامل جميعاً من حيث ارتفاع درجة تشبع متغيراته عليه ، ومن حيث قيمة نسبة التباين الذي فسر بواسطته ، فقد بلغت نسبة التباين المفسر 48.41% من التباين في البيانات الأصلية ، وهذا يعد دليلاً علي أهمية مكونات التربة ، وكونها الركيزة الأساسية التي تتمحور حولها كافة الخصائص الأخرى .

العامل الثاني : وسمي" بعامل خصائص التربة وتفاعلها " :

يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية ، وقد تشبعت علية ستة متغيرات ، منها ثلاثة متغيرات سجلت درجات تشبع ضعيفة على عاملها . وقد كانت مساهمة هذا العامل في تفسير درجة التباين في البيانات الأصلية 43.64% ، والملاحظ أن هناك تكامل اتجاهي موجب بين

متغيرات العاملين الأول والثاني ، فمتغيرات العامل الثاني مثل القوام الرملي ووجود الكربونات ودرجة التوصيل الكهربي ودرجة تفاعل التربة وما بها من أملاح كل ذلك يخضع لطبيعة ومقدار المواد التي تتكون منها التربة وليس العكس . وهذا يبين مدى تقارب العاملين من بعضهما .

شكل (8) توزيع تشبعات المتغيرات على العوامل قبل التدوير وبعده

قبل التدوير
نيتروجين
بوتاسيوم
الأس الهيدروجيني
الأملاح الذائبة الكلية
التوصيل الكهربائي
فوسفور
بيكربونات
كربون عضوي
العامل الثاني
العامل الأول
مادة عضوية
كربونات الكالسيوم
1.0
0.5
0.0
-0.5
-1.0
-1.0
-0.5
0.0
0.5
1.0

بعد التدوير
نيتروجين
بوتاسيوم
الأس الهيدروجيني
الأملاح الذائبة الكلية
التوصيل الكهربائي
فوسفور
بيكربونات
كربون عضوي
العامل الثاني
العامل الأول
مادة عضوية
كربونات الكالسيوم
1.0
0.5
0.0
-0.5
-1.0
-1.0
-0.5
0.0
0.5
1.0

الخلاصة:

يتلخص مما سبق انه يمكن دراسة ترب الاودية وتصنيفها على الاساس المتبع في هذه الدراسة ترب (القاع والمصطبة والمصب) ووادي السلايب تميز بتشابه خصائص التربة ،حيث ان الصخر الاصلي الذي تكونت منه ترب الوادي هو عبارة عن صخور جيرية (تربه جيرية حمراء)، وان قوام التربة هو القوام الطيني وهو السائد في اغلب عينات التربة المأخوذة من الحقل ، والتباين يكون في زيادة تركيز الحصى والذي قل في ترب المصطبة ،وزاد تركيزه في المصب وقاع الوادي.

كما اثبتت الدراسة انخفاض في معدلات الأملاح وكربونات الكالسيوم في مصاطب الوادي مقارنة بقاعهومصبه، وهذا بدوره يميز التربة في مصبات الأودية بخصوبتها ، وذلك لارتفاع معدلات الغسيل، اما من ناحية الخصوبة فقد لوحظ ارتفاع معدلات الخصوبة نسبياًوانخفاض تركيز النيتروجين في تربة الوادي، بينما تزيد معدلات الفوسفور في قاع الوادي ومصبه وتنخفض معدلات الفوسفور في مصاطب الوادي، بينما سجل البوتاسيوم ارتفاعا جيداً في عينات التربة المأخوذة من الوادي، وكذلك الحال مع الكربون العضوي والمادة العضوية والتي سجلت ارتفاع لزيادة كثافة الغطاء النباتي في منطقة الدراسة.

المراجع:

1. العوامي ، سعيد إدريس، 1997:المناخ في الجبل الأخضر،رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة قاريونس، كلية الآداب ، قسم الجغرافيا،بنغازي.
2. الجيلاني، الصيد الصادق، 2010: الهيدروجيومورفولوجي لبعض أودية الجبل الأخضر، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية كلية الآداب ، قسم الجغرافيا.
3. جودة ، حسنين جودة، 1973: أبحاث في جيمورفولوجية الأراضي الليبية، منشورات الجامعة الليبية،كلية الآداب،ط1.
4. طبيل، خليل محمود، 1989: أساسيات الخصوبة والتسميد،منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ط1.
5. عودة، علي عبد، 1996: تلاشي الغطاء النباتي في الجبل الأخضر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس ، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، بنغازي.
6. نسيم، ماهر جورجي، 2001: علم الأراضي ، منشأة المعارف الأسكندرية ، ط1.

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الْفَهْمُ الْكُلِّيُّ والْجُزْئِيُّ للدَّلِيلِ وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي نَظَرِ الْمَآلِ

أ. أبو محمد معتز عبدالوهاب بالعجول.

(عضو هيأة التدريس بقسم الشريعة - كلية الحقوق – جامعة بنغازي - ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الْفَهْمُ الْكُلِّيُّ والْجُزْئِيُّ للدَّلِيلِ وَأَثَرُ ذَلِكَ فِي نَظَرِ الْمَآلِ

الملخص:

هذا البحث يُقدّم لفتةً مهمةً لسببٍ عمَّت به البلوى في عصرنا الحديث ، وهذا السبب ظاهرٌ ومعروف في عدم فهم نصوص الشريعة فهماً عامّاً شموليّاً يُحَقِّقُ مراد الشارع في الوقائع . ولعلّ من أهم أسباب التطرف اليوم ، هو الوقوف على النص الجزئي فهماً جزئيّاً دون مراجعته وفهمه في ضوء كليّات الشريعة ومبادئها العامة ، لأن النص الجزئي في وقته – وقت تشريعه من النبي (صلى الله عليه و سلم) – مناسبٌ للواقعة التي شُرِّعَت لأجله ، ولا يمكن القول بتطبيق النصوص الجزئية بشكل آلي دونما النظر إلى مآلها وفقاً للظروف الناشئة . وهذا هو عين و داءُ التطرُّفِ والغلو ، والسبب في حوصلة الشريعة عندهم في نصوص خاصة تُطَبَّقُ في جميع الوقائع دون النّظر إلى مآل كل واقعة ، فالشرع كلٌّ لا يتجزأ بأجزائه عن غيره . وبمعنى آخر ، هل يمكن للواقع أن يُنشئ أدلة جديدة ، والأدلة كما نعلم (كتاب و سنة و إجماع) فكيف يُنْشِيءُ أدلة جديدة يجب مراعاتها ، بوجود ما ذُكِرَ من أدلَّة . هذا ما سنناقشه في البحث إن شاء الله ، وما وُجد قليل من كَثِير ، وضعفٌ من علم وَفِير ، ونسأل الله أن ينفع به البادي والحاضر ، وأن يجعله سبباً لتطير الظاهر والباطن ، فهو حسبنا ونعم الوكيل ، وإليه دائماً نفزعُ في القليل والكثير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

Total and partial understanding of the evidence and the impact of that in the eyes of fate

Abu Mohammed Moataz Abdel Wahab calves.

Member of the board of the Department of Sharia teaching / Faculty of Law - Benghazi.

And doctoral student in / Department of Jurisprudence and stage - Faculty of Sharia / University of Jordan – Amman

Abstract

This research provides an important gesture for some reason pervaded by the scourge in modern times, and for this reason known and apparent lack of understanding of the provisions in the law to achieve a holistic understanding year-old Mourad street in the facts. Perhaps one of the most important causes of extremism today, is to stand on the partial text partially understood without reviewed and understood in the light of the faculties of law and general principles, because the partial text in his time - legislation of the Prophet as God's peace be upon him - Suitable for the incident, which began for him, it can not be said to apply texts Partial automatically without looking at the doomed according to circumstances arising. This is the eye and extremism disease, and why they have giblets in a private law texts applied in all the facts without regard to the fate of each incident, Vachara an integral whole-volume from the other. In other words, you can establish the fact that the new evidence, and the evidence as we know (Book - Year - consensus), how can establish new evidence must be taken into account, the existence of the reported evidence. This is discussed in the research, God willing, and what he found is only a few of the many, and the weakness of abundant knowledge, and ask God to benefit its apparent and present, and to make it a reason to fly outwardly and inwardly, it is enough and yes, the agent, and it always dismayed at little or a lot, There is no power except God Almighty.

العدد السادس – مارس 2016

مقـــــدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَـــاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

أما بعد :

بداية يجب التّنبيهُ إلى أن الله قد كتب لهذه الشريعة أن تكون خاتمة الشرائع السماوية ، فلا شريعة بعدها ، ولا وحي ولا نبيَّ بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - ؛ لذا وجب أن تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وافية بجميع الأحكام التي يحتاج إليها المكلفون لمسايرة حياتهم ، ودفع الحرج عنهم ، وتحقيق مصالحهم ما شاء الله في ذلك .

وكما تعلمون فإن الشريعة الإسلامية جاءت بمبادئ ونصوص عامة أكَّدت على مراعاتها بين المكلّفين عند الحاجة ، دفعاً للضرر ، ورفعاً للحرج ، وتحقيقاً للعدل والرحمة بين النّاس .

هذه المرونة في نصوصها واتّساع مفهومها وصلاحيتها للتطبيق في أي ظرف ووقت وزمن، جعل من الشريعة باباً يسع القبول لأيِّ تَطَوُّرٍ يهدف إلى ترسيخ وثبات ما دعت إليه من قواعد ومفاهيم عامة .

فالفقه كما نعلم كلٌّ لا تتجزَّأُ أحكامه الكلية عن الجزئية ، واعتبار الأول ضروري لدى الثاني لكي يتحقّق مراد الشارع من تطبيق الأحكام .

لذا نجد الأوائل من الفقهاء قد اهتموا ، وتفطّنوا لمآل الحكم بالنظر إلى الدّليلين ، فاعتبروا الدليل الجزئي بدايةً ، ونظروا لمآله عند التطبيق ، ومن ثم إعماله أو إهماله لصالح المفاهيم والأدلة العامة .

والغاية من النظر إلى المآل ، هو الوصول إلى - ملامسة - مراد الشارع ولو على سبيل الظن - غير الجازم - ولتتحقَّق الطمأنينة من حصول المصالح ودفع المفاسد .

فاستقراء تفاصيل الشريعة يؤكّد للنّاظر والباحث أن أحكامها بُنِيَت على عِلَلٍ ومرام ترجع كلّها إلى الحفاظ على مصـــالح الخلق ، وما كان الدّليل الجزئي موجوداً إلا لتحقيق ما أكّدت عليه الدلائل العامة من عدل ورحمة ومصلحة ودفع مفسدة وتيسير على الناس ، وغيرها من مفاهيم .

لذا نجد ابن القيم يتكلّم ، ويبيّن هذه النظرة ولزومها ، وهي المحافظة على هذه المفاهيم ومراعاتها في جميع الأحكام ، وأن ما خرج منها في المسائل الفرعية إنما قد خرج من الشريعة ومرادها .

يقول ابن القيم : " فإن الشَّريعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا على الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ في الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا وَمَصَالِحُ كُلُّهَا وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عن الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى العبث فَلَيْسَتْ من الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فيها بِالتَّأْوِيلِ ".[1]

هذا وقد نبّه الشّاطبيُّ إلى ضرورة فهم مراد الشارع ، وتصوّر مقصده في جميع الأحكام فيقول : ((فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فَهِمَ فيه عن الشارع مقصده في كل مسألة من مسائل الشريعة ، هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلّم في التعليم والفُتيا والحكم بما أراه الله)) .[2]

واعتبار المآل في الجزء والنظر إليه واعماله حيناً ، وإهماله حيناً آخراً لصالح المفاهيم والأدلّة العامة ، لا يعني إهماله لصالح هذا الأخير ، وذلك لأن الجزء ما وُجد إلا لتحقيق مفهوم عامٍّ بُثّ فيه ، وصار مآلاً وهدفاً وغايةً حقيقيةً ونتيجة يجب حصولها من وراء تطبيق الدليل الجزئي .

والمستقرئُ لفقه الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة المتبوعين ، يجد ما نقصد إليه في البحث وجوداً واضحاً جليّاً في اعتبار عموم الشرع وكليّاته في الفتوى .[3]

فنجد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتوقّف أول الأمر في قسمة سواد العراق على الفاتحين ، ولم يأخذ بالنص الجزئي في قوله تعالى : (وَاعْلَمُواْ أَنَّ مَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ..)[4] ، وما ذلك إلاّ لأنه وجد المصلحة في توزيع المساحات الهائلة على عدد محدود من الأفراد غير متحقّقة ، و يترتب على ذلك مفاسد ترفضها الشريعة ، التي بدورها ما جاءت إلا لتحقيق المصالح ، وإقامة العدل ، والتكافل بين المسلمين بعضهم ببعض ، فهو تكافل بين الأقطار والأجيال الإسلامية .

لذا قال لهم – رضي الله عنه - عندما طالبوه بالقسمة : " تريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء "[5] ، أو كما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - لعُمَر وأشار إليه بعدم قسمتها قائلاً : "

---

1) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دار الجيل - بيروت ، سنة 1973 ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، 3/3 .

2) إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المشهور بالشاطبي ، الموافقات في أصول الفقه ، دار المعرفة - بيروت ، تحقيق : عبد الله دراز ، 106/4 .

3) والمستقرئ لسنة النّبي صلى الله عليه و سلم ، يعلم تمام العلم بأنه ما خالف الحكم الجزئيّ إلاّ للمحافظة على مقاصد الشرع ، ومفاهيمه العامة في بعض المسائل التي ستعرض في البحث .

4) سورة الأنفال – الآية 41 -

5) أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، دار الفكر - بيروت - 1408هـ - ، تحقيق : خليل محمد هراس ، 73/1.

فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم " [6] ، يقصد المصلحة وعمومها على المسلمين ، وأن ذلك يُعدّ عدلاً بينهم .

وهذا ما جعل معاذاً يقول لأهل اليمن : " ائتوني بخميص أو لبيس - نوع من المنسوجات اليمنية - آخذه منكم مكان الذرة والشعير، فإنه أهون عليكم ، وأنفع للمسلمين بالمدينة " [7] ، فأجاز أخذ القيمة في الزكاة وغيرها ، لما ذكره من المصلحة.

وهو ما ذكره البخاري في صحيحه ومال إليه ، ووافق فيه الحنفية على كثرة مخالفته لهم ، كما ساقه إلى ذلك الدليل البين . [8]

فنظرتهم إلى المقاصد هي التي جعلتهم يفعلون أشياء لم يفعلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لِمَا رأوا فيها من مصالح للأمة ، منها :

- جمع المصحف في عهد أبي بكر، وجمع الناس على المصحف الإمام في عهد عثمان ، وتضمين الصناع ، وغيرها من المسائل .

لكن رغم ذلك يجب التأكيد على أمر مهمّ ذكره الشاطبي من أن عدم اعتبار الحكم الجزئي لا يعني بالضرورة عدم اعتبار مآله ، أو مقصده ومراد الشارع . [9]

فإذا كان مراد الشارع لا يتحقق في كل وقت من تطبيق الدليل الجزئي ، لَزِمَ عند التطبيق أن يُعتبر عموم الشرع ليتحقّق مراده ومقصده الجزئي بداية عند أول الأمر . [10]

فالجزء في نظر الشَّاطبي ما شُرِّع إلا لتحقيق المفاهيم العامة ، وأن اعتبار الجزء بداية أمر لا نقاش فيه ، والقول بغير ذلك يؤدِّي إلى الشك في كليات الشريعة ، لأنها أجزاء تتدرَّج لتحقيق مفاهيم وأدلة عامة .

---

6) عن عبد الله بن أبي قيس ، أو عبد الله بن قيس الهمداني - شك أبو عبيد - قال : " قدم عمر الجابة فأراد قسم الأرض بين المسلمين ، فقال له معاذ : والله إذن ليكونن ما تكره إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدّاً وهم لا يجدون شيئاً ، فانظر أمرا يسع أولم وآخرهم " . نفس المرجع ، 75/1.

7) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، الجامع الصحيح المختصر ، دار ابن كثير , اليمامة - بيروت - 1407 – هـ ، ط3 ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، باب العرض في الزكاة ، رقم 32 ، 525/2 .

8) قَوْله : (بَاب الْعَرْض فِي الزَّكَاة) ، أَيْ : جَوَاز أَخْذ الْعَرْض ، وَهُوَ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَسُكُون الرَّاء بَعْدَهَا مُعْجَمَة ، وَالْمُرَاد بِهِ مَا عَدَا النَّقْدَيْنِ . قَالَ اِبْن رَشِيد : وَافَقَ الْبُخَارِيّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة الْحَنَفِيَّة مَعَ كَثْرَة مُخَالَفَتِهِ لَهُمْ ، لَكِنْ قَادَهُ إِلَى ذَلِكَ الدَّلِيل . أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة - بيروت ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، 212/3 .

9) ينظر في ذلك تفصيل طويل ، بيّن فيه الشاطبي أهمية اعتبار الدّليلين ، والكلام يدور وجوداً وعدماً على تحقق مراد الشارع ومقصده . الشاطبي ، مرجع سابق ،8/3.

10) يعني ذلك أن يخالف الدليل الجزئي تطبيقاً له وما ينص عليه مع المحافظة على مراده ؛ مآله ، أو مقصده من الدليل الجزئي ، من ذلك :

خالف عثمان رضي الله عنه خبر النّبيّ صلى الله عليه وسلّم في ضوال الإبل ، عندما أمر عليه الصلاة والسلام بعدم التقاطها محافظة عليها إلى أن يلقاها صاحبها ، وكانت العلّة من ذلك المحافظة على مال المالك الحقيقيّ إلى أن يلقاها ، وفي ذلك مرادٌ واضح للشارع بحفظ الأموال .

فخالف عثمان رضي الله عنه النّص بالتقاطها ، وحافظ على مراد الشارع ؛ حفظ الأموال ؛ وذلك لأن الصدق والأمانة في عهده قد قلت عن ذي قبله ، فرأى من المصلحة أن يأذن بالتقاطها وتعريفها أفضل من ضياعها دون معرفة من وجدها – فخالف النص الجزئي ، وحافظ على المآل والمراد والمقصد الشرعي - وهي مسألة ستأتي في البحث إن شاء الله .

فالمحافظة على الحكم الجزئي بدايةً هو المطلوب ، لكنه إذا خالف مفهوماً عامّاً ، وجب الجمع بينهما في الفهم والنظر إلى المآل بتطبيق أحدهما إذا تحقق مراد الشارع في واحد منهما ؛ ولأن الخلاف بينهما أمر لا يمكن القول به ؛ لأنه خلاف نشأ في الظاهر للناظر في المسألة عند الوهلة الأولى ؛ ولأن الجزء لا يُخالف الكلّ ؛ ولأن الأول ما وُجِد إلا لتحقيق مفهوم الثاني ، والشريعة كما ذكرنا كلٌّ لا يتجزأ .

من خلال ما ذُكِرَ يتبين أن الخوض في بيان ذلك بشيء من التفصيل يحتاج إلى بحثٍ مُطوّلٍ، يُجمع فيه كلُّ ما يتعلّق بالموضوع ، بشكل مفصل لا يلتبس فيه الأمر على القارئ بجواز ترك المنصوص عليه بشكلٍ خاص ، دون النظر إلى مآله بما يُحقق مقصد الشارع الحكيم .

إلا أنّني ما شَرَعت في ذلك ، إلاّ لأجل الالتفات للوحدة التشريعية في الفهم بينهما، وأن تطبيق النص الجزئي بشكل آلي ، أمرٌ قد لا يُحقّق مُراد الشارع بالنظر إلى المآل ، فيكون عندئذٍ وجوبُ النظرِ إلى كليّات الشريعة أمراً ضرورياً لِكَيْ يُلتمسَ مُراد الشارع وما يرتضيه .

ولتحقيق البحث وبيانه سأتناول الموضوع في مقدمة وخاتمة ومقالتين ، يتفرع منهما ما تيسّر كلّما لزم الأمر لذلك إلى ما يلي :-

المقالة الأولى : التعريف بالدليل الجزئيّ والكليّ، والعلَّة في الجمع بينهما.

المقالة الثانية : أثر الفهم والجمع بين الدليلين .

المقالة الأولى

التعريف بالدليل الجزئيّ والكليّ ، والعلّة في الجمع بينهما

تفصيل ذلك فرض على الباحث أنْ يُفرِّع المقالة إلى فرعين :-

الأول : التعريف بالدليل الكلي والجزئي ، ومعنى المآل .

الثاني : العلَّة في الربط بين الدليلين .

الفرع الأول : التعريف بالأدلة الكلية والجزئية ، ومعنى المآل .

أولاً : المفهوم الكلي والجزئي [11] : -

11) هذه التعريفات والتقسيمات والمعاني مستقرأة من عديد المصادر ، نذكر منها : زكي الدين شعبان ، أصول الفقه الإسلامي ، منشورات جامعة بنغازي ، ص 13 وما بعدها . العلامة عبدالوهاب خلاف ، أصول الفقه الإسلامي ، دار القلم ، ط 8 ، ص 14 . أبو عبدالله أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي ، دروس صوتية مفرغة في المكتبة الشاملة ، 74/2 . د. عبدالله الكيلاني ، السياسة الشرعية ، إلى تجديد الخطاب الإسلامي ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ط1 ، عام 1435هـ ص22 وما بعدها . وغيرها من المصادر والمراجع .

[1] - **المفهوم الكلي** : هو كل حكم ، أو دليل ، أو مقصـد ، أو نص ، أو مبدأ عام كُلّيٍّ ، أو مفهوم ذهنيٍّ مجرّد ليس له وجودٌ ماديٌّ ملموس خارج جزئيَّاته . [12]

شرح التعريف : -

- كل حكم أو دليل [13] ، ذلك لأن الأحكام والدلائل إمَّا عامة أو خاصـة ، والعامة هي التي لا تتعلق بمسألة مخصوصة ، كالقرآن والسُّنَّة والإجماع والقياس ، فهذه أدلة عامة وأصل تشريعي عامٌ يندرج تحته العديد من الأحكام الجزئية .

أو هو ما لا يدلُّ على حكم جزئيٍّ بعينه ، أو هو النوع العام من الأدلة التي تندرج فيه عدة جزئيات، كقولنا : كُلُّ أمرٍ للوجوب ، وكل نهيٍ للتحريم ؛ حكم عام يندرج تحته كلُّ الأوامر والنواهي، فالأول واجب ، والثاني محرَّم .

فنقول : الصـــلاة مأمور بها ، والزكاة مأمور بها ، والحج مأمور به ، فكلّ هذه الجزئيات تندرج تحت الحكم العام المأمور به ، الذي يُعَدُّ واجباً ؛ لأن كل أمر للوجوب .

وكذلك التحريم ، فأكل لحم الخنزير منهيٌّ عنه ، وكذلك الميتة ، والزِّنى ، والخمر ، فهي أحكام جزئية تندرج تحت مفهوم أو حكم عام يُفيد أن التحريم منهيٌّ عنه ، فصار المنهي عنه محرماً للحكم العام السابق ، وكذلك كلَّ نهيٍ للتحريم .

ـــ أو نصٍّ أو مبدأ أو مقصدٍ : قد يذكر القرآن نصاً يُبَيِّن فيه مبدأ عاماً ، يجب مراعاته في جميع الأحكام ، وذلك لأن هذه المبادئ تُعدُّ الأساس الذي تقوم عليه الشريعة الإسلامية ، نذكر من بينها العدل ، والرحمة ، والتيسير ، ورفع الحرج والضرر ، ودرء المفاسد وجلب المصالح ، هذه المفاهيم والمبادئ العامة وغيرها يُطلق عليها بعض المقاصديِّين ، بالمقاصد الشمولية [14] التي أكَّدت الشريعة على حفظها ومراعاتها في جميع أبواب التشريع ومجالاته ، وذكروا من بينها ما ذَكَرْناه من مفاهيم سابقة .

ويدلُّ على ما سبق من مفاهيم نصوصٌ ذكرها الشارع الحكيم من بينها : قوله تعالى : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [15] ، وقوله : " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ " [16] ، وقوله:

---

12) د. عبدالله الكيلاني ، المرجع السابق ، ص22.
13) د . عبدالوهاب خلاف ، المرجع السابق ، ص16 .
14) يقسم بعض الفقهاء المقاصد من حيث الشمول إلى : مقاصد عامة وخاصة ، وجزئية وكلية ، وقطعية وظنية ، ومن المقاصد العامة ما ذكرناه من إقامة عدل وغيرها . ابن عاشور، مقاصد الشريعة ، دار النفائس عمان ، ط 2، سنة 2002م ، تحقيق : محمد طاهر الميساوي . ص 231 . حيث اشترط ابن عاشور شروطاً لا يسع المقام لذكرها ، ولعدم مناسبتها للبحث . الشاطبي ، كتاب المقاصد ، 8/2 وما بعدها من أقسام ، مرجع سابق . د. عبدالله الكيلاني ، أثر المقاصد الجزئية والكلية في فهم النصوص الشرعية، دراسة تطبيقية من السنّة النّبوية ، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون ، م33 ، عدد 1 ، سنة 2006 ، ص101.
15) سورة الحج – الآية 78 -
16) سورة المائدة – الآية 6 -

" يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " [17] ، وقوله " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ " [18] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " لا ضرر ولا ضرار " [19] ، وغيرها من الأدلة .

ـــ والقول بأنه مفهوم ذهني مجرّد ليس له وجود ماديّ ملموس خارج جزئياته ، نقصد به بعض المفاهيم الذهنية العامة غير الملموسة ، والتي طلبها الشارع وأكّد عليها في جميع المواضع ، كالعدل ، والرحمة ، وغيرها من المفاهيم ، فالعدل والرحمة مطلوبان في كل أمر وفعل ، وغيرها من المفاهيم العامة . [20]

2) المفهوم الجزئي : ونقصد به الدليل ، أو النص الجزئي .

وهو الدليل الذي ورد بخصوص مسألة بعينها في الكتاب أو السنة أو في القياس أو الإجماع [21] ، أو هو الدليل الجزئي الذي يتعلق بكل مسألة على جهة الخصوص [22] ، قال تعالى: " الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ " [23]، وقوله تعالى : " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا " [24] ، فترتيب العقوبة على الزنا والسرقة ثبتت بنص جزئي خاص بهما .

وكقوله تعالى : " إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ " [25] ، وغيرها من النصوص والأدلة التي تدلُّ على تحريم نصٍّ جزئيٍّ بعينه ، أو الأمر بمسألة مخصوصة، كقوله تعالى : " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ " [26] ، " وَآتُوا الزَّكَاةَ " [27] ، وغيرها من النصوص الآمرة الدالَّة على مسألة معينة مخصوصة .

ثانياً : معنى المآل :-

لغة من آلَ يؤُولُ [28] ، يقالُ : آلَ الأمرُ إلى الصلاح أو الفساد ، أي انتهى به لذلك ، ومآل الشيء عاقبته التي ينتهي إليها ، ومصيره الذي يفضي إليه . [29]

لذا يقول أهل الأصول والمقاصد : إن على الفقيه أن يُنقِّح المناط ، وأن يستحضِرَ المآل ؛ يعني إنزال الدليل أو النص الشرعي على الواقعة محلّ النظر ، وهذا ما يُسمى بتنقيح المناط ،

17) سورة البقرة – الآية 185 -
18) سورة النحل – الآية 90 -
19) محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ، سنن ابن ماجه ، دار الفكر بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، /784 ، رقم 3241.
20) د / عبدالله الكيلاني ، مرجع سابق ، ص 22 .
21) فتحي الدريني ، نظرية الظروف الطارئة ، جامعة دمشق ، ط 2 ، ص157 .
22) أبو عبدالله أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي ، شرح مختصر التحرير للفتوحي ، دروس صوتية مفرغة بالمكتبة الشاملة 74/2.
23) سورة النور – الآية 2 .
24) سورة المائدة – الآية 38 -
25) سورة البقرة – 173-
26) سورة البقرة – الآية 43-
27) سورة البقرة – الآية 43-
28) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ـ بيروت ، ط 1 ، 1 ـ 137.
29) زيد بو شعراء ، عوامل تغير الأحكام في التشريع الإسلامي ، مكتبة المصطفى ، ص2.

والأهمّ من ذلك أن يَسْتَحْضِرَ المآل ؛ أي أن يدرك ما سيؤول إليه الحكم من مفاسد ومصالح ، وأن يعلم مقصود الشارع من تنزيله للحكم .[30]

وبمعنى أوضح : المآل هو النظر ، أو الرجوع إلى الحكم إذا ما كان جالباً للمصلحة أو المفسدة[31] ، أو هو اعتبار ما يصير إليه الفعل أثناء التنزيل للأحكام الشرعية على محالِّها[32] ، أو هو أصلٌ يقتضي اعتباره في تنزيل الحكم على الفعل وما يناسب عاقبته المتوقعة .[33]

الفرع الثاني : - العِلَّة في الجمع بين المفهومين سياسةً ، ومقصداً.

قد يتبارد إلى الذهن بداية لجلِّ المتخصصين وغيرهم - من العارفين بأحكام الشرع والدين - أنَّ الكلام عن الدليل الجزئي والكلي قد يكون بخصوص عرض البحث لكلٍّ من الفقيه والأصولي ، فالأول يبحث عن الدليل الجزئي ، وما يدل عليه من حكم جزئي ، بخلاف الأصولي الذي يبحث عن الدليل الكلي ، وما يدل عليه من حكم كلي .

ومن ثم وجب – أولاً - البيان والتبيين بأن عِلَّة الجمع بينهما إنما كانت لقصد بيان الفهم الجزئي في ضوء كليات الشرع أحياناً ولزوماً لمراعاة المآل في الحكم ، وثانياً : وجب تقييْدُ البحث بالسياسة ، لأن الجمع بينهما في الفهم لا يكون إلا سياسةً ومقصداً ، ومراعاةً من وليِّ الأمر لِكَي يَتحرّى مُراد الشارع في الوقائع .[34]

وعليه يمكننا القول : إن الدليل الجزئي يُطَبَّقُ دائماً ، وذلك لأنه التشريع القطعي بكلِّ جزءٍ شُرِّعَ لهُ الحكم ، وهذا هو الأصل .

لكن إذا تبيَّن للمجتهد أن مآل تطبيقه يخالف مبدأ عاماً في التشريع ، فإنه لا يُعمل به مطلقاً ، ويجب عندئذٍ مراعاة تقديم الدليل الكليّ على الجزئيّ ، أو الانتقال بالفهم من الجزء إلى الكلّ إذا ما كان الفهم الجزئي وتطبيقه يؤدي إلى مفسدةٍ لا تُحَقِّقُ مُراد الشارع من تطبيق الأحكام .

---

30) عبدالكريم زيدان ، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ، قاعدة لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان ، دار عمر بن الخطاب للنشر ، ص 102.

31) أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس ، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار النشر مكتبة ابن تيمية ، ط2، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي ، 348/11 . والنص : (أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة وليس في الشرع ما ينفيه ، فهذه الطريق فيها خلاف مشهور ، فالفقهاء يسمونها المصالح المرسلة ، ومنهم من يسميها الرأي ، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان ، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ، ويذوقون طعم ثمرته وهذه مصلحة ، لكن بعض الناس يُخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان ، وليس كذلك ، بل المصالح المرسلة في جلب المنافع وفي دفع المضار ، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين ، وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين ، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي ، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي = يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي ، فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط ، فقد قصر ، وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل ، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه ...) .

32) معنى المآل في كتاب الـ د.عمر جدية ، أصل اعتبار المآلات بين الجدية والتطبيق ، دار ابن حزم ، ط1 ، سنة 1430هـ ، ص24 وما بعدها .

33) فريد الانصاري ، المصطلح الأصولي عند الشاطبي ، ص457.

34) ذكرنا أن تقييد البحث بلفظ السياسة ، يُخرج القارئ من فهم المقارنة بين الدليلين في ضوء أصول الفقه إلى أحكام السياسة الشرعية ، وما يحتاج إليه الفقيه لمراعات الأدلة الجزئية وفهمها ، والانتقال بها إلى فهم وعدم التعارض مع كليات الشريعة .

فعلى المجتهد ألَّا يطبق النص الجزئي بشكل آليٍّ دون مراعاة النظر إلى مآل تطبيق الحكم ، فإذا كان مآلُ تطبيقه لا يحقق مصلحة ومراد الشارع وجب الانتقال به إلى الفهم الكلي ، وأن عدم مراعاته له أثر واضحٌ وجلِي في أحكام السياسة الشرعية، وفيه عدم مراعاة المصالح التي تعودُ على الإسلام والمسلمين.

وعليه يجب الجمع بين الدليلين في الفهم ؛ (الوحدة التشريعية بينهما) : التي هي إعمال نصوص الشريعة المتعلقة بمسألة ما ، وعدم الاقتصار على بعض الأدلة الجزئية من غير التفاتٍ للكليات . [35] ؛ لأن عدم الجمع بينهما ، وتطبيق الدليل الجزئي يؤدي إلى مفسدة لا يرتضيها الشارع الحكيم ، ولأن مناسبة المراعاة بين الدليلين أظهر من مراعاة الدليل الخاص دون المفاهيم العامة والقواعد الكلية التي جاء بها الشرع والدين .

ولأن الانتقال بالفهم الجزئي إلى الكلي بالوحدة التشريعية فيه أثر ظهور وتحقيق المواءمة بين المصلحة ومراد الشارع وغاياته ، فإذا كان مآل تطبيقه لا يحقق مقصد الشرع ، وجب عدم تطبيقه دون مراعاة القواعد الكلية .

وإن القول بغير ذلك يؤدي إلى الخروج بما نصَّت عليه الشريعة من العدل والرحمة والمصالح إلى غيرها من الظلم والمفاسد .

يقول ابن القيم : " فإن الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا على الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ في الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا وَمَصَالِحُ كُلُّهَا وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عن الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى العبث فَلَيْسَتْ من الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فيها بِالتَّأْوِيلِ". [36]

وعليه يجب عندئذٍ أن نرتقيَ بالتعليل من الجزء إلى ضوء هذه الكليات – (العدل ، الرحمة ، المصلحة ، الحكمة) - لمعالجة هذه المسائل .

(فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فهم فيه عن الشارع مقصده في كل مسألة من مسائل الشريعة هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي (صلى الله عليه وسلّم) في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله). [37] ؛ يعني أنه قد تحقَّقَ له وصف الجمع والفهم بين الأدلة الجزئية والكلية ، وصار قادراً على فهم وتقدير المآل في كل مسألة عادية واستثنائية بفهم مراد الشارع عند تطبيق أحكامه في جميع الأحوال والظروف. [38]

ويُبيِّنُ الشاطبي (رحمه الله) أهمية اعتبار الكلِّيّ من الأدلة والمفاهيم فيقول : (إذا ثبت في الشريعة قاعدة كلية في هذه الثلاثة - ويقصد الضروريات والحاجيات والتَّحسينيَّات - أو في آحادها ،

---

35) د . عبدالله الكيلاني مرجع سابق ، ص22 .

36) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دار الجيل - بيروت ، سنة 1973 ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، 3/3.

37) الشاطبي ، مرجع سابق ، 106/4 .

38) نقصد بذلك : أن الأصل تطبيق الأحكام الجزئية في الظروف العادية ، وعدم تطبيقها سياسة في الظروف الاستثنائية إذا عُلِمَ من تطبيقها عدم تحقيق المصالح وغايات الشرع من تطبيق الحكم الجزئي ، لذا أوقف عمر رضي الله عنه تطبيق حد السرقة في الغزوات ، ولم يحكم بالمسألة العمرية في المواريث بأحكام المواريث الجزئية المتواترة والمنصوصة ، ولم يُوزع أرض سواد العراق بين المجاهدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما سيؤول إلى ذلك من مفاسد عند تطبيق الحكم الجزئي ، وسيأتي بيان ذلك في البحث إن شاء الله .

فلا بد من المحافظة عليه بالنسبة إلى ما يقوم به الكلي وذلك الجزئيَّات ، فالجزئيَّات مقصورة معتبرة في إقامة الكلّيّ أن لا يتخلف الكلّيّ فتتخلّف مصلحة المقصود بالتشريع).[39]

ويبدو لي - والله أعلم - أن أدقَّ عبارة قرأْتها ، ووجدتها في مراعاة الدليل الكلّيّ وتقديمه على الجزئيّ - إذا ما كان مآل تطبيقه لا يُحقّقُ مراد الشارع وغايته - ما ذكره الشاطبي عندما قال : (إن الكليات لا يقدح فيها تخلّف أحادِ الجزئيات) [40] ، ثم علّل الشـــاطبي ذلك بقوله : (حتى إنْ تخلّف الجزئيُّ هنالك إنما هو من جهة المحافظة على الجزئيِّ في كليّهِ من جهة أخرى) [41].

ثم جعل الشاطبي للتخلف سبباً عارضاً فقال : (إنْ كان لغير عارضٍ فلا يَصحُّ شرعاً ، وإنْ كان لعارضٍ فذلك راجعٌ إلى المحافظة على ذلك الكليِّ من جهة أخرى) [42] .

يُفْهَمُ من ذلك : أنه يجوز مخالفة الدليل الجزئي لمفهوم عام ، وهذه المخالفة تكون لعارضٍ ظهر للمجتهد وكان سبباً في عدم انقداح هذه المعارضة .

ولأنه - كما علَّل الشاطبي سبب المعارضة - إنَّما هو من جهة المحافظة على الجزئي في الكلّيِّ من جهةٍ أخرى .

فإذا كان مآلُ تطبيق الدليل الجزئي لا يحقق مُراد الشـــارع وغاياته ، تُرِكَ ولم يُعمل به إذا خالف المبادئ والمفاهيم العامة .

من ذلك مخالفة عثمان (رضي الله عنه) لنصٍ جزئيٍّ صريح يقضي بعدم التقاط ضوال الإبل [43] ، فأمر بالتقاطها مراعاةً لمفهوم عامٍّ – مقصد حفظ المال - قدّمَهُ على الدليل الجزئيّ .

فلقد قدّر (رضي الله عنه) المتغيرات الاجتماعية ، وضعف الدين في زمانه عن ذي قبله ، وأن النص الجزئي بإعماله سيؤدِّي إلى عدم تحقيق مقصده - حفظ المالِ بعدم التقاطها قديماً حتى يلقاها صاحبها - فأمر (رضي الله عنه) بالتقاطها في زمانه لضعف الذِّمم وديانة الناس ، فخالف النص الجزئي لنفس علّةِ وسبَبِ الدليل الكليّ ، وهو حفظ المال .

وهذا معنى كلام الشاطبي بقوله : (إنَّما سبب المعارضة من جهة المحافظة على الجزئي في الكليِّ من جهة أخرى) .

فكان سبب الحكم الجزئي فيما سبق حفظ المال بعدم التقاطها ، وفي مخالفة عثمان (رضي الله عنه) بالتقاطها مراعاة جنس العلّة والسبب ، ذلك لأن مآل تطبيق الجزء لا يُحقِّقُ مُراد الشارع من النص في وقته ، فنظر في مآل تطبيقه (رضي الله عنه) ولم يعمل به ، فقدَّم المفهوم العام – مقصد حفظ المال - لأنه علَّةُ الحكم الجزئي في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومآل وعلَّة

---

39) الشاطبي ، مرجع سابق ، 2 / 61 .
40) نفس المرجع ، 2 / 62 .
41) نفس المرجع ، 2 / 62 .
42) نفس المرجع ، 2 / 62 .
43) " حدثني مَالِكٌ عن رَبِيعَةَ بن أبي عبد الرحمن عن يَزِيدَ مولى الْمُنْبَعِثِ عن زَيْدِ بن خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ انه قال جاء رَجُلٌ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فَسَأَلَهُ عَنِ اللُّقَطَةِ فقال اعْرِفْ عِفَاصَهَا وَوِكَاءَهَا ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً فَإِنْ جاء صَاحِبُهَا وَإِلاَّ فَشَأْنَكَ بها قال فَضَالَّةُ الْغَنَمِ يا رَسُولَ الله قال هِيَ لك أو لأَخِيكَ أو لِلذِّئْبِ قال فَضَالَّةُ الإبِلِ قال مالك وَلَهَا مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حتى يَلْقَاهَا رَبُّهَا .. " . مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي ، الموطأ ، دار إحياء التراث العربي - مصر ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، 2/757 ، رقم 1444.

تطبيقه في عهده (رضـــي الله عنه) ، وبه يتحقّقُ اعتبار القواعد العامة ، وفي هذه دليل على صـــحة القول : بأن الحكم الجزئيّ ما وُضع إلا لتحقيق المقاصد العامة.

لذا يمكننا القول : إن اجتهاد عثمان (رضي الله عنه) فيما سبق دليل على منهج فهم الجزئيات في ضوء الكليات . (44)

هذه هي علّة وسبب الجمع بين المفهومين سياسة ومقصداً ...

المقالة الثانية

أثرُ الفهمِ والجمعِ بينَ الدليلين

من الممكن بيان الأثر من اعتبار وفهم الدليل الجزئي في ضوء كليات الشريعة ومبادئها ، من خلال العرض لتطبيقات مؤدِّيةٍ للوحدة في الفهم بينهما ، ومراعاة النظر إلى مآل تطبيق كليهما في ما يلي : -

الفرع الأول : - تطبيقات من السنة النبوية .

الفرع الثاني : - تطبيقات من فقه الصحابة .

الفرع الثالث :- تطبيقات من فقه التابعين والأئمة .

الفرع الرابع :- تطبيقات معاصرة .

الفرع الأول : تطبيقات من السنة النبوية .

1) الرِّبا في التمر :-

هناك أدلة خاصة تُحرِّمُ الرِّبا في التمر، يقول النبي (صلى الله عليه و سلم) : " التَّمْرُ بِالتَّمْرِ مِثْلًا بِمِثْلٍ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ عَامِلَكَ عَلَى خَيْبَرَ يَأْخُذُ الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : ادْعُوهُ لِي فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أَتَأْخُذُ الصَّاعَ بِالصَّاعَيْنِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَبِيعُونَنِي الْجَنِيبَ بِالْجَمْعِ صَاعًا بِصَاعٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : بِعْ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيباً " (45).

ويقول أيضـــاً : " الْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ وَالشَّـــعِيرُ بِالشَّـــعِيرِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ " .(46)

---

44) د . عبدالله الكيلاني ، مرجع سابق . ص46 .
45) موطأ مالك ، 623/2 ، رقم 1291.
46) البخاري ، مرجع سابق ، 750/2 ، رقم 2027.

في الحديث الأول قال يحيى بن عبدالحميد : (وقوله (صلى الله عليه وسلم) " التَّمْرَ بِالتَّمْرِ مِثْلًا بِمِثْلٍ يُرِيدُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّ هَذَا حُكْمُ بَيْعِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَإِذَا اخْتَصَّ هَذَا الْحُكْمُ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حُكْمٌ مُبَاحٌ غَيْرُهُ يَحْرُمُ التَّفَاضُلُ ...) . [47]

وفي الحديث الثاني يقول ابن حجر : (إِنَّ كلَّ ما دخله الربا من جهة التفاضل فالكيل والوزن فيه واحدٌ ... قال : وأجمع أن التمر بالتمر لا يجوز بيع بعضه ببعض إلا مثلاً بمثل) . [48]

فهذه أدلة خاصة تقطع ببيع التمر مثلا بمثل ، فمن زاد بينهما في البيع فقد أربى ، ومع ذلك نجد النبي (صلى الله عليه وسلم) خالف الدليل الخاص لمبدأ عام وقاعدة كلية عامة ظهرت ونشأت، وهي حاجة الناس بأَنْ رخَّص لهم في العرايا [49] ، فعن زيد بن ثابت أنَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) (رخَّص لصاحب العرية أن يبيعها بخرصها من التمر) [50] ، وفي رواية أنه : (رخّص في بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق ، أو في خمسة أوسق) [51] .

نلاحظ ممّا سبق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لاحظ حاجة الناس والفقراء في المدينة فلم يعمل بالدليل الخاص ، فأجاز لهم بيع التمر على الأرض برطبٍ على الشجر في حدود خمسة أوسق لحاجة الناس ورفع الحرج عليهم ، وهذا مفهوم ومبدأ عام نظر إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وقدّمهُ على الدليل الخاص موازنةً بين المفاسد والمصالح ، ونظراً للمآل وما يحقّقه من مصالح في ذلك .

فعندما قالوا : (يا رسول الله أنبيع التمر بالرطب ؟ قال لهم : "أينقص التمر إذا جفّ" ؟ قالوا: بلى) فنهاهم عن ذلك [52].

---

47) أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي ، المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس (نسخة عتيقة) ، دار السعادة، ط1، سنة 1332 هـ ، 385/3.

48) ابن حجر ، مرجع سابق ، 400/4.

49) العرايا : بيع الرطب في رؤوس النخل خرصاً بما يؤول إليه يابساً بمثله من التمر كيلاً معلوماً ، بمعنى تقدير كمية الرطب على رؤوس النخل ، وما كميتها لو جفت بمثله تمراً على الأرض ، والبيع هنا تقديري ، مخالف لما دلّ عليه الدليل الخاص بأن لا يباع ألا مثلا بمثل .

يقول النووي : " وأما العرايا فهي أن يخرص الخارص نخلات فيقول هذا الرطب الذى عليها إذا يبس تجيء منه ثلاثة أو سق من التمر مثلا ، فيبيعه صاحبه لإنسان بثلاثة أوسق تمر ويتقابضان في المجلس فيسلم المشترى التمر ويسلم بائع الرطب الرطب بالتخلية .. " . أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1392 ، ط2 178/10.

50) حدثنا عبد اللَّهِ بن مَسْلَمَةَ حدثنا مَالِكٌ عن نَافِعٍ عن بن عُمَرَ عن زَيْدِ بن ثَابِتٍ رضي الله عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَرْخَصَ لِصَاحِبِ الْعَرِيَّةِ أَنْ يَبِيعَهَا بِخَرْصِهَا . البخاري ، مرجع سابق ، 763/2 ، رقم 2076.

51) حدثنا عبد اللَّهِ بن يُوسُفَ أخبرنا مَالِكٌ عن عَمْرِو بن يحيى الْمَازِنِيِّ عن أبيه قال سمعت أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قال : قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ليس فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ من الْإِبِلِ وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ . نفس المرجع ، 524/2 ، رقم 1378.

52) حدثنا عبد اللَّهِ بن مَسْلَمَةَ عن مَالِكٍ عن عبد اللَّهِ بن يَزِيدَ أَنَّ زَيْدًا أَبَا عَيَّاشٍ أخبره أَنَّهُ سَأَلَ سَعْدَ بن أبي وَقَّاصٍ عن الْبَيْضَاءِ بِالسُّلْتِ فقال له سَعْدٌ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ قال الْبَيْضَاءُ فَنَهَاهُ عن ذلك وقال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُسْأَلُ عن شِرَاءِ التَّمْرِ بِالرُّطَبِ فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إذا يَبِسَ قالوا نعم فَنَهَاهُ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، قال أبو دَاوُد رَوَاهُ إسماعيل بن أُمَيَّةَ نحو مَالِكٍ .. . سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، 251/3، رقم 3359.

وكذلك نهى النبي أحد أصحابه الذين قالوا له : (يا رسول الله : إنَّا نشتري صاعاً من هذا ، التمر الرطب؛ الجديد ، بصاعين من التمر الجاف ؛ القديم) ، فنهاهم[53] .

أجاز لهم بعد ذلك بيع التمر على الأرض برطب على الشجر ، مع تحقق عدم المساواة بينهما ، فكان البيع مجازفةً وتقديراً لحاجة الناس في المدنية عِرْية لهم ورُخصة من الله .

وجه الاستدلال ممّا ذُكِرَ أنه : كلّما كان مآل تطبيق الدليل الجزئي لا يحقق ما يبتغيه الشارع ويرتضيه من مصالح لعباده لا يُعمل به ، لأنه عارض مبدأً وفهماً كليّاً يدعوا إلى رفع الحرج والمشقة على الناس ، وهذا ما تأكد من نظر النبي (صلى الله عليه و سلم) عندما رأى عموم الحاجة في المدينة ، فرفع الحرج عليهم ، ونظر إلى الدليل الجزئي في ضوء تحقيق المبادئ العامة واعتبارها وتقديمها على حرمة الدليل الجزئي ببيع التمر بالتمر مِثلاً بمثل .

لذا يقول بعض الفقهاء (إنما يجوز فيها للحاجة ، ولتعذُّرِ الكيل) [54] ويقولون أيضاً (إنما جاء فيها الإذن بناءً على حاجة الفقراء) [55] .

فقُدِّمَ الفهم الكلي - وهو حاجة الناس والتيسير عليهم - على الدليل الجزئي الذي يقضي بحرمة ما رُخِّصَ من النبي (صلى الله عليه و سلم) بعد ذلك للمنهج الذي بَيّنَ لنا فيه ضرورة النظر إلى مآل تطبيق الحكم ولو كان قطعياً ، وما يترتب عليه من مصالح أرادها الشارع ، ومفاسد أكّد على دفعها بين المسلمين .

فإذا أدَّى الدليل الجزئي إلى تخلُّفِ الغاية من تشريع الحكم ، وعدم تحقق مراد الشارع من تطبيق النصِّ بشكل جزئي ، صار من الضروري أن نرتقي به إلى الفهم الكلي وما يسعى إليه الشارع من تحقيق المصالح ودفع المفاسد .

يقول ابن القيم : (فإن الشَّريعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا على الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ في الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا وَمَصَالِحُ كُلُّهَا وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عن الْعَدْلِ إلَى

---

53) حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ أَسَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الذَّهَبِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالْفِضَّةِ قَالَ سَأُخْبِرُكُمْ مَا سَمِعْتُ مِنْهُ جَاءَهُ صَاحِبُ تَمْرِهِ بِتَمْرٍ طَيِّبٍ وَكَانَ تَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ اللَّوْنُ قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا التَّمْرُ الطَّيِّبُ قَالَ ذَهَبْتُ بِصَاعَيْنِ مِنْ تَمْرِنَا وَاشْتَرَيْتُ بِهِ صَاعًا مِنْ هَذَا قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَيْتَ . أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار النشر : مؤسسة قرطبة ، مصر، مسند أبي سعيد الخدري ، 20/3 ، رقم 11090.

54) أبو الوليد الباجي ، مرجع سابق ، 43/2 .

55) الفتوحي ، مرجع سابق ، 62/8. وللتأكيد على الفهم الكلي للنص تكلم الفقهاء عن سبب واستحقاق رخصة النّبي صلى الله عليه وسلم في العرايا ، ومخالفة الدليل الجزئي بالمنع في البيع مجازفة ، هل هي عامة للفقراء والأغنياء ؟ أم هي مخصوصة في الفقراء ، لأن علّة الرخصة ؛ الحاجة ، والحاجة لا تتحقق إلا في الفقير دون الغني، والراجح أن النص عام ، وفي عمومه دليل على مراعاة الأدلة الجزئية والنظر إلى مآلها وفهمها في ضوء كليات الشريعة.

يقول صاحب المهذب : " وأما العرايا وهو بيع الرطب على النخل بالتمر على الأرض خرصا فإنه يجوز للفقراء ... وهل يجوز للأغنياء ؟ فيه قولان : أحدهما لا يجوز وهو اختيار المزني ، لأن الرخصة وردت في حق الفقراء والأغنياء لا يشاركونهم في الحاجة فبقي في حقهم على الحظر ، والثاني : أنه يجوز لما روى سهل بن أبي حثمة ، قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن بيع التمر بالتمر إلا أنه رخص في العرايا أن تبتاع بخرصها تمراً يأكلها أهلها رطبا ولم يفرق ، ولأن كل بيع جاز للفقراء جاز للأغنياء كسائر البيوع .. " . إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق ، المهذب في فقه الإمام الشافعي ، دار النشر : دار الفكر - بيروت 251/1.

الْجَوْرِ وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى العبثِ فَلَيْسَتْ من الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فيها بِالتَّأْوِيلِ)[56].

2) ما يستفاد من قوله (صلى الله عليه وسلم) : " يا عائشةُ لَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إبْرَاهِيمَ ... " [57] .

هذه لَفْتَةٌ دقيقة قرأتها ونقلتها من أحدى المراجع الحديثة المذكورة [58] ، عندما نُقِلَ هذا الحديث مع ما ذَكَرَهُ الفقهاء من ترك المصلحة لأمن الوقوع على المفسدة ، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه ، إلى ما دلّل به الدكتور عبدالله الكيلاني من ضرورة النظر إلى فقه التطبيق بعد الفهم الجزئي والكلي لفقه التشريع وما يناسب الظرف الناشئ .

يقول النووي : (إذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ أَوْ تَعَارَضَتْ مَصْلَحَةٌ وَمَفْسَدَةٌ وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلِ الْمَصْلَحَةِ وَتَرْكِ الْمَفْسَدَةِ بُدِئَ بِالْأَهَمِّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْكَعْبَةِ وَرَدَّهَا إلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَصْلَحَةٌ، وَلَكِنْ تُعَارِضُهُ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهُ ، وَهِيَ خَوْفُ فِتْنَةِ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا ، وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْلِ الْكَعْبَةِ ، فَيَرَوْنَ تَغْيِيرَهَا عَظِيمًا ، فَتَرَكَهَا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ...). [59]

يدل ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ترك الأصل ، وهو بناء الكعبة على ما كانت عليه من قواعد إبراهيم (عليه السلام) لأجل مفسدةٍ وظرفٍ جديدٍ نشأ في وقته ، وهي الخوف من الفتنة على بعض من أسلم قريباً ، وللخوف من أن يظنَ العرب أنه ما فعل ذلك إلاّ لأجل أن يَعُودَ فضلُ بناء الكعبة له وحده .

هذا التدليل السابق يَربطنا بفكرة ذكرها الدكتور (عبدالله الكيلاني) ، وهي مسألة النظر لفقه التطبيق ومراعاة المآل بعدما ناقش الدليل من باب السياسة فيقول : (وجه الاستدلال من ذلك أنَّ فقه التطبيق غير فقه التشريع المُبْتَدَأ ، وأنَّ التطبيق الآلي أمر مرفوض ؛ إذْ قد ينشأ عن التطبيق نتيجة للظرف الملابس ، أو البواعث المخالفة لمقصد المشرِّع ما يؤدي إلى تخلُّف الغاية من تشريع الحكم، فيصبح التطبيق الآلي مؤدياً إلى نتيجة ضررية تخالف مراد الشارع ..) . [60]

وهذا هو رابط البحث وما يتعلق به من تطبيق الدليل الجزئي ، وما يترتب عليه من مصالح أرادها الشارع ومفاسد أكّد على دفعها .

فالدليل الجزئي بدايةً هو المُطَبّقُ لما شُرِعَ له ، لكن وبالرغم من ذلك وجب النظر إلى مآل تطبيقه في جميع الأحوال والظروف ، فإذا أصبح مؤدّياً إلى نتائج مُضِرَّةٍ وجب العدول عنه ، لأنه لا يحقق مراد الشارع وغايته من تشريع الأحكام .

---

56) ابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، 3/3.
57) مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، 928/2، رقم 1333.
58) د. عبدالله الكيلاني مرجع سابق ، ص37.
59) النووي ، شرح صحيح مسلم ، مرجع سابق ، 79/9.
60) د. عبدالله الكيلاني ، مرجع سابق ، 27.

ولا أدلّ على ذلك مما ذُكر ، من أن المنهيّ عنه قطعاً قد يُرْفَعُ بالنظر إلى مآل الحال والظرف والواقع ، كما هو التصور في جواز أكل لحم الميتة ، و شرب الدم المحرم بدليلٍ جزئي إذا ما ترتب عليه فوات مقصد ودليل عام كحفظ النفس ، فقدم الدليل العام - حفظ النفس - بالرغم من صراحة الدليل الجزئي على تحريم ذلك ، قال تعالى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) [61] ، دليل جزئي يُحَرّم مع قوله تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) [62] ، فرفع الإثم لمخالفة الدليل الجزئي لمفهومٍ ومقصدٍ عامٍ - حفظ النفس - ولغلبة المصلحة في ذلك على دليل الحرمة الخاص .

الفرع الثاني : تطبيقات من فقه الصحابة .

نذكر من بينها اجتهادات عمر وعثمان (رضي الله عنهما) مثالاً ، لا حصراً للأدلة :

1) اجتهادات (عمر رضي الله عنه) في بعض المسائل والصور .

- رأي عمر- (رضي الله عنه) وجَمْعٌ من الصحابة - عدم تطبيق حدّ السرقة عند الحروب والغزوات، و سبب المنع لمصلحة عامة ، وهي حفظ أرواح المسلمين خشية أن يلحق من يُقام عليه الحد بالعدو فيخبرهم عمَّا يَعْتَقِدُ عليه المسلمين عزمهم في أرض القتال .

فإذا خرج الإمام من دار الحرب إلى دار الإسلام أقام الحد على من أصابه ، وهذا قول الأوزاعي ، وجُلّ العلماء والمحدّثين . [63]

هذا الموقف الواقعي من عمر - رضي الله عنه - فيه التفات لمآل تطبيق الحكم في عدم العمل بنص حدّ السرقة الجزئي ، قال تعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) . [64] ، فالقطع في الآية مطلق ، والمطلق يُعمل به ما لم يرد دليل التقييد.

لكن عمر (رضي الله عنه) أوقف الحدّ لظرفٍ نشأ في واقع معيّن راعى فيه ونظر لمآل تطبيقه إذا تمسك بالنص الجزئي في مواجهة الدلائل العامة التي تقضي بحفظ الأنفس ، فارتقى بالفهم

---

61) سورة البقرة – الآية 173-

62) سورة البقرة – الآية 173-

63) روي الترمذي عن النّبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : " لَا تُقْطَعُ الْأَيْدِي في الْغَزْوِ " . وإن كان المنع من النبي صلى الله عليه و سلم ، أم من الخليفة العادل ؛ فعدم تطبيقه كان لمصلحة عامة ، فكلاهما نظرا في العزو إلى مآل الحكم ، فأوقفاه للفهم الكلي ، ولما يترتب عليه الحد من مآلات فاسدة قد تؤدي إلى ضياع أرواح المسلمين .

يقول الترمذي بعد ذكره للحديث : " وَالْعَمَلُ على هذا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ منهم الْأَوْزَاعِيُّ لَا يَرَوْنَ أَنْ يُقَامَ الْحَدُّ في الْغَزْوِ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَ من يُقَامُ عليه الْحَدُّ بِالْعَدُوِّ فإذا خَرَجَ الْإِمَامُ من أَرْضِ الْحَرْبِ وَرَجَعَ إلى دَارِ الْإِسْلَامِ أَقَامَ الْحَدَّ على من أَصَابَهُ كَذَلِكَ قال الْأَوْزَاعِيُّ " .

يقول الأحوذي تعليقاً على ذلك : " قال التوربشتي : ولعل الأوزاعي رأى فيه احتمال افتتان المقطوع بأن يلحق بدار الحرب ، أو رأى أنه أذا قطعت يده والأمير متوجه إلى الغزو ولم يتمكن من الدفع ولا يغني عنا ، فيترك إلى أن يقفل الجيش .. " . محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، الجامع الصحيح سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وآخرون ،53/4، رقم 1450. محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت 4/5.

64) المائدة – الآية 38.

الجزئي إلى الكلي ، فكان تعليله لحكم الدليل في السـرقة جامعاً بالأدلة العامة مراعياً لها ، مُحَقّقاً لمراد الشارع وما يَتَغَيَّاه من تحقيق المصالح ودفع المفاسد .

ـ أوقف عمر (رضي الله عنه) نصّاً جزئيّاً يقضي بِحِلّ الزواج من الكتابيات قال تعالى : " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ " [65] ، وذلك تحقيقاً للمصلحة العامة ، وحفاظاً على أعراض المسلمات بعد كثرة الزواج بالكتابيات والعزوف عن المسلمات . ولأن كثرة الزواج بهن فيه ضررٌ متحقّقٌ بالمسلمات لم يكن يرتضيه الشارع ويبتغيه من تشريع الأحكام .

فإذا أصبح الزواج بغير المسلمات ظاهرة اجتماعية مألوفة ؛ فإن مثل عددهنّ من بنات المسلمين سيُحْرَمْنَ من الزواج ، لا سيما أن التعدّد في زماننا أصبح أمراً نادراً ، وعندئذٍ تتعرض المرأة المسلمة لأحد أمور لا تَحْفَظُ فيه عرضها ، أو الزواج بغير المسلم ، وهذا محرّم ، وهو ممّا لا يرتضيه الإسلام في التكليف بالأحكام ، وهذا الذي نظر إليه عمر (رضي الله عنه) من مفسدة مآل الحكم الجزئي بحلّ الزواج من الكتابيات ، فعطّله لزمن ، مراعاة لمفاهيم وأدلة عامة ، ومصلحة أولاَها وقدّمها واعتبرها على الدليل الجزئي [66] ، وهي الحفاظ على حق الزواج للمسلمات ، وَلِمَا في ذلك من مصلحة حفظ الأعراض بينهنّ لتحقيق عفتهنّ . [67]

ـــ مخالفة عمر (رضي الله عنه) لأحكام المواريث الخاصة لمفهوم عام ، وهو تحقيق العدالة ، فلقد سئل رضي الله عنه في أربعة من الورثة وهم : زوج ، وأم ، أو جد ، وأثنان أو أكثر من أولاد الأم، وعصبة أشقاء ؛ أي أخوة من الأب والأم ، فقضى في المرّة الأولى بأحكام المواريث الجزئية ، فلم يُوَرّث الأشقاء لاستغراق أصحاب الفروض التركة ، وهم الزوج ، والأم أو الجد ، وأولاد الأم .

ولَمَّا رُفعت له في العام الثاني ، قضى في المسألة بمثل ما قضى بها في العام الأول ، فقال له زيد بن ثابت (رضي الله عنه) : (هب أن أباهم كان حماراً ملقىً في اليمّ ؛ يعني الأخوة الأشقاء ،

---

65) سورة المائدة – الآية 5 -

66) أخبرنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الأردستاني أنبأ أبو نصر العراقي أنبأ سفيان بن محمد الجوهري ثنا علي بن الحسن ثنا عبد الله بن الوليد ثنا سفيان عن أبي إسحاق الهمداني عن هبيرة بن يريم عن علي رضي الله عنه قال : تزوج طلحة يهودية ، قال وثنا سفيان ثنا الصلت بن بهرام قال : سمعت أبا وائل يقول تزوج حذيفة رضي الله عنه يهودية فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن يفارقها فقال : إني أخشى أن تدعوا المسلمات وتنكحوا المومسات ، وهذا من عمر رضي الله عنه على طريق التنزيه والكراهة ، ففي رواية أخرى أن حذيفة كتب إليه أحرام هي ، قال : لا ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن . أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، دار النشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414 هـ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، 172/7، رقم :13762 .

67) هذه علّة ما استقرئ من كتب أهل العلم في قول عمر رضي الله عنه .

ما زادهم الأب إلا قُرباً [68] ، فأشرك بينهم في الثلث ؛ يعني أولاد الأم والأخوة الأشقاء ، واعتبرهم جميعاً أخوة لأم ، وأعطاهم الثلث) . [69]

وجه الدلالة ممّا ذكر : أن عمر (رضي الله عنه) خالف الدليل الجزئي لأجل مبدأ عام ، وهو تحقيق العدالة بين أولاد الأم والأخوة الأشقاء ، وأن منع الأشقاء وحجبهم في العام الأول كان بغير سبب ، فكان من العدالة أن يشتركوا في الثلث مع أولاد الأم كأنهم أخوة لأم ، ولهذا سميت بالمشتركة، وبالمسألة العُمرية لقضاء عمر (رضي الله عنه) بينهم بالتشريك .

وفي ذلك دليل على (أن مبادئ العدل تحكم وتهيمن على فهم النصوص الجزئية ، ففي المثال المذكور إظهار لدور الاجتهاد بالرأي في تفهّم مراد الشارع وفهم مقاصده الكبرى ، وتنزيلها واعتبارها عند التطبيق الجزئي) [70] للنص .

2) اجتهاد عثمان (رضي الله عنه) في بعض المسائل والصور .

ـ مسألة ضوال الإبل ، ومخالفته (رضي الله عنه) للدليل الجزئي في ذلك .

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في ضوال الإبل : " مالك ولها ، معها غذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها " . [71]

فالحديث صريح في النهي عن التقاط ضالة الإبل ، وهكذا كان الحكم في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) .

لكن في خلافة عثمان (رضي الله عنه) تغيَّر الحكم وخالف الدليل الجزئي ، فأمر بأخذها وتعريفها وبيعها ، وأخذ ثمنها إلى أن يظهر صاحبها ، وفي عهد علي (رضي الله عنه) جعل لها بيتاً خاصاً يحبسها فيه ويطعمها ويسقيها من بيت المال لفترة معينة إلى أن يظهر صاحبها . [72]

---

68) ودلائل ذلك ما يلي :-

أ - حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، ثنا يحيى بن أبي طالب ، حدثنا يزيد بن هارون ، ثنا أبو أمية بن يعلى الثقفي ، عن أبي الزناد ، عن عمرو بن وهب ، عن أبيه ، عن زيد بن ثابت ، في المشتركة قال : « هبوا أن أباهم كان حمارا ما زادهم الأب إلا قربا ، وأشرك بينهم في الثلث » .

ب - حدثناه الحسين بن الحسن بن أيوب ، ثنا أبو حاتم الرازي ، ثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى ، أنبأ أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن الشعبي ، عن عمر ، وعلي ، وعبد الله ، وزيد ، رضي الله عنهم ، في أم وزوج وإخوة لأب وأم وإخوة لأم : « أن الإخوة من الأب والأم شركاء للإخوة من الأم في ثلثهم ، وذلك أنهم قالوا هم بنو أم كلهم ولم يزدهم الأب إلا قربا فهم شركاء في الثلث » . محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية - بيروت - 1411هـ ، ط1 ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ،474/4 ، رقم 7969 – 7970.

ج - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ وَالأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي زَوْجٍ وَأُمٍّ وَإِخْوَةٍ لأَبٍ وَأُمٍّ وَإِخْوَةٍ لأُمٍّ قَالَ : كَانَ عُمَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَزَيْدٌ يُشَرِّكُونَ ، وَقَالَ عُمَرُ : لَمْ يَزِدْهُمُ الأَبُ إِلاَّ قُرْباً . عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي - بيروت - 1407 ، ط1 ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي , خالد السبع العلمي ، 446/2 ، رقم 2882.

69) عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور ، دار النشر : دار الفكر - بيروت ، 449/2 . سليمان الجمل ، حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري) ، دار الفكر - بيروت - بلا ، الطبعة : بلا ، تحقيق : بلا 18/4.

70) د. عبدالله الكيلاني ، مرجع سابق ، ص32.

71) البخاري ، مرجع سابق ، 2 / 759 ، رقم 2306.

72) أبو الوليد الباجي ، مرجع سابق ، 4 / 72 .

وجه الاستدلال من ذلك : أن عثمان وعلياً (رضي الله عنهما) أدركا مراد الشارع من خبر النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنع بحفظ المال .

فلما تغيرت النفوس في زمنهما خالفا صريح الدليل الجزئي لمفهوم ودليل عام ، فحافظا على علّة الدليل الجزئي و خالفا ظاهره ، ففهما أن حفظ المال في زمنهما لا يكون إلا بالتقاطها ، لا بتركها، وتطبيق الدليل الجزئي السابق .

وما قام به عمر وعلي (رضـــي الله عنهما) من حفظ علة الدليل الجزئي باتباع المفاهيم العامة، وعدم تطبيق الدليل الجزئي يَظهر جلياً وواضـحاً من مفهوم كلام الشـاطبي في قوله : (إذا ثبت في الشريعة قاعدة كلية في هذه الثلاثة - ويقصد الضروريات والحاجيات والتحسينيات - أو في آحادها فلا بد من المحافظة عليه بالنسبة إلى ما يقوم به الكلي وذلك الجزئيّات ، فالجزئيّات مقصورة معتبرة في إقامة الكلّيّ أن لا يتخلف الكلّيّ فتتخلّف مصلحة المقصود بالتشريع) . [73]

فاعتبرا (رضـــي الله عنهما) الدليل الكلي بمخالفة الدليل الجزئي للمتغيرات الاجتماعية ، فخالفا ظاهر النص بالمنع من التقاط ضـوال الإبل بالتقاطها ، وحافظا على علة الدليل الجزئي القائم بالنسبة لما ينص عليه الدليل الكلي من تحقيق المصلحة بحفظ المال . [74]

الفرع الثالث : تطبيقات من فقه التابعين والأئمة .

1) تدوين السنة :

نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه عن تدوين السنة فقال : " لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".[75]

وكذلك عمر (رضـي الله عنه) من بعده كان يتشـدَّدُ في ذلك ، فعن عروة بن الزبير أن عمر (رضي الله عنه) " أراد أن يكتب السنن ، فاستفتى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك ، فأشاروا إليه بأن يكتبها ، فطفق عمر بن الخطاب يستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال إني كنت أريد أن أكتب السـنن ، إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها

---

73) وغير ذلك من الأمثلة المسـتقرأة التي لم يعمل بالدليل الجزئي فيها مراعاة للدليل الكلي وما ينص عليه ، وأن في اعتبار الكل اعتبار للشريعة وما يرتضيه الشارع الحكيم .
من ذلك ما يمكن عرضه بإيجاز حول مخالفة الدليل الجزئي في قول النبي ـــ صلى الله عليه وسلم : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) ، بمنعهن من المساجد مراعاة لمقصد عام ، حفظ الاعراض ، وسدّاً لذريعة الوصول إلى المحرم بخروج النساء متبرجات متطيبات للمساجد ، فتقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : (لو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المساجد ...) .
يقول النووي في شرحه لما رواه مسلم في ذلك : قول عائشة ـ رضي اله عنها ـ لو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى " يعني الزينة والطيبُ وحسن الثياب " . النووي ، مرجع سابق ، 4 / 164 . وفيما ذكر النووي سبب في الوصـول إلى ما نص الشـارع على حفظه من مقاصده العامة والكلية في حفظ الأعراض ، ومن صور حفظ الأعراض سد الذرائع لكل شيء يوصل إلى انتهاكها ، والله أعلم .
74) الشاطبي ، مرجع سابق ، 2 / 61 .
75) رواه مسلم ، مرجع سابق ، 4 / 2298 ، رقم 3004 .

وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا " . [76] ، وتظهر العلة واضحة في عدم تدوينها بكلام عمر (رضي الله عنه) بترك كتاب الله والاشتغال بالسنة ومضاهاتها للقرآن . [77]

يقول الخطيب البغدادي : (إن كراهة من كره الكتابة من الصدر الأول : إنما هي لئلَّا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره ، أو يشتغل عن القرآن بسواه) . [78]

ومع ذلك نجد السنة في عصر التابعين قد دُونت ، وأمر بها الخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز [79] ، لمصلحة ومفهوم عام يظهر في المحافظة على سنة رسول الله ، ومن ثم المحافظة على الدين، وهو أول المقاصد حفظاً للمسلمين . [80]

فارتقى (رضـــي الله عنه) بالتعليل من المفهوم الخاص إلى العام ، ونظر إلى المآل في عدم تدوين السنة وما يترتب عليه من مفاسد تعود على الإسلام والمسلمين.

فقدّم المبادئ والمفاهيم العامة على الدليل الجزئي الذي يقضـــي بالمنع ، فدونها حفظاً للدين بحفظ سنة آخر المرسلين .

وعليه يمكن القول : إن فقه التشـــريع يقتضـــي عدم تدوينها لعلةٍ وُجدت وقت المنع ، وفي عصر التابعين نظر عمر بن عبدالعزيز إلى تطبيق ذلك ومآله ، فلم يعمل به لعلةٍ نشأت في عصره، وهي حفظ الدين بحفظ سنة سيد المرسلين ، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً بفقه التطبيق . [81]

2) حكم التسعير :

عن أَنَسٍ قال : (قال الناس يا رَسُولَ اللَّهِ غَلَا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لنا فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّ اللَّهَ هو الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ في دَمٍ ولا مَالٍ) . [82]

---

76) يوسف بن عبد البر النمري ، جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد البر النمري ، دار الكتب العلمية - بيروت – 1398هـــ ، 1 / 64 .

77) يقول ابن حجر في مقدمته : " اعلم علمني الله وإياك أن آثار النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لم تكن في عصر أصحابه وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ، ولا مرتبة لأمرين أحدهما أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صـحيح مسـلم خشـية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم ، وثانيهما لسـعة حفظهم وسـيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة ، ثم حدث في أواخر عصـر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشـر العلماء في الأمصـار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار ... " . أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة - بيروت - 1379 هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي , محب الدين الخطيب ، 1 / 6 .

78) د . صبحي الصالح ، علم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، لبنان ، سنة النشر 2009 ، ص42.

79) ذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري : " يسـتفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ ، فلما خاف عمر بن عبد العزيز وكان على رأس المائة الأولى من ذهاب العلم بموت العلماء ، رأى أن في تدوينه ضـبطا له وإبقاء ، وقد روى أبو نعيم في تاريخ أصبهان هذه القصة بلفظ : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه قوله ... " . مرجع سابق ، 1/ 195 .

80) اختلف السـلف في كتابة الحديث ، فكرهتها طائفة ، وأباحتها طائفة ، ثم أجمعوا على جوازها . عبد الرحمن بن أبي بكر السـيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، دار النشر : مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، 2 / 65 .

81) وازن عمر بن عبدالعزيز ونظر إلى المآل قبل تطبيق النص الجزئي بشـكل ألي ، أي نظر إلى مآل التطبيق الجزئي بالمنع من تدوين السنة ، فعلم المفاسد والمصالح من تطبيق ذلك ، وارتقى بالمنع إلى مفهوم عام وأشمل بتدوين السنة حفاظاً عليها ، وعلى الدين ، فقدم هذا المفهوم على الدليل الجزئي الذي يقضي بالمنع ، وما يترتب على ذلك من تحقيق مراد الشارع من حفظ الدين بحفظ السنة النبوية .

82) أبو داوود ، مرجع سابق ، 272/2، رقم 3451.

وروي أن عمر بن الخطاب (رضـــي الله عنه) مرّ بحاطب بســـوق المصـــلى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسـأله عن سـعرهما ، فسـعر له مدين لكل درهم ، فقال له عمر: (رضـي الله عنه) قد حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك ، فإما أن ترفع في السعر ، وإما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسب نفسه ثمّ أتى حاطباً في داره فقال له : إن الذي قلت ليس بعزمة مني ولا قضاء ، إنما هو شيء أردت به الخير لأهل البلد فحيث شئت فبع ، وكيف شئت فبع . (83)

هذه أدلة تدل في عمومها وظاهرها على عدم جواز التسـعير، وأنها تفيد إطلاق حرية البائع في ملكه، وأن الرسـول (صلى الله عليه وسلم) قد امتنع صراحة عن التسعير عندما تكرر الطلب من الصحابة بأن يسعّر ، وأن عمر (رضي الله عنه) رجع عن التسعير والإلزام به بعدما رأى أنه قد أخطأ .

ومع ذلك نجد جلّ العلماء المتأخرين وأكثرهم قد خالفوا ظواهر ما ذُكر من أدلة ، وقالوا بجواز التسعير على ملك البائع لحاجة الناس ، وللتيسير عليهم ، ودفع الحرج عنهم .

وهذه مفاهيم عامة نظر إليها الفقهاء والمجتهدون ، وقدموها على ما ذُكر من أدلة خاصـــة تقضي بعدم التسعير .

ولقد اختار ابن تيمية وتلميذه جواز التســـعير عند الحاجة إليه ، فيقول ابن تيميّة : (فإذا تضـمّن ظلم الناس وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضـونه أو منعهم مما أباحه الله لهم فهو حرام ، وإذا تضـمن العدل بين الناس مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضـة بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ زيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب .... فإذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم ، وقد ارتفع السعر إما لقلة الشيء وإما لكثرة الخلق ، فهذا إلى الله ، فإلزام الخلق أن يبيعوا بقيمة بعينها إكراه بغير حق ، وأما الثاني فمثل أن يمتنع أرباب السـلع من بيعها مع ضـرورة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة ، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل فيجب أن يلتزموا بما ألزمهم الله به) . (84) ، (85)

---

83) البيهقي ، مرجع سابق ، 69/6 ، رقم 10929.

84) ابن تيمية ، مرجع سابق ، 77/28.

85) جواز التسعير بين الفقهاء على خلاف ، فمنهم من حرمه مطلقاً ، وهو قول المالكية ، وهو الصحيح في المذهب الشافعي ، والمشهور من المذهب الحنبلي ، وهو قول بعض السلف من الصحابة والتابعين ، والقول الثاني : جوازه إذا وجد سبب لذلك ، وهؤلاء نظروا إلى المآل وما يترتب عليه من ظلم وجور بأسباب معينة ذكرنا منها ما قاله ابن تيمية رحمه الله ، وهو مذهب الحنفية ، وقول آخر للشافعية ، وما ذهب إليه بعض الصحابة والتابعين ، وهو ما اختاره شيخ الإسلام وتلميذه . محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني ، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1411 ، ط1 ، 280/3 . النووي ، روضة الطالبين وعمدة المفتين ، دار النشر : المكتب الإسلامي - بيروت - 1405 ، ط 2 ، 413/3 . عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، دار الفكر - بيروت - 1405 ، ط 1 ، 311/6 . علاء الدين الكاساني ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، دار الكتاب العربي - بيروت - 1982 ، ط2 ، 199/5. فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ، دار الكتب الإسلامي، القاهرة - 1313هـ ، 6/27 . أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، دار النشر : مطبعة المدني - القاهرة ، تحقيق : د. محمد جميل غازي ، 139/4 . وغيرها من المصادر والمراجع ..

فتبين مما سبق أن شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ يتكلم ويقوم ببناء حكمه على مفاهيم وأدلة عامة، كالظلم وضـرورات الناس ، ومن العدل أن يسـعر على التجار إذا ما ترتب ظلم لا يرتضـيه الشارع الحكيم .

ومن العدل رفع الظلم ، والسّـير وراء التخفيف على الناس ، ورفع الحرج والتيسـير عليهم بقدر الامكان ، وهذه مفاهيم ومبادئ عامة قدّمت على الدليل الجزئي ، لأن مراد الشـارع لا يتحقق إلا بالنظر إليها ، وتقدير المآل من خلالها .

ولولي الأمر في ذلك سلطة واسعة في تقدير حاجات الناس ، ورفع الظلم عنهم ، والتيسير عليهم إذا ما اقتضت الحاجة لزوم التسعير لوجود سببه .

الفرع الرابع : تطبيقات معاصرة .

- ذبح غير المسلمين والمسلمين – داعش - [86] ، وحادثة شارلي إبدو .

أخذ ما يعرف بأفراد الدولة الإسـلامية - كما يسـمّون أنفسـهم - وما أظن وصـف الإسـلام يليق بأفعالهم ، وما يُسَوّقُونه من تَصَوُّرٍ خاطئ للمسلم وغيره .

فنظر غير المسلمين إلى الدّين من زاوية هؤلاء نظرة سيئة ، ساهموا هُم وغيرهم فيها ، بحجة تطبيق الإسلام وتعاليمه ، فطبّقوا أحكامه ، و شوّهوا تعاليمه ، وما يرتضيه الشرع الحكيم من ذلك في مواضع كثيرة بأفعالهم وأفكارهم .

وربما إن لم يكن هؤلاء مُخْتَرَقِينَ بِدَايَةً ، إن سـلّمنا بعد ذلك بأنهم فَعَلُوا ما فعلوا عن تأويل أو دليل ، لقلنا بأنهم اعتمدوا على أدلّة جزئية بَرَّرُوا بها أفعالهم وما يريدون، منها - قوله (صـلى الله عليه وسلم) لنفر من قريش بعد أن أكثروا من ايذائه وهو يطوف : " أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ " [87] .

لا يصـح الاسـتدلال به على جواز ذبح الأسـرى كالنعاج ؛ لأن الذبح هنا كناية عن القتل ، كما في قوله تعالى : " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ " .

قال السـمعاني : معنى قَوْله : (" يذبحون أبناءكم " ، أَي : يقتلُون) [88] ، وقال الحَمِيدي وَقَوله : (" أَمرنِي أَن أحرق قُرَيْشًا " : كِنَايَة عَن الْقَتْل) ، كَقَوْلِه عَلَيْهِ السَّلَام : " جِئْتُكُمْ بِالذبْحِ " .

---

86) الذي أدين به أمام الله مع هؤلاء : أنهم جَهَلَةٌ مخترقون من جميع أجهزة المخابرات الأجنبية ، أفسدوا بأعمالهم الدين ، وساعدوا الغرب في تشويه الإسلام والمسلمين ، وما وجدوا وتمكّنوا من رُقَعٍ شاسعة كثيرة إلا بمباركة من أهل الكفر والأسر الحاكمة – بريطانيا و أمريكا – وأنهم ما وُجدوا إلا لتنفيذ مخطّطات من ذُكروا ، وأن هؤلاء من هيّؤوا لهم الجو الملائم في المنقطة العراقية لوجودهم ، فالكثير منهم ما وُجِدَ مع هؤلاء إلا لضـرورة الدفاع عن نفسـه من ظلم الشـيعة وتنكيلهم بأهل السـنة في العراق ، وما الدولة في سـوريا ، إلا صـورة مطابقة لهؤلاء ، وإن تعددت الأسباب لوجودهم واختلفت ، إلا إنهم أفسدوا بأفعالهم وشوّهوا الدين أمام المسلمين وغيرهم ، وضيّقوا دائرة انتشـاره في بلاد الكفر؛ أوربا وأمريكا ، وغيرها من البلدان، فا لله المسـتعان على هؤلاء ، ونسـأله الهداية لهم ، ولنا ، أو أن يجعل كيدهم في نحرهم ، ومن ناصرهم وشايعهم ، وأن يهلكهم بشرّ أعمالهم .

87) مسند أحمد ابن حنبل ، مسند عبدالله بن عمرو بن العاص ، 277/14، رقم 6739.

88) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ، تفسير القرآن ، دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ- 1997م ، ط : الأولى ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم ، 77/1 .

وإن سلّمنا و بعد كلّ ذلك بأن المقصود هو ذبح النّعاج ، لسرنا وقلنا بما مرّ من ضرورة النظر إلى المآل عند تطبيق النّصوص ، ومدى إمكانية تحقيق مراد الشارع في الوقائع - المصالح ، ودفع المفاسد - .

وإذا رأينا من خلال ما سبق ، لزوم تَركُ العمل بالدليل القطعي الجزئي إذا ما خالف الأدلة والمبادئ العامة ومراد الشارع وما يبتغيه من تشريع الأحكام ، لقلنا بعدم تطبيق فَهْم هؤلاء إن صحّ فهمهم للنّص بداية ، وذلك لأن فعل الذبح مخالف لمفاهيم الشريعة العامة الدالّة على الرحمة والرأفة والعدل ، وأن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ما بُعث إلا بإرساء المفاهيم المذكورة سابقاً .

فأيّ المصالح قد تحققت من فعل هؤلاء على الدين ، وعلى غير ذلك من مفاسد التشويه لما جاء به الإسلام للمسلمين ، وغير المسلمين عند مشاهدة ما يرونه م أفعالهم .

فعَنْ أَبِي عَزِيزِ بْنِ عُمَيْرٍ (أخو مصعب بن عمير) قَالَ : (كُنْتُ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ, فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) : " اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا " , فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ أَوْ عَشَاءَهُمْ أَكَلُوا التَّمْرَ، وَأَطْعَمُونِي الْخُبْزَ، بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إِيَّاهُمْ" [89] .

قال السرخسي : (وَإِنْ رَأَى الْإِمَامُ قَتْلَ الْأُسَارَى فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ بِالْعَطَشِ وَالْجُوعِ، وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُهُمْ قَتْلًا كَرِيمًا) [90] .

وعن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه ، قَالَ: (ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قَالَ: " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " [91] .

فقد دل قوله (صلى الله عليه وسلم) : " فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ " على وجوب اختيار أحسن طريقة للقتل، وذكر الإمام النووي أن الحديث: عَامٌّ فِي كُلِّ قَتِيلٍ مِنَ الذَّبَائِحِ، وَالْقَتْلُ قِصَاصًا، أو حَدّاً [92].

كذلك الشرع هنا فرَّق بين قتل الإنسان والحيوان ، كما في الحديث : " فإذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ " ، فجعلَ القَتل للإنسان ، والذبحَ للحيوان .

والإحسان والرحمة من المفاهيم العامة التي يجب مراعاتها في تنفيذ الأحكام ، وهذا ما أكّد عليه النّبيّ في ما رواه ابن حنبل : بأن الإحسان كتب في كل شيء ، فإعمال الدلائل والمفاهيم العامة وتقديمها - إن صحّ تأويلهم ، وما صحّ كما تبين سابقاً – على الدليل الجزئي أمر مقطوع به ، لعدم تحقق مراد الشارع ممَّا يتأوّلونه من أدلّة .

- حادثة شارلي إبدو - استندوا على أدلة من القرآن والسنّة لا يسع المقام لذكرها والرد عليها .

لكن السؤال هنا : هل أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقتل أشخاص أساؤوا إليه ؟ نعم ، قد أمر بذلك ، وهل سكت عليه الصلاة والسلام على أشخاص أساؤوا إليه ؟ كذلك نعم ؛ عبدالله بن أُبَيْ،

89) سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، المعجم الكبير ، دار النشر : مكتبة الزهراء - الموصل - 1404 - 1983 ، ط : الثانية ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، 22 / 393 ، حسن إسناده الهيثمي والسيوطي .

90) محمد بن الحسن الشيباني ، السير الكبير ، دار النشر : معهد المخطوطات - القاهرة - بلا الطبعة ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، 1029/.

91) مسلم ، مرجع سابق ، 3 / 1048 ، رقم : 1955.

92) النووي ، مرجع سابق ، 101/13.

عرّض بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والرسول رفض أن يقتله ، وكعب بن الأشرف ، أساء إليه ، وأمر بقتله .

إذاً : لماذا سكت النبي (صلى الله عليه وسلم) هنا ، وأمر بالقتل هناك ؟

هذه سياسة ؛ أو هو تدبير سياسي ، لذا لا يوجد عندنا في الفقه بدايةً ما يُسَمّى بالتطبيق الآليّ للنص ، هناك تطبيق مقاصديّ ، يَفْهَمُ المآلات ؛ المقاصد ؛ النتائج .

لذا نفهم بأن الحكم إذا مَا آلَ إلى مفسدة ، فإنه يترك ، فأين المصلحة من حادثة شارلي إبدو ؟ غير مفسدة التضييق على المسلمين في بلاد الكفر ، وفي غيرها .

فخالف فعل هؤلاء ما دلّت عليه الدلائل من تحقيق المصالح ودفع المفاسد إذا ما أخذوا بدليل قتل كعب بن الأشرف على قتل هؤلاء ، فالنّبيّ أمر في موضع بالقتل ، وسكت في موضع آخر ، وهذا ما يُعرف بالفهم الجامع بين المصالح والمفاسد ، وبالنظر إلى الدلائل العامة والخاصة وفقاً لمآل الحكم وما يترتب عليه كل فعل ، والكلام على ذلك يطول ، بذكر الأدلة الخاصة على إبطال ما يقولون به ، ومخالفته كذلك لعموم ومفاهيم الشريعة ومقاصدها ، ومراد الشارع من الأحكام .

ولكنها اللفتة في ذلك ، والضرورة للجمع بين الأدلة ليتحقق مراد الشارع في الوقائع .

الخاتمة

يتبيّن ممَّا ذُكر أنه : أينما وُجدت المصلحة ومراد الشارع وما يرتضيه من تطبيق الأحكام - فثمّ وجه الله ودينه .

فمن أخذ بنص جزئي دون النظر إلى مآل تطبيقه من تحقيق المصالح ودفع المفاسد فقد أخطأ ، وكذلك من أخذ بالكليّ مع تحقيق مراد الشارع بالنص الجزئيّ فقد أخطأ .

وذلك لأن الحكم الجزئيّ لم يُوضع إلاّ لأن مراد الكليّ ومفهومه متحقّق فيه ، وإذا تبيّن للناظر أن الحكم الجزئي قد خالف حكماً كلّياً ، فإنه بذلك لم يتحقّق في ذهنه معرفة الكليّ بشكل كامل، لأن الجزئي لم يكن إلا لتحقيق الكليّ الذي خالفه ، فيحافظ على مآل الجزء بمخالفة تطبيقه ، أو عدم تطبيقه لأجل تحقق مراد الشارع.

وبمعنى آخر يقول الشاطبي : " فإذا ثبت بالاستقراء قاعدة كلية ، ثم أتى النص على جزئي يخالف القاعدة بوجه من وجوه المخالفة ، فلا بد من الجمع في النظر بينهما ، لأن الشارع لم ينصَّ على ذلك الجزئي إلا مع الحفظ على تلك القواعد ، إذ كلية هذا معلومة ضرورة بعد الإحاطة بمقاصد الشريعة ، فلا يمكن والحالة هذه أن تُخرم القواعد بإلغاء ما اعتبره الشارع .. " . [93]

93) الشاطبي ، مرجع سابق ، 9/3.

إذ العبرة بتحقق مراد الشـــارع ، واعتبار الكليّ عند عدم تحقيق مراد الشـــارع في النص الجزئي أمراً ضرورياً ، وهو عند الاستقراء مبثوث في نصوص السنة واجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم كما ذكرنا .

والقول بأن : اعتبار الكلّ ، وعدم إعمال الجزء فيه شيء من ترك الشريعة ، أمر لا يستقيم، إذ ما فائدة كلام الشاطبي بقوله : (لما انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث من الضروريات والحاجيات والتحسينيات ، وكانت هذه الوجوه مبثوثة في أبواب الشريعة " . [94]

وقوله : (فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصـــة من الكتاب والســـنة والإجماع والقياس ، إذ محال أن تكون الجزئيات مســـتغنية عن كلياتها ، فمن أخذ بنص مثلا في جزئيّ مُعرضاً عن كليّهِ فقد أخطأ ، وكما أن من أخذ بالجزئي مُعرضاً عن كليه فهو مخطئ ، كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه) . [95]

وقوله : (فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات ، ولأنه ليس بموجود في الخارج ، وإنما هو مضمَّنٌ في الجزئيات حسبما تقرر في المعقولات) . [96]

وقوله : (فإن قيل الكلي لا يُثبت كلياً إلا من اســـتقراء الجزئيات كلّها أو أكثرها ، وإذا كان كذلك لم يمكن أن يُفرض جزئي إلا وهو داخل تحت الكلي) . [97]

كلّ ذلك يدل على أهمية اعتبار الكليات في تشـــريع الأحكام ، وأن الشـــريعة مبناها على ما ذكر من ضـــروريات وغيرها ، وأن الجزء لا يحقّق مراده إلا بتحقيق مراد الكلّ ، لأن الكلّ مبثوث فيه ، وإذا حدث تعارض بين الجزء والكل ، وجب الجمع بينهما في الفهم ، لأنه تعارض صـــوري ظهر عند من لم يفهم الكلّي بشكل صحيح في الجزئيات من الأحكام . [98]

فأينما وُجدت مصـــالح النّاس وضـــرورياتهم ، والتيسـير عليهم ورفع الحرج عنهم ، وتحقيق العدل بينهم ، فثمّ وجه الله ، وهو مراد الشارع وما يبتغيه .

---

94) نفس المرجع ، 5/3.
95) نفس المرجع ، 8/3.
96) نفس المرجع ، 8/3.
97) نفس المرجع ، 10/3.
98) يقول الشـاطبي : " فإذا بلغ الإنسـان مبلغاً فهم فيه عن الشـارع مقصـده في كل مسـألة من مسـائل الشـريعة هو السـبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلّم في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله " . نفس المرجع ، 106/4 .

المصادر و المراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب التفسير .

- أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ، تفسير القرآن ، دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ- 1997م ، ط : الأولى ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم .

ـ عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور ، دار النشر : دار الفكر – بيروت.

ثالثاً : كتب اللغة .

ـ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ـ بيروت، ط 1.

رابعاً : كتب الحديث والشروح والمصطلح .

ـــ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، الجامع الصحيح المختصر ، دار ابن كثير , اليمامة - بيروت - 1407 – هـ ، ط3 ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، باب العرض في الزكاة.

- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، المعجم الكبير ، دار النشر : مكتبة الزهراء - الموصل - 1404 - 1983 ، ط : الثانية ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي .

ـ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت .

ـ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، دار النشر : مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف.

ـــ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، الجامع الصحيح سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وآخرون.

ـ محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ، سنن ابن ماجه ، دار الفكر بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

ـــ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، دار الفكر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.

ـــ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، دار النشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414 هـ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا.

ـ عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي - بيروت - 1407 ، ط1 ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي , خالد السبع العلمي.

ـ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

ـ أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1392 ، ط2 .

ـ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة - بيروت ، تحقيق : محب الدين الخطيب.

ـ محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية - بيروت - 1411هـ ، ط1 ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا.

ـــ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار النشر : مؤسسة قرطبة – مصر.

ـ مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي ، الموطأ ، دار إحياء التراث العربي - مصر ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

ـ أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي ، المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس (نسخة عتيقة) ، دار السعادة ، ط1، سنة 1332 هـ.

ـــ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة - بيروت - 1379 هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي , محب الدين الخطيب.

خامساً : كتب أصول الفقه والقواعد .

ـــ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، دار الجيل - بيروت ، سنة 1973 ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد.

ـــ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، دار النشر : مطبعة المدني - القاهرة ، تحقيق : د. محمد جميل غازي.

إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المشهور بالشاطبي ، الموافقات في أصول الفقه ، دار المعرفة - بيروت ، تحقيق : عبد الله دراز .

سادساً : كتب الفقه .

- الفقه الحنفي .

ـــ علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتاب العربي- بيروت، 1982، ط2.

ـ فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ، دار الكتب الإسلامي، القاهرة - 1313هـ.

- محمد بن الحسن الشيباني ، السير الكبير ، دار النشر : معهد المخطوطات - القاهرة - بلا الطبعة ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد

- الفقه المالكي .

ـ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني ، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1411 ، ط1.

ـ النووي ، روضة الطالبين وعمدة المفتين ، دار النشر : المكتب الإسلامي - بيروت - 1405 ، ط 2.

- الفقه الشافعي .

ـــ إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق، المهذب في فقه الإمام الشافعي ، دار النشر : دار الفكر – بيروت.

ـ سليمان الجمل ، حاشية الشيخ سليمان الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري) ، دار الفكر - بيروت - بلا ، الطبعة : بلا ، تحقيق : بلا.

- الفقه الحنبلي .

ـ عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، دار الفكر - بيروت - 1405 ، ط 1.

- الفقه العام .

ـــ يوسف بن عبد البر النمري ، جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد البر النمري ، دار الكتب العلمية - بيروت – 1398هـ.

ـــ أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، دار الفكر. - بيروت - 1408هـــ - ، تحقيق : خليل محمد هراس .

سابعاً : المراجع الحديثة .

ـ د.عمر جدية ، أصل اعتبار المآلات بين الجدية والتطبيق ، دار ابن حزم ، ط1 ، سنة 1430هـ

ـ زكي الدين شعبان ، أصول الفقه الإسلامي ، منشورات جامعة بنغازي.

ـ العلامة عبدالوهاب خلاف ، أصول الفقه الإسلامي ، دار القلم.

ـــــ د. عبدالله الكيلاني ، السياسة الشرعية ، إلى تجديد الخطاب الإسلامي ، دار الفرقان للنشر والتوزيع.

ـــــ ابن عاشور ، مقاصد الشريعة ، دار النفائس ، عمان ، ط 2 ، سنة 2002م ، تحقيق : محمد طاهر الميساوي .

ـ عبدالكريم زيدان ، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ، قاعدة لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان ، دار عمر بن الخطاب للنشر.

ـ فتحي الدريني ، نظرية الظروف الطارئة ، جامعة دمشق ، ط 2.

ثامناً : كتب الفتاوى والمجلات .

ـ د. عبدالله الكيلاني ، أثر المقاصد الجزئية والكلية في فهم النصوص الشرعية ، دراسة تطبيقية من السنّة النّبوية ، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون ، م33 ، عدد 1 ، سنة 2006 .

ـ د . صبحي الصالح ، علم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، لبنان ، سنة النشر 2009.

ـ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار النشر مكتبة ابن تيمية ، ط2 ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي .

تاسعاً: صفحات الإنترنت .

ـــ أبو عبدالله أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي ، شرح مختصر التحرير للفتوحي ، دروس صوتية مفرغة بالمكتبة الشاملة.

ـ زيد بو شعراء ، عوامل تغير الأحكام في التشريع الإسلامي ، مكتبة المصطفى.